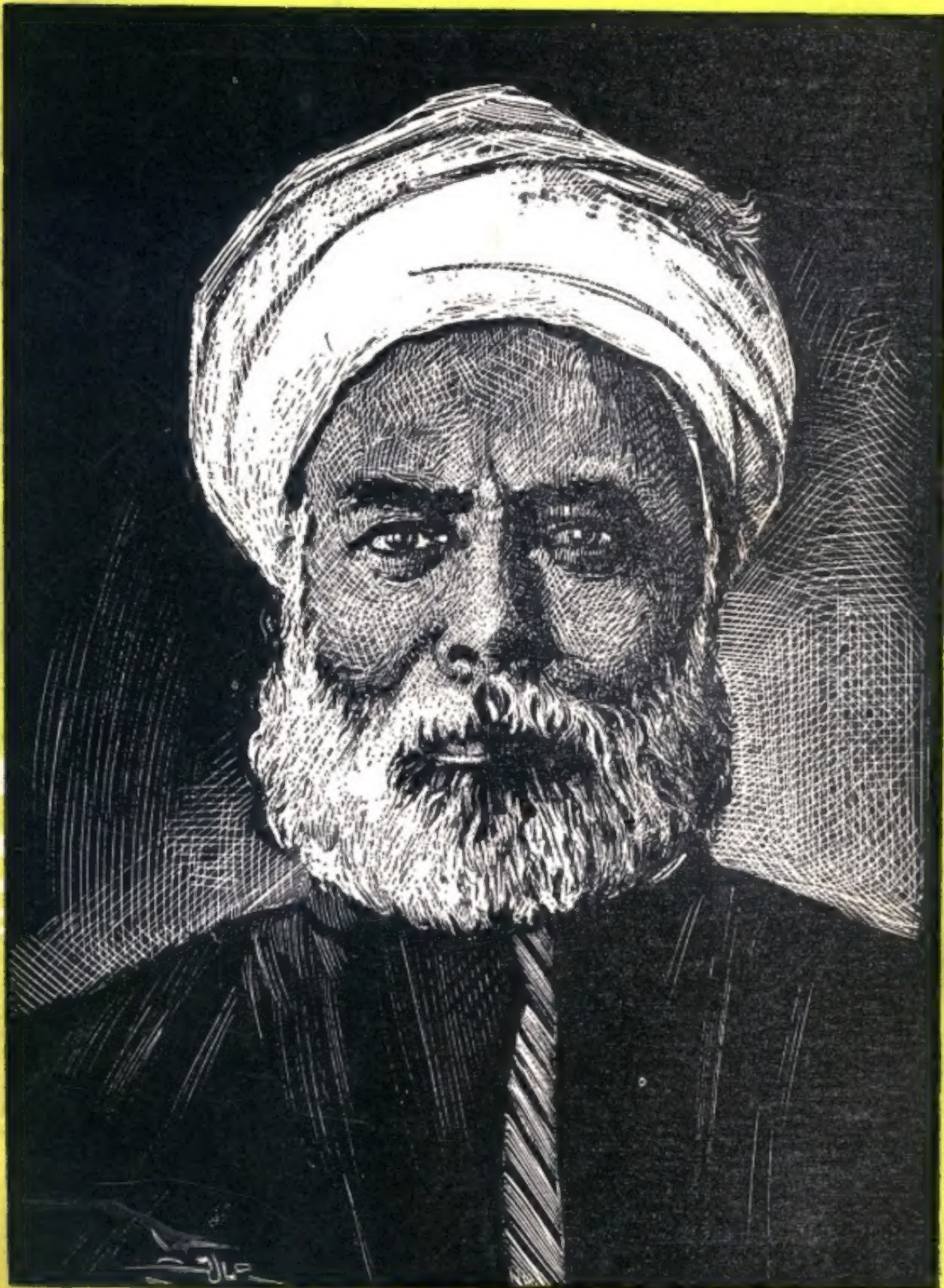


مذکرات

تقدیم و تعلیق :

طاہر الطناحی

# الإمام محمد عبده



دارالحدیث

# منتہی سورا الازہکیہ

---

WWW.BOOKS4ALL.NET

# مذکرات الإمام محمد عبده

---

عرضه وتحقيقه وتعليقه  
طاهر الطنجاوي

---

دار الهلال





## تقديم بقلم الأستاذ طاهر الطاهي

هذا هو الكتاب الثالث من المجموعة الاسلامية لتراث الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، الذي أخذت على نفسي أن أعنى فيها عناية جديدة بحياته العلمية وحياته الوطنية والسياسية واصلاحه الديني والاجتماعي

وقد حفزني الى ذلك حافزان : الأول - أنني عنيت منذ نشأتي الاولى بآثار هذا الامام العظيم ، فقرأت له كل ما كتب في الكتب والصحف ، وكل ما شرحه من كتب البلاغة والبلغاء ، وما عنى به من وجوه الاصلاح في مختلف الميادين . واذا كنت لم أسعد بلقائه - لمجيئي بعد وفاته بعدة سنوات - فقد سعدت بلقاء بعض تلامذته ومريديه ، وفي مقدمتهم المرحومون : شاعر النيل محمد حافظ ابراهيم ، والسيد محمد رشيد رضا ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، والاستاذ ابراهيم الهلباوى . وقد كان هذا الأخير قرينا وزميلا له منذ الصبا !..

وقد أتاح لي معرفتي هؤلاء الرجال الكبار أن أقف على الكثير من ذكرياتهم التاريخية والعلمية والأدبية والوطنية عن حياة الشيخ محمد عبده . وقد دونت بعض ذلك في الكتاين الأول والثاني من هذه المجموعة الجديدة (١)

والثاني من هذين الحافزين : ان الاستاذ الامام حين توفي في سن السادسة والخمسين من حياته القصيرة في عدد السنوات - الطويلة فيما خلف من آثار واصلاحات - لم يكن قد أتيح له أن يجمع ما بحث وكتب في مؤلفات مطبوعة كما فعل الكثيرون من رجال العلم والأدب والاصلاح ، فقام تلميذه المرحوم السيد محمد رشيد رضا بجمع الكثير

(١) كتاب « الاسلام دين العلم والمدنية » وكتاب « دوس من القرآن الكريم »

من كتاباته في الوقائع الرسمية ، وفي مجلة المنار ، وفي جريدة العروة الوثقى التي كان يصدرها مع السيد جمال الدين الافغانى في باريس ، وقد نشر طائفة من تفسيره للقرآن الكريم ودون له تاريخا جمع فيه الكثير من الأبواب . ولم يخرج للناس هذا التاريخ الذى أسماه « تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده » الا في سنة ١٩٣١ م ، بعد وفاة الامام بستة وعشرين عاما ، وقبل وفاته هو ببضع سنوات . ويظهر ان ضيق الوقت وكثرة نفقات الطبع اضطرت السيد رشيد أن يجعل تاريخ الامام اجمالا ، ويدمج سيرته في سيرة السيد جمال الدين الافغانى ، ويضم حياته الشخصية الى حياته الدينية والسياسية ، ويدخل حياته العلمية في حياته الاجتماعية ، ويضيف فتاويه الى آرائه الاصلاحية ، ويخطط مذكراته الوطنية وكتاباته عن الثورة العرابية وآراءه في محمد على ، واسماعيل ، وتوفيق ، وأعوانهم في مجموعة أخرى مما ليس فيها . ويطلع ذلك كله في جزء واحد يستوعب ١٠٥١ صفحة .. وقد كان من دوافع هذه الترجمة المزدحمة المتداخلة انه كان على عرش مصر أبناء محمد على ، واسماعيل ، وتوفيق ، فلم يكن في مقدوره أن يخرج للناس حياة الامام اخراجا ترضى عند الحقيقة ويرضى عنه التاريخ كل الرضاء

\*\*\*

وقد عمد السيد رشيد الى شئ لم يسبق اليه مترجم لحياة عظيم من عظماء التاريخ ، ولا لتلميذ يكتب عن تاريخ أستاذه ، فقد وضع تاريخ الشيخ محمد عبده وما قام به من أعمال ، وكأنه يضع تاريخا لنفسه أيضا ، فقد لا ترى فصلا أو بحثا للسيد رشيد رضا عن الاستاذ الامام ، الا وقد أشرك فيه نفسه ، وكأن حياته جزء من حياة الامام ، بل بلغت به حماسته لنفسه أن جعل عمله مكملًا لأعمال الامام في بحوثه وآرائه وكتبه ، ككتاب التوحيد ، وتفسير القرآن الكريم ، وغير ذلك مما كتبه أو ألقاه من بحوث ودروس . وقد روى عن الامام أبياتا قالها قبيل وفاته وهو على فراش الموت يدعو الامام فيها الله تعالى أن يجعل السيد رشيد رضا

خلفا له على دين الاسلام يضى نهجه ، ويسير على طريقه ، ويمثله نطقا  
وعلما وحكمة . وهذه الأبيات هي :

ولست أبالي أن يقال محمد  
أبل ، أم اكتظت عليه المسائم  
ولكن دينا قد أردت صلاحه  
أحاذر أن تقضى عليه العمائم  
ولكناس آمال يرجون نيلها  
إذا مت ماتت واضمحلت عزائم  
فيارب ان قدرت رجي قريبة  
الى عالم الأرواح ، وانقض خساتم  
فبارك على الاسلام وارزقه مرشدا  
« رشيدا » يضى النهج والليل قاتم  
يمثلني نطقا وعلما وحكمة

ويشبه منى السيف والسيف صارم  
وسواء أكانت هذه الأبيات للشيخ محمد عبده ، أم للسيد محمد رشيد  
رضا الذى رواها عنه ، فإنها تدل على عنايته بنفسه ، وإيمانه بأنه خليفة  
فى الإصلاح الإسلامى . وقد استولى على الكثير من آرائه ، واقتنع بأن  
له الحق فى طبعها وشرحها والزيادة عليها دون أحد غيره من تلامذة  
الاستاذ الامام

وعلى الرغم من ذلك ، فواجب الانصاف يدعونا الى أن نقول ان  
السيد محمد رشيد رضا قد حفظ لنا جانبا غير قليل من حياة الامام ،  
لولا لضع الكثير منها ، ولنسى الكثير من آثاره . وليس عليه - وقد  
كان كاتبا عصاميا ، وناشرا عصاميا - أن يقدم لنا حياة الامام تقديما  
كاملا نخدوما من جميع جوانبه ، وخصوصا أن حياته حياة ضخمة متعددة  
الجوانب ، واسعة الأفق . وحسبه ما قدم لجيله من مجهود ، وعلى رجال  
الجيل التالى أن يقوموا بما تحتاج اليه آثار الامام من بحوث وتحقيقات

وما يجب لها من خدمة علمية كافية لتؤدي لهذا الجيل والأجيال القادمة ما كان رحمه الله يهدف إليه من فائدة لأبناء العروبة والاسلام

\*\*\*

وقد كان من أهم الجوانب في حياة محمد عبده الجانب الوطنى ، ولكن السيد رشيد رضا أجمل فيه القول اجمالا بل حاول أن يدافع عن اشتراكه في الثورة العرابية باعتباره « مواليا » لأسرة محمد على « ومدافعا » عن الخديو توفيق ومنتقدا لأحمد عرابى وصحبه ، وغير موافق على ثورته ولم يكن كذلك .. فقد كتب أحد الصحفيين عن الثورة العرابية بمناسبة العفو عن زعمائها المنفيين في جزيرة سيلان ، وأسند للأستاذ الشيخ محمد عبده أنه أحد أركان هذه الثورة .. فاببرى له السيد رشيد رضا ، وكتب مقالا في صفحة ٥١٢ من مجلد المنار الرابع ( مجلد ١٣١٩ هـ الموافق سنة ١٩٠١ م ) . وكان خديو مصر في ذلك الحين عباس حلمى الثانى . فدافع عن اشتراك محمد عبده في الثورة العرابية ، وقال فيما قال :

« عرض هذا الصحافى المتحذلق بذكر الفتنة العرابية ، وباليته كان يعرف حقيقة الفتنة العرابية ، ويعرف المتهورين فيها والناصحين لهم بالاعتدال ، فهو لا يعرف ولا يحب أن يعرف .. فاذا أحب أن يعرف ، فليسأل العارفين ، وليراجع كتابة الكتاتين ، وعند ذلك تظهر له مزية من عرض به ان كان من المنصفين ، فيظهر له ان هذا الرجل الكبير العقل السديد رأى كان ينتقد أعمال عرابى وتهوره في جريدة الوقائع الرسمية فى القسم الأدبى ، على حين ترتعد فرائص قصر الخديو من عرابى ، وعلى حين يرى هذا المنتقد الشجاع أن رئيس النظار ( رياض باشا ) ينزل من ديوانه بأمر عرابى مكرها ، ويسمع من أتباعه ما يكره ، ثم تظهر له تلك الخطبة التى خطبها هذا الرجل العظيم فى زعماء الثورة العرابية عندما ألزموه حضور مجتمعمهم ، وأن يقوم فيهم خطيبا .. » ثم ذكر السيد رشيد أن موضوع الخطبة كان معارضا كل المعارضة للثورة



وزعمائها في أعظم مجتمع لهم « ولو كانوا يعقلون لرجعوا الى رشدهم ،  
ولكن الأمة لم تكن استعدت لفهم ارشاد هذا الحكيم » !

والثورة التي يتكلم عنها السيد رشيد ، لم تكن وقتئذ قد بدأت بدءا  
جديا أو اشتركت فيها الأمة اشتراكا فعليا ، وكان عرابي ما زال برتبة  
أميرالاي حتى انه بعد سقوط وزارة رياض باشا وتولى محمد شريف باشا  
الوزارة ، نقل هو وفرقتة الى رأس الوادي بالشرقية ، وكانت الثورة  
ما زالت في دور التكوين . وقد كان الشيخ محمد عبده وقتئذ من أعلام  
الكتاب وقادة الرأي في مصر ، اذ كان رئيسا لجريدة الوقائع الرسمية .  
وكان يكتب قبل الثورة العرابية ، ومنذ تعين محررا في هذه الجريدة سنة  
١٨٧٩ م ، مقالات وطنية وأدبية واجتماعية ودينية . وكلها تهدف الى  
الاصلاح القومي ونشر الحرية ومعارضة الظلم والاستبداد ، وكان  
يهدف في كل مقالة الى رفع مستوى الأمة .. وقد كان ينتقد فيها الحكومة  
انتقادا كان من أهم أسباب سقوط وزارة نوبار باشا ، وكان رجال  
الجيش وسائر المتعلمين في الأمة يرونه الرائد الأول ليقظة البلاد بعد  
خروج أستاذه جمال الدين الافغانى من مصر بأيدي الخديو توفيق  
وأعوانه . ومن هذه المقالات « حب الفقر وسفه الفلاح » . وقد نشرت  
في ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٨٠ وفيها يدافع عن الفلاح ، وينتقد الضرائب  
المفروضة على أرضه مما جعله يلجأ الى المرايين وأرباب البنوك ، ومن  
هذه المقالات التي نشرت في سنتي ١٨٨٠ و ١٨٨١ م قبل الثورة العرابية :  
« وخامة الرشوة » و « القوة والقانون » و « منتدياتنا العمومية  
وأحاديثها » و « خطأ العقلاء » و « ما هو الفقر الحقيقي في البلاد »  
و « وضع الشيء في غير محله » و « الشورى وولى الأمر » و « الشورى  
والقانون » . وفي هذا المقال الأخير يقول :

« ان استعداد الناس لأن ي نهجوا المنهج الشورى غير متوقف على أن  
يكونوا متدربين في البحث والنظر على أصول الجدل المقرر لدى أهله ،  
بل يكفي كونهم نصبوا أنفسهم ، وطمحت أبصارهم للحق وضبط

المصالح على نظام موافق لمصالح البلاد ، وأحوال العباد ..  
 « ومما تقدم سرده ، تعلم أن أهالي بلادنا المصرية دبت فيهم روح  
 الاتحاد ، وأشرفت نفوسهم منه على مدارك الرأي العام ، وأخذوا  
 يتصلون من جرم الإهمال ، وبستيقظون من نومة الإغفال ، وقد مرت  
 عليهم حوادث كقطع الليل المظلم .. »

ومن هذه المقالة وحدها ، ما ينفي ما ادعاه السيد رشيد رضا من أن  
 محمد عبده كان معارضا للعرايين في ثورتهم ، لأنه كان يرى أن الأمة غير  
 مستعدة لتدبير شئونها بنفسها ، كما يدل على أن نقده للعرايين في أوائل  
 الحركة ، كان لاستقلالهم عن الأمة ، ولكن لما انضم عرابي للأمة ،  
 وحصل منها على توكيلات أعيان البلاد والقرى ومثليها ، وظهرت  
 الحركة العرابية بمظهر قومي ، كان من أوائل رجالها يؤيدها بالرأي  
 والعلم ، والقول والعمل

### \*\*\*

وقد كانت مقالاته قبل الثورة العرابية — ومنذ تولي الوقائع الرسمية —  
 من بواعث هذه الثورة ، فقد كان هو وعدد من زعمائها من تلامذة السيد  
 جمال الدين الافغانى ، وقد أسسوا معه أثناء وجوده بمصر حزبا سياسيا  
 باسم « الحزب الوطنى الحر » . وكان هذا الحزب يطالب بتنازل الخديو  
 اسماعيل عن الحكم ، ويطلب بالإصلاح . وقد سعى لدى محمد شريف  
 باشا لكى يقنع اسماعيل بالتنازل ، وقد قال الشيخ محمد عبده عن السيد  
 جمال الدين انه باعث النهضة الوطنية في مصر ، وأن هجرته الى مصر ،  
 واقامته فيها من سنة ١٨٧١ الى سنة ١٨٧٩ م كانتا بعثا وطنيا سياسيا  
 لها ، وحدا فاصلا بين ماض مظلم ، وحاضر مضى ، ومستقبل مبشر  
 بالكرامة والحرية

وقد كتب فيما كتب قبل احتدام الثورة العرابية مقالا عن « الحياة  
 السياسية والوطن والوطنية » بتاريخ ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٨١ بعد موافقة  
 انخديو على طلب العرايين وصدور قانون مجلس النواب ، جاء فيه :

« الوطن في اللغة محل الانسان مطلقا ، فهو والسكن بمعنى : استوطن القوم هذه الأرض ونوطنوها أى اتخذوها سكنا ، وهو عند أهل السياسة مكانك الذى تنسب اليه ويحفظ حقك فيه ، ويعلم حقه عليك ، وتأمين فيه على نفسك وآلك ومالك . ومن أقوالهم فيه : لا وطن الا مع الحرية ، وقال لابروير الحكيم الفرنسى : لا وطن فى حالة الاستبداد ، ولكن هناك مصالح خصوصية ، ومفاخر ذاتية ، ومناصب رسمية . وكان حد الوطن عند قدماء الرومانيين المكان الذى فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية

« وهذا الحد الرومانى الأخير لا ينقض قولهم : لا وطن الا مع الحرية ، بل هما بيان .. فان الحرية هى حق القيام بالواجب المعلوم ، فان لم توجد فلا وطن لعدم الحقوق والواجبات السياسية ، وان وجدت فلا بد معها من الواجب والحق .. وهما شعار الأوطان التى تفتدى بالأموال والأبدان وتقدم على الأهل والخلان ، ويبلغ حبها فى النفوس الزكية مقام الوجد والهيمن

« أما السكن الذى لا حق فيه للسكان ، ولا هو آمن فيه على الماله والروح ، فغاية القول فى تعريفه انه مأوى العاجز ، ومستقر من لا يجد الى غيره سبيلا .. فان عظم فلا يمر ، وان صغر فلا يساء . قال لابروير : « ما الفائدة من أن يكون وطنى عظيما كبيرا ، ان كنت فيه حزينا حقيرا أعيش فى الذل والشقاء خائفا أسيرا ! »

« على أن النسبة للوطن تصل بينه وبين الساكن صلة منوطة بأهداب الشرف الذاتى ، فهو يغار عليه ويذود عنه كما يذود عن والده الذى ينتمى اليه وان كان سيىء الخلق شديدا عليه .. ولذلك قيل فى مثل هذا المقام ان ياء النسبة فى قولنا مصرى وانجليزى وفرنسى ، هى من موجبات غيرة المصرى على مصر ، والفرسى على فرنسا ، والانجليزى على انجلترا ، فأنكر ذلك بعض الناس ، وكان فى الأمر لاشك سوء فهم أو سوء افهام

« وجملة القول ان في الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه أن تكون حدودا ، الأول انه السكن الذي فيه الغذاء والوقاء والأهل والولد ، والثاني انه مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية وهما حسيان ظاهريان ، والثالث انه موضع النسبة التي يعلو بها الانسان ، ويعز أو يسفل

» فاذا تقرر ذلك مما قلناه ، وجب على المصري حب الوطن من كل هذه الوجوه ، فهو سكنه الذي يأكل فيه هنيئا ، ويشرب مريئا ، ويبيت فيه أمينا ، وهو مقامه الذي ينسب اليه ولا يجد في النسبة عارا ، ولا يخاف تعييرا .. وهو الآن موضع حقوقه وواجباته »



ذلك بعض ما كان يكتبه قبل الثورة ، وفي خلال سنة ١٨٨١ م وهي السنة التي حدثت فيها واقعة قصر النيل كمقدمة لأحداثها الكبرى التي وقعت في السنة التي تؤرخ بها وهي سنة ١٨٨٢ م . وقد فتحت هذه الكتابات والمقالات عقول الأمة ووجهتها نحو طلب الحرية والاصلاح ، بعد أن عاشت زمنا فريسة للطغيان والاستبداد ، وضحية للجهل والفساد فاذا كان للشيخ محمد عبده ضلع في الثورة العرابية ، واشترك فيها ، فهو أولا ذلك البعث الذي نشأ من مقالاته وآرائه التي أثرت في الأمة ما بين عسكريين وغير عسكريين وما بين أغنياء وفقراء ، وهياتها لهذه الثورة

وثانيا ما قام به من مساعدة العرابيين بعد أن انضموا الى الأمة ، وانضمت اليهم الأمة ، وتحقق اتحاد الجميع على طلب الحرية ، ومجلس النواب ، والخلاص من الظلم والاستبداد

ولذلك حين فشلت الثورة ، وقبض على زعمائها ، كان في مقدمة هؤلاء الزعماء المقبوض عليهم ، والذين أودعوا السجن رهن المحاكمة الاستاذ الشيخ محمد عبده ، الذي قال وهو في سجنه هذا البيت ضمن خطاب لأحد أصدقائه :

تقلدتنى الليالى وهى مدبرة كأتى صارم فى كف منهزم  
وقد حوكم الامام ، وحكم عليه بالنفى ثلاث سنوات خارج القطر  
المصرى ، فاختار النفى فى لبنان ، وجرد من وظيفته ، فى حين حكم  
بالبراءة للبعض ، وبالنفى فى قريته مددا قصيرة على آخرين . ولو كان  
محاكموه قد ثبت لهم انه كان معارضا للعرايين أو كان محايدا أو غير  
مساعد لهم فى ثورتهم ضد الخديو والانجليز ، وضد النفوذ الأجنبى لما  
حكموا عليه ، أو كان حكمهم بالنفى داخل البلاد لا بالتجريد والتشريد  
فى خارج الوطن

\*\*\*

واذا كان قد نصح العرايين - وهم منفردون بالحركة - بالتريث فى  
معارضتهم وقتئذ لمصطفى رياض باشا رئيس الوزارة ، فذلك لأن رياض  
باشا كان فى أوائل عهده من أحسن رؤساء الوزارات الذين تولوا الحكم  
فى ذلك الحين بعد الوزير الاجنبى الظالم نوبار باشا . فقد رفع كثيرا من  
الظلم عن المصريين ، وخاصة الفلاحين ، وأقام ميزان العدالة فى كثير من  
الجهات ، وأصلح الكثير مما أفسدته يد الطغيان . وكان محمد عبده يراه  
لذلك مثالا للرئيس الوطنى العادل الذى يجب تأييده ، وعدم التسرع فى  
معارضته .. ولكنه حين وجده فى أواخر وزارته قد ضعف أمام النفوذ  
الاجنبى ، وأمام استبداد الخديو توفيق ، أنكر هذه الحال ، وكان من  
أول الخارجين عليه برغم ما كان له فى نفسه من تقدير ، وما كان يحفظ  
له من أبوة ومحبة ، وقد فضل أبوة الوطن على أبوته ، ومحبه على كل  
محبة لولى وصديق ..!

ولا ريب ان الذين أرادوا أن يدافعوا عن الشيخ محمد عبده ، بأنه لم  
يكن موافقا للعرايين فى ثورتهم ، وانه كان ينتقدهم ، ولا يتفق وإياهم  
فى رأى ، قد أسرفوا فى ذلك كل الاسراف ، لأنه وهو من قادة رأى  
من حقه ألا يأخذ ما يجرى أمامه أخذا جزافا دون أناة وتفكير ، ودون  
تدبر وارشاد .. فما وقع من مناقشات بينه وبين العرايين فى أول الحركة



يحدث بين كبار الرجال ، وقادة الأمم ، في كل حركة وكل ثورة من انثورات ، ولا يعد ذلك خروجاً على الرأي العام ، أو على اتحاد الأمة . وانما يعتبر الخروج خروجاً حين تصبح ثورة الأمة بجميع طبقاتها وطوائفها ، لا ثورة طائفة واحدة يطلب رجالها حقوقاً خاصة لهم في المرتبات والرتب العسكرية كغيرهم من الضباط الشراكسة . وهذا ما حدث ، فقد كان الشيخ محمد عبده ينتقد العرايين في هذا الدور من الحركة العرابية ، حتى اذا انتقلت الى الدور الوطنى الذى اشتركت فيه الأمة جميعاً ، وطالبت بحقوقها كاملة .. كان من أوائل الزعماء الذين دافعوا عنها وطالبوا بهذه الحقوق .

\*\*\*

ولذلك عانيت بأن أجعل من هذه المذكرات صورة صادقة للحياة الوطنية والسياسية لهذا الامام الكبير ، فلم أقتصر على نبذ عن الثورة العرابية كتبها في دفتر صغير - وهو في السجن - بل جمعت كتاباته الوطنية وآراءه في محمد على ، واسماعيل ، وتوفيق ، وما كتبه بالتفصيل ثم بالاختصار عن الثورة العرابية وأسبابها وأحداثها والرجال الذين اشتركوا فيها ، وما دونه من تحليل لأهداف هؤلاء الرجال . وقد قمت بتحقيق ذلك وشرحه والتعليق عليه تعليقا علميا وتاريخيا دقيقا ، وتقديمه تقديماً جديداً ، بحيث اجتمع من ذلك ما يصح أن يطلق عليه اسم «محمد عبده في حياته الوطنية» أو «مذكرات الامام محمد عبده» وقد اخترت هذا الاسم لأنها بقلبه ..!

ولا بد من الإشارة هنا الى ان الشيخ محمد عبده كان قد طلب منه الخديو عباس حلمى الثانى فى السنين الأولى من ولايته عرش الخديوية أن يضع كتاباً عن الثورة العرابية . وقد وضع منه جانباً كبيراً ، بدأ بأسباب الثورة منذ عهد الخديو اسماعيل ، وانتهى الى وزارة محمد شريف باشا الثانية . وفى أثناء وضعه لهذا الكتاب ، دس عليه عند

الخديو من أفهمه أن الشيخ محمد عبده عدو لأسرة محمد علي ، وانه لا يريد أحدا منها على عرش البلاد ، فتأثر الخديو من هذه الدسياسة .. فانصرف الشيخ عن اتمام الكتاب ، وساعت علاقة الخديو به ، وما زالت تسوء حتى بلغت الغاية . ولكن الشيخ محمد عبده كان من الشجاعة الوطنية على حظ كبير ، فلم يتأثر باعراض الخديو عنه ، ولم يخش استبداده ومضايقاته ، بل كان يقف من العدالة وحق الوطن ما اشتهر عنه في عدة مواقف حتى أصبح العدو الأكبر للخديو عباس ، وكان محمد عبده يستعين عليه بما كان له من شخصية عظيمة مهيبة في الأمة ، واحترام عند أصحاب السلطة الفعلية في البلاد .. بل كان يجهر برأيه في كل أمر يراه من مصلحة بلاده ، وما يجب أن ينير به قومه ليعرفوا أنفسهم ، ويتوخوا مصالحهم ، ويقفوا على حقيقة تاريخهم وأحوالهم

ولقد حدث أن دعا بعض المنافقين للخديو عباس ، والموالين للعائلة الخديوية في سنة ١٩٠٢ م ، الى الاستعداد لاقامة ذكرى جده محمد علي بمناسبة مرور مائة عام على حكمه في مايو سنة ١٩٠٥ م . فوجد الاستاذ الامام في الاحتفال بهذه الذكرى تقديسا للاستبداد ، وتسجيلا على الأمة المصرية شرفا مزعوما ، وحكما مغصوبا كله أنانية وظلم واستبداد ، فكتب مقالا في مجلة المنار في سنة ١٩٠٢ م . بعنوان « آثار محمد علي في مصر » جعلته في مقدمة هذه المذكرات .

واذا كنت قد عنيت بآثار الامام محمد عبده في هذا الوقت ، فذلك — الى ما بينت في رأس هذا « التقديم » — استجابة لعناية الجمهورية العربية المتحدة بذكرى أعلام العرب والإسلام ، والقيام على احياء تراثهم وانه لمن حق هذا الجيل أن يقف على حياة هذا الامام العظيم الذي أحدث في بلادنا العربية والاسلامية عدة مدارس في الاصلاح الديني ، والاصلاح السياسي ، والاصلاح الاجتماعي ، وايقاظ الأمة الاسلامية من غفلتها ، ودفعها في طريق الوعي القومي والرقى الانساني خطوات الى الامام .

## سيرة الإمام

من ولادته إلى جمال الدين

الحمد لله ولي الضعفاء اذا رجعوا اليه ، ونصيرهم اذا اعتمدوا في أعمالهم عليه ، وأخلصوا له العمل ، ومحضوه من شوائب الحيل ، ولم يأسوا من رحمته ، ولم يبطروا بنعمته ، والصلاة والسلام على محمد خاتم رسله ، الهادي الى الحق وسبله ، الداعي اليه بقوله وفعله ، المؤثر له على نفسه وأهله ، المعرض عن نعيم الدنيا لأجله ، وعلى آله وصحبه الذين بايعوه ، وعلى الصراط المستقيم والنهج الواضح تابعوه

### لماذا اكتب سيرتي ؟ ..

وبعد .. فما أنا ممن تكتب سيرته ، ولا ممن تترك للأجيال طريقته ، فاني لم آت لأمتي عملا يذكر ، ولم يكن لي فيها اليوم أثر يؤثر ، حتى أكون لأحد منها قدوة ، أو يكون لأحد في أسوة .. وهذا الذي أجد من استصغار أمرى ، وخفاء أثرى ، وظهور عجزى عن بلوغ ما يرمى اليه فكرى ويطمح اليه نظرى كان يمننى من أن أكتب شيئا يتعلق بحياتى ، تعرض فيه بداياتى ، وشيء من أعمالى بعدها وصفاتى ، حتى أكون به باقيا عند من يطالعه بعد مماتى . وكنت أقول : وقت أصرفه في حكمة أستفيدها خير من زمن أنفقه في قصة أستعيدها ، وما الذى عساه يبقى منى ، وأنا فى قومي لم أترك ما يؤثر عنى

ولكن عرض لى أن زرت يوما بعض أصدقائى من الغربيين ممن نظروا فى الآفاق ، وبحثوا فى العادات والاخلاق ، وجابوا لذلك الاقطار ، وركبوا الأخطار ، وتجشموا مشاق الأسفار ، وحققوا فى ذلك وتقبوا ، وكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوا ، فدار الحديث بيننا عن شئون بعض الأمم الحاضرة ، وما يجرى فيها عما أدت اليه حوادثها الماضية .. فذكرت

لهم ما عندى فى ذلك ، وما أقيم عليه رأى من مشاهدات ، فى أيامى  
الخاليات ، فأوا فيما ذكرت شيئاً يستحق أن يذكر ، ولا ينبغي أن يهمل  
ويهدر ، وزادوا على ذلك أن قالوا : انهم يتمنون أن يروه منقولاً الى  
لغتهم ، مقروءاً فى قومهم بلسانهم ، ولن يكمل ذلك حتى يكون مدرجاً  
فى سيرتى ، معروضاً فى تضاعيف وصفى لمعيشتى ، وما تنقلت فيه من  
أدوار ، وما تدرجت اليه من آراء وأفكار ، مع اسناد كل شئ الى  
سببه ، ورد كل أمر الى أصله ، وسألونى مع ذلك أن أكتب ما أعرف من  
نسبى ، وما كان عليه بيتى ومنزله أهلى من قومى ، فقلت : سبحان الله  
لو كانوا من المسلمين لقلت انهم أخذوا بقوله صلى الله عليه وسلم :  
« لا تحقرن من المعروف شيئاً »

أولئك قوم يعرفون الأقدار ، ويقدرون الآثار ، لا يخسون شيئاً حقه ،  
ولا ينكرون عليه ما استحقه ، يطلبون المنفعة فى كل شئ حتى فيما لا  
قيمة له فى نظرنا ، وفيما نعهده من الضائعات فيما بيننا . هذا الذى لفتهم  
الى دعوتى لتحرير سيرتى ، نزر قليل مما أقصه كل يوم على أبناء جلدتى ،  
وهم يسمعون ما بين عابث بلحيته ، ولاء بكبريائه وعنجهيته ، ومغرور  
بمقامه ورتبته ، ومعجب بسنه وشيخوخته ، وما استحشنى على اثبات شئ  
مما غشينى الا رجل واحد يشاركنى فى الملة ، ولكنه يفارقنى فى الأصل  
والمنشأ (١) وكان من كلامه فى استنهاضى لذلك « انه ان لم ينفع أهل  
عصرنا ، انتفع به من يأتى بعدنا » غير أن المرء ولوع بما بين يديه ، غير  
واثق بما غاب عنه ، فكنت أدافعه بما قدمت من الأعالي . ولكن لما  
نصره أولئك الغرباء ، وأيده فى طلبه العرفاء ، وبالفوا فى الالحاح على ،  
حتى قال لى أحدهم فى اليوم التالى (٢) : « لعل الفصل الأول قد تم »  
يريد بذلك لعلى بدأت فى العمل عقب مفارقتة ، وأتممت الفصل الأول من  
الكتاب ، مع انى لم أكن شرعت فيه . وفى يوم سفره ، قال : « أرجو

(١) ذكر المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا كتابه « تاريخ الاستاذ الامام » اله يقصده  
بتلك الإشارة

(٢) يقصد المستر ويلفرد بلنت الانجليزى المشهور

أن أقرأ الكتاب بلغتنا في مثل هذه الأيام من العام المقبل »

لما تكرر الطلب في هذه الصور المختلفة ، رأيت ان الاضراب عن  
الاجابة اغراق في الخمول ، وتقصير في احترام رأى لم يَشْبِهه رياء ، ولم  
يحمل عليه الا قوة الظن بالفائدة في المطلوب

ثم نظرت نظرة في نفسى وما كانت بدايتى ، وما لاقيت في تربيتى ،  
وما نزعت اليه أثناء الطريق في سيرى ، وما انتهيت اليه فيما تأخر من أيام  
عمرى ، قست جميع ذلك الى ما عليه الناس حولى ، فوجدت اختلافا  
قد يسهو عنه الغافل ، ولكن ربما ينتفع بملاحظته العاقل

### امران عظيمان

وجدت اثنى نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الأعظم من الطبقة  
الوسطى من سكان مصر ودخلت فيما فيه يدخلون ، ثم لم ألبث بعد  
قطعة من الزمن أن سئمت الاستمرار على ما يألفون ، واندفعت الى طلب  
شئ مما لا يعرفون ، فعثرت على ما لم يكونوا يعثرون عليه ، وناديت  
بأحسن ما وجدت ودعوت اليه ، وارتفع صوتى بالدعوة الى أمرين  
عظيمين — الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة  
سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه الى ينابيعه  
الأولى واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد  
من شططه ، وتقلل من خلطه وخبطه ، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم  
الانسانى ، وانه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم ، باعثا على البحث في  
أسرار الكون ، داعيا الى احترام الحقائق الثابتة ، مطالبا بالتعويل عليها  
في أدب النفس واصلاح العمل.. كل هذا أعده أمرا واحدا ، وقد خالفت  
في الدعوة اليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة ..  
طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن  
هو في ناحيتهم

أما الأمر الثانى فهو اصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير ، سواء



كان في المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها ، أو فيما تنشره الجرائد على الكافة ، منشأ أو مترجما من لغات أخرى ، أو في المراسلات بين الناس . وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في نوعين ، كلاهما يمجّه الذوق وتكره لغة العرب .. الأول ما كان مستعملا في مصالح الحكومة وما يشبهها ، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات رث خبيث غير مفهوم ، ولا يمكن رده الى لغة من لغات العالم لا في صورته ولا في مادته .. ولا يزال شيء من بقاياها الى اليوم عند بعض الكتاب من القبط ، ومن تعلم منهم ، غير أنه والحمد لله قليل . والنوع الثاني ما كان يستعمله الأدباء والمتخرجون من الجامع الأزهر ، وهو ما كان يراعى فيه السجع وان كان باردا ، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس وان كان رديئا في الذوق بعيدا عن الفهم ثقيلًا على السمع ، غير مؤد للمعنى المقصود ، ولا ينطبق على آداب اللغة العربية .. وهو وان كان يمكن رده الى أصول اللغة العربية في صورته ، لكنه لا يعد من أساليبها المرضية عند أهلها . ولا يزال هذا النوع موجودا في عبارات المشايخ خاصة . ثم ورد علينا في أخريات الأيام ضرب آخر من التعبير كان غريبا في بابه ، وهو ما جاءنا من الأقطار السورية في جريدتى الجنة والجنان المنشأتين بقلم المعلم بطرس البستاني .. وهذا الضرب كان يعد من غرائب الأساليب ، وبه أنشئت جريدة الأهرام في مصر وقد محى أثره والحمد لله

### العدالة والطاعة

وهناك أمر آخر كنت من دعائه ، والناس جميعا في عمى عنه ، وبعد عن تفكره .. ولكنه هو الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية . وما أصابهم الوهن والضعف والذل الا بسبب خلو مجتمعهم منه ، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .. نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية الى

معرفة حقها على حاكمها ، وهى هذه الأمة التى لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرنا .. دعوناها الى الاعتقاد بأن الحاكم وان وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم وأنه لا يرده عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته الا نصيح الأمة له بالقول ، وبالفعل جهرنا بهذا القول (١) والاستبداد فى عنفوانه والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد ، والناس كلهم عبيد له أى عبيد ..

نعم اننى فى كل ذلك ، لم أكن الامام المتبع ولا الرئيس المطاع ، غير أنى كنت روح الدعوة .. وهى لا تزال بى فى كثير مما ذكرت قائمة ، ولا أبرح أدعو الى عقيدتى فى الدين وأطالب باتمام الاصلاح فى اللغة وقد قارب . أما أمرا الحكومة والمحكوم ، فتركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تديره . لاننى قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه ، وتقوم على تنميته السنين الطوال .. فهذا الغراس هو الذى ينبغى أن يعنى به الآن والله المستعان

أصبت نجاحا فى كثير مما عنيت به ، وأخفقت فى كثير مما وجهت عزيمتى اليه ، ولعل ذلك أسباب بعضها مما غرز فى طبعى ، وشئ منها احتف حولى ، وطائفة منها من أصالتى فى رأى أو خطلى ، ومن الذى يستطيع أن يفصل ذلك غيرى ، حتى يكون ان شاء الله عبرة لمن يأتى من بعدى

لهذا رأيت أن أكتب ما لاقيت ، وأثبت ما صادفت من لدن ما عقلت ، منبها على ما فى من معائب ، وعلى احسان الله الى فى بعض المزايا ، وعلى علل الحوادث التى مررت بها أو مرت بى فى أطوار حياتى . غير أننى أبدأ بكلام قليل مما يتعلق بما فى بيتى ، وهو ما لا أعرفه الا بالسمع من أهله كما لا يخفى

(١) يشير بذلك الى موقفه من حكومة الخديو توفيق فى الثورة العربية

## أهلى وبيتى

والدى ووالدى

أول ماعقلت من أنا ، ومن والدى ، ومن والدتى ، ومن هم أقاربى وجيران بيتى ، عرفت أنى ابن عبده خير الله من سكان قرية محلة نصر بمركز شبراخيت من مديرية البحيرة ، ووقر فى نفسى احترام والدى ، ونظرت اليه أجل الناس فى عينى ، وسكن من هيئته فى قلبى ما لم أجده لأحد من الناس اليوم عندى . أما عوامل هذا الاحترام وذلك الاجلال ، فأتذكر منها قلة الكلام أمامى ، ووقار كان فى الحركات والأعمال والهيئة ، والتنزه عن مخالطة الناس ، ومشاهدتى أهل بلده يحترمونه ويبالغون فى توقيرهم إياه ، وانفراده بالطعام دون والدتى واخواتى ، فان ذلك كان آية العظم عندنا .. فانه ماكان يواكل نساءه وأولاده فى تلك الأوقات الا الفقراء وأهل الطبقة السفلى من أهل القرية

ثم وجدت والدى يقرى الضيف ، ويؤوى الغريب ، ويفتخر باكرام النزيل .. وذلك كان يزيد منزلته من نفسى علوا ، وأنا لا أفهم من هذا الا أنه شىء يفتخر به بدون أن أعقل له علة ، وبالجمله كنت أعتقد أن والدى أعظم رجل فى القرية ، وكل من فيها دونه .. وهو بذلك كان أعظم رجل فى الدنيا ، فان الدنيا لم تكن عندى أوسع من قرية محلة نصر . وكان يؤكد اعتقاده هذا ، رؤيتى لبعض الحكام كناظر القسم ( مأمور المركز ) وحاكم الخط ( معاون المركز ) ينزلون عندنا ولا ينزلون فى بيت العمدة ، مع أنه كان أوسع رزقا من والدى وأكثر دورا وعقارا ، ونشأ عندى لذلك الاعتقاد بأن الكرامة وعلو المنزلة لا يتعلقان بالثروة ووفرة المال .. هذا ، وكنت أعقل من صغرى ما كان عليه والدى من ثباته فى عزيمته وشده فى المعاملة ، وقسوته على من يعاديه ، وقد أخذت عنه جميع الصفات ما عدا القسوة ، وأحمد الله ولا أحصى ثناء عليه أما والدتى فكانت منزلتها بين نساء القرية لا تنزل عن مكانة والدى ، وكانت ترحم المساكين ، وتعطف على الضعفاء ، وتعد ذلك مجدا ،

وطاعة الله وحمدا . ولم أزل أجد أثر ما وعيت من ذلك في نفسي الى  
اليوم ..

عمى :

عرفت لى عما يسمى « بهنسى » ولا أعرف من أحواله شيئا لانه مات  
قبل أن أحفظ عنه ، وكان لوالدى ابن عم يسمى ابراهيم ، ولم يكن له  
بين الناس ما يذكر به ، وكان يساكننا فى بيت واحد ، ولا يزال ولده  
يسكن فى قسم من منزلنا الى اليوم ، ولنا أقارب كثيرون بيوتهم من خير  
البيوت فى القرية

جدى لابى :

هذا ما عرفته من حاضر بيتى فى أول أمرى ، وما طرأ عليه سيأتى  
ذكره فى سيرتى . أما ماضيه فانما أذكره حديثا عن أبى ، ورواية عن بعض  
من عرف شيئا منه ممن أثق به من ذوى قرابتى وغيرهم .. جدى لابى  
كان يسمى حسن خير الله ، توفى عن أبى وعمى بالهواء الأصفر الذى  
فتك بسكان القطر المصرى فى أواسط القرن الماضى ، ويقال انه كان له  
قبل موته من بنى عمه وذوى عصبته نحو اثنى عشر رجلا وشى بهم واش  
من بيت آخر ، جاء البلدة وسكن فيها وحسد أهل الحسب من سكانها ،  
فسعى بأهل هذا البيت ( بيت خير الله ) عند الحكام بحجة أنهم ممن  
يحمل السلاح ويقف فى وجوه الحكام وأعوانهم عند تنفيذ المظالم ،  
فأخذوا جميعا وزجوا فى السجون واحدا بعد واحد ، ومن دخل منهم  
السجن لا يخرج الا ميتا ، وكان جدى حسن شيخا بالبلدة ، وهو الذى  
بقى من البيت مع ابن أخيه ابراهيم الذى سبق ذكره

هجرة والدى

بعد وفاته طالت يد ذلك الواشى بمساعدة أعوان الحكومة الى  
سلب ما كان فى البيت من تراث حيث لم تكن قوة تدافعه . فانه لم يكن

بقى الا والدى فى سن الرابعة عشرة ، وعمى فى سن السادسة عشرة ،  
 وابراهيم فى سن الثامنة عشرة والنساء ، فأخذ جميع ما كان فى البيت  
 حتى الأبواب وبعض أخشاب السقوف ، فهاجر والدى وعمى معها من  
 البلدة ، ولجئوا الى خال والدى الحاج محمد خضر وكان عمدة فى قرية  
 صغيرة تعرف بكنيسة أورين من مركز شبراخت ، ولكنه لم يستطع  
 ايواءهم عنده خوف الاضطهاد ، لأن هذه المصائب كلها لم تكن قد  
 استلت أحقاد الظلمة من الحكام والوشاة ، فأخذهم خفية وسار بهم الى  
 مديرية الغربية عند أحد أقاربه فى قرية يقال لها « منية طوخ » بمركز  
 السنطة ، ثم انتقل الى قرية بجانبها تسمى « شترا » ، وكان معهم من  
 النقود ما يسمح لهم باستئجار أطيان يعملون فى زراعتها ، اما بأنفسهم  
 أو شركاء يعملون بأيديهم ويقتسمون الربح معهم ، واشتهر والدى  
 بالفتوة والبراعة فى الصيد بالسلاح ، وأحبه لذلك مصطفى أفندى  
 المنشاوى ومحمد أخوه .. وكانا موظفين فى دائرة المرحوم اسماعيل باشا  
 الحديو ، الأول فى وظيفة مفتش زراعة والثانى بوظيفة ناظر ، وطابت له  
 صحبتها وعدوه كأنه واحد من أهلها ودام ذلك مدة سنين

### سجن والدى

ولما اشتد الظلم على أهل قرية محلة نصر ، وضاق بهم السبل ، كما  
 كان يسومهم ذلك الواشى من الخسف والذل ، أخذوا يتسللون ليلا بعد  
 بيت ، يهجون القرية ويذهبون ليقيموا فى جوار من سبقهم من أهلى..  
 فأحس الشقى بأشراف القرية على الخراب ، وفى ذلك انتقاص منافعه  
 وخسارة كبيرة فى مصالحه ، فجدد الوشاية بوالدى ومن معه ، ورفع  
 شكوى الى مدير البحيرة ، وكان فى شبراخت ، يذكر فيها أن والدى  
 مأوى لمن فروا بأسلحتهم من القرية ، وكان قد صدر أمر المرحوم عباس  
 باشا الاول بتجريد الأهالى من السلاح وحظر حمله عليهم ، فكتب مدير  
 البحيرة بذلك الى مدير الغربية ، واتهم مع ذلك مصطفى أفندى المنشاوى



بايوائه بعض الفارين من العسكرية ، فأخذ الجميع على غرة ، وقبض عليهم في بيوتهم ، وسيقوا الى مديرية الغربية .. أما مصطفى المنشاوى فأرسل الى ليان الاسكندرية ، وأما والدى ومن معه فأرسلوا الى مديرية البحيرة ليحبسوا هناك الى أن يصدر الأمر فى شأنهم . ولم يزالوا فى السجن الى أن توفى عباس باشا فأفرج عنهم وعن غيرهم ، وبعد ذلك عاد والدى الى مسقط رأسه فى أول ولاية المرحوم سعيد باشا ، ولم يجد شيئاً مما كان يملكه أسلافه الا جدران البيت مهدمة !

تقدم انه طالت اقامته فى مديرية الغربية ، ويقال أن مدتها بلغت نحو خمس عشرة سنة ، وفى أثناءها عرف كثيرا من سكان البلاد المجاورة لشترا ، وعرف فيمن عرف بيت والدتى وهو بيت كبير فى بلدة تسمى « حصّة شبشير » يعرف بيت عثمان ، كان كبيره اذ ذاك جدى ابراهيم عثمان الكبير ، فتزوج والدتى وأخذها الى « شبشير » وفيها ولدت فى أواخر (١) سنة خمس وستين بعد المئتين والألف من الهجرة ، لم يولد له منها غيرى الا بنتان احدهما تسمى زمزم وهى بكرة توفيت قبل ولادتى ، والاخرى تسمى مريم وهى لم تمت حتى تزوجت وأنا فى آخر سنى طلب العلم

كنت أسمع المزاحين من أهل بلدتنا يلقبون بيتنا ببيت التركمان ، فسألت والدى عن ذلك فأخبرنى أن نسبنا ينتهى الى جد تركمانى جاء من بلاد التركمان فى جماعة من أهله ، وسكنوا فى الخيام بمديرية البحيرة مدة من الزمن ، ثم اتفق أن اتصل بهم شيخ يسمى عبد الملك لا يعرف سبه ، ولكنه كان معتقدا له كرامات تنسب اليه ، واتخذ له خلوة فى المحل الذى أسست فيه قرية « محلة نصر » فلما توفى ، رأى جدنا - وقد

(١) أواخر سنة ١٢٦٥ هـ يوافق اوائل سنة ١٨٤٩ م . وقد توفى الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥ م الموافق سنة ١٣٢٣ هـ فيكون عمره حين وفاته ٥٦ سنة بالتاريخ الميلادى و ٥٨ سنة بالتاريخ الهجرى . وفى رواية أنه ولد سنة ١٢٥٦ هـ ، وهى على ما ترى ضعيفة لانه كان أصغر من السيد جمال الدين الافغانى بنحو عشر سنوات . وقد ولد السيد الافغانى فى سنة ١٢٥٢ هـ - سنة ١٨٢٨ م ويؤيد تاريخ الميلاد الذى كتبه الامام هنا أنه دخل الجامع الاحمدى بطنطا لأول مرة سنة ١٢٧٩ هـ ، وهوى الرابعة عشرة تقريبا

كان من أهل بيت الشيخ وبيت آخر يسمى بيت الفرنواني - أن ينوا له قبة ثم يقيموا لهم بيوتا من البناء حول تلك القبة ويسكنوها ثم انضم اليهم بيوت كثيرة تكون في مجموعها قرية محلة نصر ، وذلك من زمن مديد لا يعرف ابتداءه ، ولا تزال قبة الشيخ وبيت أقربائه الى اليوم . أما تسميتها بمحلة نصر فذلك لأن مزارع البلدة كانت أعطيت لقطاعا لشخص يسمى نصرا .. فسميت باسمه من زمن لا نعرفه أيضا

وقد أخبرني المرحوم على باشا مبارك انه اطلع على رحلة لعبد اللطيف البغدادي الشهير ، تعرف بالرحلة الكبرى ، ورأى فيها اسم محلتى نصر ومسروق ، وانه نزل ضيفا في بيت خير الله التركمانى ، وقال ان البيوت الكبيرة في البلدة كانت ثلاثة : بيت الشيخ ، وبيت خير الله ، وبيت الفرنواني

أما بيت والدتى فيقال انه عربى قرشى ، وانه يتصل في النسب بعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولكن ذلك كله روايات متوارثة لا يمكن اقامة الدليل عليها

### نسب الآباء ونسب الاعمال

وهنا موضع الكلام على سبب ضياع الانساب فى الاسلام ، وكيف وصل الأمر بالمسلمين الى ألا يعرف الواحد منهم من آباءه أكثر من ثلاثة ، ومنهم من لا يعرف غير والده

جاء الاسلام والعرب أشد الناس محافظة على أنسابهم ، وأشدهم حرصا على معرفة ما كان لأسلافهم من مجد وحسب ، وكانوا يبالغون فى الاعتزاز بشرف الأحساب حتى كادوا لا يعدون من خلال الخير شيئا يساوى شرف النسب .. وهيهات أن يرتفع ذو أدب بأدبه الى رتبة شريف بنسبه ، وان كان خاملا فى نفسه غير شيء فى عمله . ولا يخفى ما كان فى ذلك من بغض الحق والاستهانة بالكرم الذاتى والشرف العصامى والاتكال فى نيل المقامات العالية بين الناس على ما فعل السابقون ، لا على

ما يكسبه المرء بجده واجتهاده . نعم كان في الافتخار بالآباء والأجداد ، ومعرفة ما أتوا به من جليل الاعمال ، وما كانوا عليه من كريم الخصال ، تحريض لأخلاقهم على الاقتداء بهم ، وحفظ ما ورثوهم من علو ورفعة.. لكن الكسل الملازم لطبيعة الانساب ، كان يغلب جانب الاتكال على جانب الاسوة ، فجاء الدين الاسلامي ينكر الافراط والغلو في اعتبار الانساب .. كما أنكر ذلك في كل شيء حتى في الدين نفسه ، وقال التنزيل ( ان أكرمكم عند الله أتقاكم ) وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوني بأعمالكم ولا تأتونني بأنسابكم » ليدل على ان النسب وحده ليس بالشئ يرفع ويخفض .. ولكن المعول عليه ، وما يصح أن يرجع الكرم اليه ، انما هو ما يكون عليه المرء نفسه ، فان وافق ذلك نسبا عاليا وحسبا طالدا كان أبلغ في الشرف وأعرق في الكرم والا فلن يبخس العامل عمله ، ولن يحرم أولئك الذين فاض عليهم الفضل الالهي فرفع أنفسهم عما كان وضعهم آباؤهم فجعلهم بذاتهم أصولا للكرم وأدواحا للمجد بما أودع فيهم من الفرائز الفاضلة ، ووقفهم للأعمال الصالحة ، فمنهم يتدبىء الحسب واليهم في القرون المستقبلية يرجع النسب

#### ادعوهم لأبائهم

هذا ما أراده الاسلام وما دعا اليه ، ولكنه مع ذلك أمر برعاية النسبة الى الآباء ، ونفى ما كان عند الجاهلية من عادة التبنى والالتحاق بالأدعياء ، وفرض على المؤمنين أن يدعوهم لأبائهم ليعرفوا بهم لا بما اندرجوا فيه ، وجعل لقريش من الفضل على غيرها من القبائل ما تقصر من بلوغه رواحل الآمال ، وأوصى على بن أبي طالب أن يعهد بجلائل الأعمال الى أهل البيوتات الصالحة وذوى القدم السابقة . وجاءت سنة السلف شاهدة بأن للأنساب وتوارث الاحساب مظاهر في أعمال الاشخاص وآثار في خصالهم ينبغي النظر اليها .. فلم يهمل الاسلام شأن النسب ، ولم يضع من شأن الأدب المكتسب ، بل طلب العدل في الأمرين ، وجمع لأهله بين

### النظرين الصادقين

ولكن ماذا يصنع الاسلام في المسلمين وقد مهرؤا في تحريفه ، وقلب مقاصده العالية الى أضدادها ، كأنما هم مغرون بذلك من أعدائه . رأوا من بداية الأمر أن بعض من لا نسب لهم من الموالى والملصقين ، قد بلغوا من منازل الكرامة بين المسلمين ما يغطهم عليه أهل الاحساب .. وذلك بما أحرزوا من شجاعة ونجدة ، أو علم وفضيلة ، وبلغ من أمر بعض الموالى الذين لا يعرف آبائهم فضلا عن أجدادهم في الدولة العباسية أن استبدوا على الخفاء من نسل العباس بن عبد المطلب ، واغتصبوا الملك منهم ، وسادوا على كل ذى حسب ونسب من آل بيت النبوة ، فسقطت لذلك منزلة النسب من نفوس المسلمين ، وعاندوا سنة من أعظم سنن الله في خلقه ، وهى سنة توارث الأخلاق والفرائز . وإن ما يكون فى الآباء من أصول الملكات يهيم الأبناء لكسب مثلها ، وما جاء نخالفاً لذلك فهو من مبتدعات القدرة الالهية ، وأما التربية فإن كانت حسنة مهدت السبيل وأسرت بتكوين الملكة الصالحة فى النفس المستعدة حتى يكون الشاب من أهل بيت صالح بمنزلة الشيخ ممن جاهد نفسه وأخذها بالرياضة على مكارم الأخلاق ، وليس له سلف فيها .. وإن كانت رديئة أماتت الاستعداد للخير ومحتة من طبيعته النفس وجاءت بدله بضده

وشأن التربية مع الاستعداد للرزائل ذلك الشأن بعينه ، فإن كانت صالحة أماتت ذلك الاستعداد ، ولكن بعد غناء يستغرق السنين الطوال ، وإن كانت غير صالحة أسرعت بتكوين الملكات الخبيثة فى نفس الناشئ حتى يكون الفتى من قوم فاسقين قد بلغ مبلغ الشيخ من غيرهم ، يرميه القدر من أول نشأته بسهام الحاجة ، فيأخذ يكلف نفسه ما ليس فى استعدادها ، ويحملها على معاطاة ما لا يليق من خلال من الحيلة والمكر والخديعة مثلاً وهو ليس من أهلها

### العناية بأنساب الحيوان !

هكذا أغفل المسلمون مراعاة هذه السنة في أنفسهم ، مع أنهم لم يغفلوا عنها في دوابهم من الخيل والحمر وماشيتهم من البقر والغنم والابل ونحوها ، فيطلبوا نتاج الجياد ولكنهم لا يطلبون البنين من أم البنين .. بل ولعوا بالجوارى والاماء ممن لا تعرف أصولهن ، ولم تعرض على الاختيار لخالهن ، في بيوت آبائهن ، وأكثر ما كان ذلك في بيوت الخلفاء ومن يليهم من عليّة الناس فكان الابن ينسى خثولته بعد أن كان يفتخر بها وقد ولع الملوك بالممالك ، وظنهم فيهم الاخلاص في الولاء ، وثقتهم بأمانتهم ، الى رفعهم على رءوس من سواهم .. فتوجهت اليهم النفوس بالرعاية والاحترام ، وما كان لأحد من أولئك العبيد المحترمين أن يذكر له أبا ، أو يتذكر لنفسه نسبا ، فصار الجهل بالانساب عادة .. وبئست العادة ، وأصبح البيت القديم المؤسس على متين من السنين لا يعرف من أسلافه الا واحدا أو اثنين ، ومن بقى بعد ذلك فقد آكل الزمن ذكره

ولذلك أقول أن ما أسمعه عن بيت والدى ووالدتي ، انما هو روايات في أفواه الأهل والأقارب ممن يعرفهم من الناس ، قد يكون لها طريق الى الصحة وقد تكون مما يخترعه الناس للتزيد في الفضل .. غير أن ذلك يأتى في الانتساب الى قریش وعمر بن الخطاب ، أما في الانتساب الى أصل تركمانى فلا أظن ذلك يأتى ، ولهذا يترجح عندى جانب صحة الخبر ، ويؤيده ما يرى في أهل بيتنا من بعض الخصال التى لا يشاركون فيها من يجاورهم فى مساكنهم

### نشأتى وتربيتى

تعلمت القراءة والكتابة فى منزل والدى ، ثم انتقلت الى دار حافظ قرآن .. قرأت عليه وحدى جميع القرآن أول مرة ، ثم أعدت القراءة حتى أنمت حفظه جميعه فى مدة سنتين ، أدركنى فى ثانيتهما صبيان من أهل القرية .. جاء من مكتب آخر ليقراء القرآن عند هذا الحافظ ، ظنا



منهما أن نجاحي في حفظ القرآن كان من أثر اهتمام الحافظ  
بعد ذلك حملني والدي الى طنطا ، حيث كان أخى لأمي الشيخ مجاهد  
رحمه الله ، لأجود القرآن في المسجد الأحمدى لشهرة قرائه بفنون  
التجويد . وكان ذلك في سنة ١٢٧٩ (١) الهجرية

وفي سنة مائتين واحد وثمانين الهجرية ، جلست في دروس العلم ،  
وبدأت بتلقى شرح الكفراوى على الاجرومية في المسجد الأحمدى  
بطنطا ، وقضيت سنة ونصف سنة لا أفهم شيئا لرداءة طريقة التعليم ،  
فان المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لا نفهمها ،  
ولا عناية لهم بتفهم معانيها لمن لم يعرفها ، فأدركنى اليأس من النجاح  
وهربت من الدروس ، واختفيت عند أخوالى مدة ثلاثة أشهر ، ثم عثر  
على أخى فأخذنى الى المسجد الأحمدى ، وأراد اكرامى على طلب العلم ،  
فأبيت وقلت له : قد أيقنت أن لا نجاح لى في طلب العلم ، ولم يبق على  
الا أن أعود الى بلدى وأشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثير من  
أقاربى : وانتهى الجدال بتغلبى عليه ، فأخذت ما كان لى من ثياب  
ومتاع ، ورجعت الى محلة نصر على نية ألا أعود الى طلب العلم ،  
وتزوجت في سنة ١٢٨٢ على هذه النية

فهذا أول أثر وجدت في نفسى من طريقة التعليم في طنطا ، وهى بعينها  
طريقته في الأزهر .. وهو الأثر الذى يجده خمسة وتسعون فى المائة ممن  
لايساعدهم القدر بصحبة من لايلتزمون هذه السبيل فى التعليم .. سبيل  
القضاء المعلم ما يعرفه أو ما لا يعرفه بدون أن يراعى المتعلم ودرجة  
استعداده للفهم ، غير ان الأغلب من الطلبة الذين لايفهمون تفاسيرهم  
أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئا .. فيستمرون على الطلب الى أن يبلغوا  
سن الرجال ، وهم فى أحلام الأطفال ، ثم يتلى بهم الناس وتصاب بهم

(١) هذا يؤيد أن الامام محمد مبدى ولد فى سنة ١٢٦٥ هـ - سلا فى سنة ١٢٥٦ هـ لان سنة  
تكون وقتئذ ١٤ عاما - لا ٢٣ عاما حين دخوله الجامع الاحمدى وقد ذكر حن باشا  
عاصم والقاضى الشيخ أحمد ابو خطرة اللدان ريباه يوم الاربعين انه ولد سنة ١٢٦٦ للهجرة  
وقد نال شهادة العالمية سنة ١٢٩٤ هـ فيكون عمره وقتئذ ٢٨ أو ٢٩ اما اذا كانت سنة ١٢٥٦ هـ  
فيكون عمره وقت حصوله على شهادة العالمية ٢٨ سنة وهذا غير صحيح

العامة ، فتعظم بهم الرزية لأنهم يزيدون الجاهل جهالة ، ويضللون من توجد عنده داعية الاسترشاد ، ويؤذون بدعائهم من يكون على شيء من العلم ، ويحولون بينه وبين نفع الناس بعمله

### عودة الى طلب العلم

بعد أن تزوجت بأربعين يوما ، جاءنى والدى صحوة نهار ، والزمنى بالذهاب الى طنطا لطلب العلم .. وبعد احتجاج وتمنع وابهاء ، لم أجد مندوحة عن اطاعة الأمر ، ووجدت فرسا أحضره فركبته ، وأصحبني والدى بأحد أقاربي .. وكان قوى البنية شديد البأس ، ليشيعنى الى محطة ( ايتاى البارود ) التى أركب منها قطار السكة الحديدية الى طنطا كان اليوم شديد الحر ، والريح عاصفة ملتهبة ، تحصب الوجه بشبه الرمضاء .. فلم أستطع الاستمرار فى السير ، فقلت لصاحبى : أما مداومة المسير فلا طاقة لى بها مع هذه الحرارة ، ولا بد من التعرّيج على قرية أنتظر فيها حتى يخف الحر .. فأبى على ذلك فتركته ، وأجريت الفرس هاربا من مشادته ، وقلت انى ذاهب الى ( كنيسة أورين ) - بلدة غالب سكانها من خثولة أبى - وقد فرح بى شبان القرية لأننى كنت معروفا بالفروسية واللعب بالسلاح ، وأملوا أن أقيم معهم مدة يلهو فيها كل منا بصاحبه .. أدركنى صاحبى وبقى معى الى العصر ، وأرادنى على السفر، فقلت له خذ الفرس وارجع وسأذهب صباح الغد وان شئت قلت لوالدى انتى سافرت الى طنطا .. فانصرف وأخبر ما أخبر ، وبقيت فى هذه القرية خمسة عشر يوما تحولت فيها حالتى ، وبدلت فيها رغبة غير رغبتي

### مع الشيخ درويش

ذلك ان أحد أخوال أبى ، واسمه الشيخ درويش ، سبقت له أسفار الى صحراء ليبيا .. ووصل فى أسفاره الى طرابلس الغرب ، وجلس الى السيد محمد المدنى والد الشيخ ظافر المشهور الذى كان قد سكن الاستانة وتوفى بها وتعلم عنده شيئا من العلم ، وأخذ عنه الطريقة الشاذلية ، وكان

يحفظ « الموطأ » وبعض كتب الحديث ويجيد حفظ القرآن وفهمه ، ثم رجع من أسفاره الى قريته هذه ، واشتغل بما يشتغل به الناس من فلاحه الأرض وكسب الرزق بالزراعة

جاءنى هذا الشيخ صبيحة الليلة التى بتها فى الكنيسة ، ويده كتاب يحتوى على رسائل كتبها السيد محمد المدنى الى بعض مريديه بالاطراف بخط مغربى دقيق ، وسألنى أن أقرأ له فيها شيئا لضعف بصره .. فرفضت طلبه بشدة ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ، وتفرت منه أشد النفور .. ولما وضع الكتاب بين يدى رميته الى بعيد ، لكن الشيخ تبسم وتعالى فى ألطف مظاهر الحلم ، ولم يزل بى حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر ، فاندفع يفسر لى معانى ما قرأت بعبارة واضحة تغالب اعراضى فتغلبه وتسبق الى نفسى . وبعد قليل جاء الشبان يدعوننى الى ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة فى نهر قريب من القرية ، فرميت الكتاب وانصرفت اليهم . بعد العصر جاءنى الشيخ بكتابه ، وألح على فى قراءة شئ منه ، فقرأت ثم تركته الى اللعب ، وفعل فى اليوم التالى كما فعل فى الأول . أما اليوم الثالث فقد بقيت أقرأ له فيه ، وهو يشرح لى معانى ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أمل فيها ، فقال لى انه فى حاجة الى الذهاب الى المزرعة ليعمل فيها فطلبت منه ابقاء الكتاب معى فتركه ، ومضيت أقرأه وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنها الى أن جاء وقت الظهر ، وعصيت فى ذلك اليوم كل رغبة فى اللعب ، وكل هوى ينازعنى الى البطالة .. وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه ، فأبان معناه على عادته ، وظهر عليه الفرح بما تجدد عندى من الرغبة فى المطالعة والميل الى الفهم

#### مفتاح سعادتى

كانت هذه الرسائل تحتوى على شئ من معارف الصوفية ، وكثير من كلامهم فى آداب النفس وترويضها على مكارم الاخلاق وتطهيرها من دنس

الردائل وتزهيدها في الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا  
لم يأت على اليوم الخامس الا وقد صار أبغض شيء الى ما كنت أحبه  
من لعب ولهو ، وفخفخة وزهو ، وعاد أحب شيء الى ما كنت أبغضه  
من مطالعة وفهم ، وكرهت صور أولئك الشبان الذين كانوا يدعونني  
الى ما كنت أحب ويزهدونني في عشرة الشيخ - رحمه الله - فكنت  
لا أحتمل أن أرى واحدا منهم ، بل أفر من لقاءهم جميعا كما يفر السليم  
من الاجرب

وفي اليوم السابع سألت الشيخ : ما هي طريقتكم ؟.. فقال : طريقتنا  
الاسلام ، فقلت : أو ليس كل هؤلاء الناس بمسلمين ؟..

قال : لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر ،  
ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب . هذه الكلمات كانت  
كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندي من المتاع القديم .. متاع تلك  
الدعاوى الباطلة والمزاعم الفاسدة ، متاع الغرور بأننا مسلمون ناجون ،  
وان كنا في غمرة ساهية

سألته : ما وردكم الذي يتلى في الخلوات أو عقب الصلوات ، فقال :  
لا ورد لنا سوى القرآن ، تقرأ بعد كل صلاة أربعة من أرباع مع الفهم  
والتدبر . قلت : اني لى أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئا ؟.. قال أقرأ  
معك ، ويكفيك أن تفهم الجملة وبيركتها يفيض الله عليك التفصيل ،  
واذا خلوت فاذكر الله - على طريقة بينها لى . وأخذت أعل بما قال  
من اليوم الثامن ، فلم تمض على بضعة أيام الا وقد رأيتني أطيح بنفسى  
في عالم آخر غير الذى كنت أعهد ، واتسع لى ما كان ضيقا ، وصغر  
عندى من الدنيا ما كان كبيرا ، وعظم عندى من أمر العرفان والنزوع  
بالنفس الى جانب القدس ما كان صغيرا .. وتفرقت عنى جميع الهموم ،  
ولم يبق لى الا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس ،  
ولم أجد اباما يرشدنى الى ما وجهت اليه نفسى الا ذلك الشيخ الذى  
أخرجنى في بضعة أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ، ومن قيود

التقليد ، الى اطلاق التوحيد .. هذا هو الأثر الذى وجدته فى نفسى من صحبة أحد أقاربى ، وهو الشيخ درويش خضر من أهل (كنيسة أورين) من مديرية البحيرة . وهو مفتاح سعادتى ان كانت لى سعادة فى هذه الحياة الدنيا ، وهو الذى رد لى ما كان غاب من غريزتى ، وكشف لى ما كان خفى عنى مما أودع فى فطرتى

وفى اليوم الخامس عشر ، مر بى أحد سكان بلدتنا ( محلة نصر ) فأخبرنى ان والدتى ذهبت الى طنطا لترانى ، فعلمت أنها ستقول لوالدى اننى لا أزال فى بلدة الكنيسة ، فأصبحت مبكرا الى طنطا خوف عتاب الوالد واشتداده فى اللوم ، لأننى لو كنت أقمت له ألف دليل على اننى وجدت فى مهربى مطلبه ومطلبى لما اقتنع ..

#### فى ساحة الدرس

ذهبت الى طنطا ، وكان ذلك قرب آخر السنة الدراسية فى شهر جمادى الآخرة من سنة ١٢٨٢ الهجرية ، فاتفق ان بعض المشايخ كانت ماتت بنته ، فعاقه الحزن عليها عن اتمام شرح الزرقانى على العزية ، وآخر عرض له عارض منعه عن اتمام شرح الشيخ خالد على الاجرومية ، فأدركت كلا منهما فى أوائل الكتاب الذى كان يدرس ، وجلست فى الدرسين فوجدت نفسى أفهم ما أقرأ وما أسمع والحمد لله . وعرف ذلك منى بعض الطلبة فكانوا يلتفون حولى لأطالع معهم قبل الدرس ماستلقاه

وفى يوم من شهر رجب من تلك السنة ، كنت أطالع بين الطلبة وأقرر لهم معانى شرح الزرقانى ، فرأيت أمامى شخصا يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب .. فلما رفعت رأسى اليه قال مامعناه : ما أحلى حلوى مصر البيضاء .. فقلت له : وأين الحلوى التى معك ؟ .. فقال : سبحان الله من جد وجد .. ثم انصرف فعددت ذلك القول منه إلهاما ساقه الله الى ليحملنى على طلب العلم فى مصر دون طنطا

وفي منتصف شوال من تلك السنة ذهبت الى الأزهر ، وداومت على طلب العلم على شيوخه مع محافظتى على العزلة والبعد عن الناس حتى كنت أستغفر الله اذا كلمت شخصا كلمة لغير ضرورة . وفي أواخر كل سنة دراسية ، كنت أذهب الى ( محلة نصر ) لأقيم بها شهرين - من منتصف شعبان الى منتصف شوال - وكنت عند وصولي الى البلد أجد خال والدى الشيخ درويشا قد سبقنى اليه ، فكان يستمر معي يدارسنى القرآن والعلم الى يوم سفرى . وكل سنة كان يسألنى ماذا قرأت ، فأذكر له ما درست ، فيقول : ما درست المنطق ، ما درست الحساب ، ما درست شيئا من مبادئ الهندسة .. وهكذا كنت أقول له : بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة فى الأزهر ، فيقول : طالب العلم لا يعجز عن تحصيله فى أى مكان .. فكنت اذا رجعت القاهرة ، ألتصم هذه العلوم عند من يعرفها ، فتارة كنت أخطئ فى الطلب ، وأخرى أصيب ، الى أن جاء المرحوم السيد جمال الدين الافغانى الى مصر أواخر سنة ١٢٨٦ هـ

#### لقاء بالسيد جمال الدين

وقد صاحبته من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧ هـ ، وأخذت أتلقى عنده بعض العلوم الرياضية والحكمية ( الفلسفية ) والكلامية ، وأدعو الناس الى التلقى عنه كذلك . وأخذ مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته يتقولون عليه وعلينا الأقاويل ، ويزعمون ان تلقى تلك العلوم قد يفضى الى زعزعة العقائد الصحيحة . وقد يهوى بالنفس فى ضلالات تحرمها خيرى الدنيا والآخرة ، فكنت اذا رجعت الى بلدى عرضت ذلك على الشيخ درويش ، فكان يقول لى : « ان الله هو العليم الحكيم ، ولا علم يفوق علمه وحكمته ، وان أعدى أعداء العليم هو الجاهل وأعدى أعداء الحكيم هو السفیه ، وما تقرب أحد الى الله بأفضل من العلم والحكمة ، فلا شيء من العلم بمقنوت عند الله ولا شيء من الجهل بمجحود لديه الا

ما يسميه بعض الناس علما ، وليس في الحقيقة بعلم ، كالسحر والشعوذة ونحوهما اذا قصد من تحصيلهما الاضرار بالناس « (١)



(١) كان قد مضى على الشيخ محمد عبده ثلاث سنوات في طلب العلم بالجامع الأزهر ، حين ولد على مصر السيد جمال الدين الأفغاني، وكان قد أصاب منه التحاقه بالجامع الاحمدى حتى حضور السيد حفلا غير قليل من قراءة العلوم العقلية والنقلية على الشيخ دويش خضر ، وعلى الشيخ حسن الطويل ، والشيخ محمد بسيوني وغيرهم من العلماء . ثم استقل بدراسة علوم اللغة والفلسفة والمنطق والتوحيد ووجه توجيهها اجتماعيا وأديبا ووطنيا وسياسيا وإسلاميا جديدا ، فكان خير خلف لخير سلف، وظهر ذلك فيما بعد في كتاباته ودروسه وجهاده السياسي والإسلامي مما تراءى في ملكراته التالية

## مذكرات الإمام

محمد على

تولت السلطة في البلاد المصرية - قبل دخول الجيش الفرنسى - أنواع من الحكومات التى تسمى فى اصطلاح الغربيين حكومات الاشراف، وتسمى فى عرف المصريين حكومات الالتزام ، وتعرف عند الخاصة بحكومات الاقطاع . وأساس هذا النوع من الحكومات تقسيم البلاد بين جماعة من الأفراد ، يملك كل أمير منهم قسما يتصرف فى أرضه وقوى ساكنيها وأبدانهم وأموالهم كما يريد .. فهو حاكمهم السياسى ، والادارى ، والقضائى ، وسيدهم المالك لرقابهم

ومن طبيعة هذا النوع من الحكومة أن تنمو فيه الاثرة ، وتغلظ فيه أصول الاستبداد وفروعه ، وتنزع نفس كل أمير الى توسيع دائرة ملكه بالاستيلاء على ما فى يد جاره من الأمراء . فكان من مقتضى الطبيعة ، أن كل أمير لا ينفك عن التدبير والتفكير فيما تعظم فيه شوكته ، وما يدفع به عن حوزته ، وأن يكون الجميع دائما فى استعداد اما للوثوب واما للدفاع . ولكن الأمراء فى مجموعهم ، كانوا يقاومون سلطة الملوك .. فيضطر الملك لاستمالتهم ومحابة بعضهم للاستعانة به على البعض الآخر ، فضعف بذلك استبداد الملوك فيهم



### الارادة الشعبية

وكانت حاجة الأمراء الى المال ، تسوقهم الى ظلم رعاياهم .. وكانت شدة الظلم تميل برعاياهم الى خذلانهم عند هجوم العدو عليهم .. ظهر ذلك في خصوماتهم المتوالية ، فاضطر الأمراء أن يخففوا من ظلمهم ، وأن يتخذوا لهم من الأهليين أنصارا يؤازرونهم عند قيام الحرب بينهم وبين خصومهم . فلما أحس الأهليون بحاجة الأمراء اليهم ، زادوا في الدالة عليهم واضطروهم الى قبول مطالبهم ، فعظمت قوة الارادة الشعبية عند أولئك الذين كانوا عبيدا بمقتضى الحكومة ، وانهى بهم الأمر أن قيدوا الأمراء والملوك معا .. ولم يكن ذلك في يوم أو عام ، ولكنه كان في عدة قرون كما هو معروف عند أهل المعرفة والتاريخ

نعم كانت الحكومة في مصر على نوع تخالف به جميع الحكومات الشرقية، وكانت البلاد موزعة بين أمراء كل منهم يستغل قسما منها ويتصرف فيه كما يهوى ، وكان كل يطلب من القوة ما يسمح له بمد يده الى ما في يد الآخر أو يدفع به صولته ، فالحصام كان دأبهم ، والحرب كانت أهم عملهم . اذلك كان كل منهم يستكثر من الممالك ما استطاع ليعد منهم جنده ، ولكن كانت تعوزه مئوتتهم اذا كثروا ، فاضطروا الى اتخاذ أعوان من أهالى البلاد ، فوجدوا من العرب أحزابا كما وجدوا منهم خصوما . ثم رجعوا الى سكان القرى فوجدوا فيهم ما يحتاجون اليه ، فاتخذوا بيوتا منها أنصارا لهم عند الحاجة ، وعرف هؤلاء حاجة الأمراء اليهم فارتفعوا في أعينهم ، وصار لهم من الأمر مثل ما لهم أو ما يقرب من ذلك

لهذا كنت ترى في البلاد المصرية بيوتا كبيرة لها رؤساء يعظم نفوذهم ويعلو جاههم .. ذلك كان يقضى على كل أمير من أولئك الأمراء أن يصرف زمنه في التدبير ، واستجلاب النصير ، واعداد ما يستطيع في قوة لحفظ ما في يده والتمكن من اخضاع غيره . وكان أنصاره من الأهالى يجارونه في ذلك خوفا من تعدى أعوان خصمه عليهم ، فوقعت

القسمة بين الأهالي ، ولا تزال الاقسام معروفة الى اليوم . وهذا يحدث بطبعه في النفوس شمساً ، وفي العزائم قوة ، ويكسب القوى البدنية والمعنوية حياة حقيقية مهما احتقرت نوعها . فكانت العناصر جميعها في استعداد لأن يتكون منها جسم حي واحد يحفظ كونه ويعرف العالم بمكانته

### القوى الحيوية الكامنة

جاء الجيش الفرنسى والبلاد في هذه الحالة .. دخل البلاد بسهولة لم يكن ينتظرها . احتل عاصمتها واستقر له السلطان فيها . لم تكن الا أيام قلائل حتى ظهر فيه القلق ، وعظمت حوله القلاقل .. وأخذت القوى الحيوية الكامنة في البلاد تظهر ، فكثر الفتن ، ولم تنقطع الحروب والاعتداءات ولم يهدأ لرؤساء العساكر بال . يدل على ذلك شكوى نابليون نفسه في تقاريره التي كان يرسلها الى حكومة الجمهورية من اصطياذ العربان لعساكره من كل طريق ، وسلبهم أرواحهم بكل سبيل . واضطر نابليون أن يسير في حكومة البلاد بمشورة أهلها ، وانتخب من اعيانها من يشركه في الرأي لتدبيرها طوعاً لحكم الطبيعة التي وجدها

### ظهور محمد على

قتل بعض زعماء الجيش الفرنسى ، واضطربت عليه البلاد ، وجاء الجيش العثماني وعاونه الجيش الانجليزى ، وخرجت عساكر نابليون من مصر ، ولا أطيل الكلام فقد ظهر محمد على بالوسائل التي هيأها له القدر ..

ما الذي كانت تنتظره البلاد من نوع حكومتها ؟.. كانت تنتظر أن يشرق نور مدنية يضيء لرؤساء الأحزاب طرقهم في سيرهم لبلوغ آمالهم ، وقد كان ذلك يكون لو أمهلهم الزمان حتى يعرف كل منهم ما بلغ به غيره الغاية التي كان يقصدها في بلاد غير بلاده . أو كانت البلاد تنتظر

أن يأتي أمير عالم بصير فيضم تلك العناصر الحية بعضها الى بعض ، ويؤلف منها أمة تحكمها حكومة منها ، ويأخذ في تقوية مصباح العلم بينها حتى ترتقى بحكم التدريج الطبيعي ، وتبلغ ما أعدته لها تلك الحياة الأولى

### ماذا صنع محمد على ؟

ما الذي صنع محمد على ؟ لم يستطع أن يحيى ، ولكن استطاع أن يميم . كان معظم قوة الجيش معه ، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة .. فأخذ يستعين بالجيش ، وبمن يستميله من الاحزاب ، على اعدام كل رأس من خصومه ، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولا ، وأعانه على الخصم الزائل ، فيمحقه .. وهكذا ، حتى اذا سحقت الاحزاب اتقوية ، وجه عنايته الى رؤساء البيوت الرفيعة ، فلم يدع منها رأسا يستتر فيه صمير ( أنا ) واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلا لجمع السلاح من الأهلين ، وتكرر ذلك منه مرارا حتى فسد بأس الأهالي ، وزالت ملكة الشجاعة منهم ، وأجهز على ما بقى في البلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها ، فلم يبق في البلاد رأسا يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده الى السودان فهلك فيه

أخذ يرفع الأسافل ويعليهم في البلاد والقرى ، كأنه كان يحن لشبه فيه ورثة عن أصله الكريم حتى انحط الكرام وساد اللثام ، ولم يبق في البلاد الا آلات له يستعملها في جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقة ، وعلى أى وجه .. فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال نفسى ليصير البلاد المصرية جميعها اقطاعا واحدا له ولأولاده ، على أثر اقطاعات كثيرة كانت لأمرء عدة

ماذا صنع بعد ذلك .. اشترأبت نفسه لأن يكون ملكا غير تابع للسلطان العثماني .. فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوروبيين ، فأوسع لهم في المجاملة وزاد لهم في الامتياز خارجا عن حدود

المعاهدات المتعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية ، حتى صار كل صعلوك منهم — لم يكن يملك قوت يومه — ملكا من الملوك في بلادنا ، يفعل ما يشاء ، ولا يسأل عما يفعل . وصفرت نفوس الأهالي بين أيدي الأجانب بقوة الحاكم وتمتع الأجنى بحقوق الوطنى التى حرم منها ، وانقلب الوطنى غريبا فى داره ، غير مطمئن فى قراره ، فاجتمع على سلطان البلاد المصرية ذلان :

١ — ذل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة

٢ — وذل سامهم الاجنبى اياه الى ما يريد من غير واقف عند حد أو مردود الى شريعة

قالوا : انه أطلع نجم العلم فى سماء البلاد .. نعم عنى بالطب لأجل الجيش ، والكشف على المجنى عليهم فى بعض الأحيان عندما يراد ايقاع الظلم بمتهم . وعننى بالهندسة لأجل الرى حتى يدبر مياه النيل بعض التدبير ، ليستغل اقطاعه الكبير ..!

هل فكر يوما فى اصلاح اللغة : عربية أو تركية أو أرثودية ؟ .. هل فكر فى بناء التربية على قاعدة من الدين أو الأدب ؟ .. هل خطر فى باله أن يجعل للأهالى رأيا فى الحكومة فى عاصمة البلاد أو أمهات الأقاليم ؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع ويستقر العدل ؟

لم يكن شئ من ذلك ، بل كان رجال الحكومة اما من الارثود أو الجراكسة أو الأرمن الموراليه ، وما أشبه هذه الأوشاب — وهم الذين يسميهم بعض الأحداث من أنصاره اليوم دخلاء — وكانوا يحكمون بما يهون لا يرجعون الى شريعة ولا قانون ، وانما يتغنون ، مرضاة الأمير ، صاحب الاقطاع الكبير

### أين البيوت المصرية وأين الحرية ؟

أين البيوت المصرية التى أقيمت فى عهده على قواعد التربية الحسنة ؟ أين البيوت المصرية التى كانت لها القدم السابقة فى ادارة حكومة ، أو

سياستها ، أو سياسة جندھا مع كثرة ما كان في مصر من البيوت الرفيعة العماد ، الثابتة الأوتاد ؟..

أرسل جماعة من طلاب العلم الى أوربا ليتعلموا فيها .. فهل أطلق لهم الحرية أن يثوا في البلاد ما استفادوا ؟.. كلا.. ولكنه اتخذهم آلات تصنع له ما يريد ، وليس لها ارادة فيما تصنع .. وظهر بعض الأطباء المتمازين ، وهم قليل . وظهر بعض المهندسين الماهرين ، وهم ليسوا بكثير ، والسبب في ذلك ، أن محمد على ومن معه ، لم يكن فيهم طبيب ولا مهندس .. فاحتاجوا الى بعض المصريين ، ولم يكن أحد من الأعوان مسلطا على المهندس عند رسم ما يلزم له من الأعمال ولا على الطبيب عند تركيب أجزاء العلاج .. فظهر أثر استقلال الارادة في الصناعة عند أولئك النفر القليل من النابغين ، وكان ذلك مما لا تخشى عاقبته على المستبدين !

### اين مدارس الفنون الحربية ؟

هل كانت له مدرسة لتعليم الفنون الحربية ؟  
 أين هي ؟.. وأين الذين نبغوا من طلابها ؟.. فان وجد أحد نابغ ، فهل هو من المصريين ؟.. عدوا ان شئتم أحياء أو أمواتا !..  
 ترجمت كتب كثيرة في فنون شتى من التاريخ والفلسفة والأدب ، ولكن هذه الكتب أودعت في المخازن من يوم طبعت ، وأغلقت عليها الأبواب الى أواخر عهد اسماعيل باشا .. فأرادت الحكومة تفريغ المخازن منها أو تخفيف ثقلها عنها ، فنشرتها بين الناس فتناول منها من تناول . وهذا يدلنا على أنها ترجمت برغبة بعض الرؤساء من الأوربيين الذين أرادوا نشر آدابهم في البلاد ، لكنهم لم ينجحوا لأن حكومة محمد على لم توجد في البلاد قراء ولا منتفعين بتلك الكتب والفنون !..

كانوا يتخطفون تلامذة المدارس من الطرق وافناء القرى (١) كما

(١) الانشاء : الناس الجهولون

يتخطفون عساكر الجيش .. فهل هذا مما يحبب القوم في العلم ، ويرغبهم في ارسال أولادهم الى المدارس ؟ .. لا .. بل كان يخوفهم من المدرسة ، كما كان يخيفهم من الجيش ..

### أين الزراعة والصناعة

حمل الأهالى على الزراعة ، ولكن ليأخذ الغلات .. ولذلك كانوا يهربون من امتلاك الأضيان كما يهرب غيرهم من الهواء الأصفر ، والموت الأحمر .. وقوانين الحكومة لذلك العهد تشهد بذلك

يقولون انه أنشأ المعامل والمصانع ، ولكن هل حبب الى المصريين العمل والصناعة حتى يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم ؟ .. وهل أوجد أساتذة يحفظون علوم الصناعة وينشرونها في البلاد ؟ ..

أين هم ؟ .. ومن كانوا ؟ .. وأين آثارهم ؟ .. لا .. بل بغض الى المصريين العمل والصناعة بتسخيرهم في العمل والاستبداد بشمرته ، فكانوا يتربصون يوما لا يعاقبون فيه على هجر المعمل والمصنع لينصرفوا عنه ساخطين عليه ، لاعتين الساعة التى جاءت بهم اليه

### الجيش والاسطول

يقولون انه أنشأ جيشا كبيرا فتح به الممالك ، ودوخ به الملوك . وأنشأ أسطولا ضخما تثقل به ظهور البحار ، وتفتخر به مصر على سائر الأمصار .. فهل علم المصريين حب التجنيد ، وأنشأ فيهم الرغبة في الفتح والغلب ، وحب اليهم الخدمة في الجندية وعلمهم الافتخار بها ؟ ..

لا .. بل علمهم الهرب منها ، وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين انهم يساقون الى الموت .. بعد أن كانوا ينتظمون في أحزاب الأمراء ويحاربون لايبالون بالموت أيام حكم المماليك ، وكان من ينتظم في الجندية على عهد محرر مصر لا يخرج منها الا بالموت ! ..

هل شعر مصرى بعظمة اسطوله أو بقوة جيشه ، وهل خطر ببال أحد

منهم أن يقول هذا جيئى وأسطولى ، أو جيش بلدى أو أسطوله ؟ ..  
 كلا .. لم يكن شىء من ذلك ، فقد كان المصرى يعد ذلك الجيش وتلك  
 القوة عوناً لظالمه ، فهى قوة خصه .. كذلك كان يعدها كل عثمانى فى  
 مصر أو فى غير مصر ! ..

ليقل لنا أنصار الاستبداد ، كم كان فى الجيش من المصريين الذين  
 بلغوا فى رتب الجنديّة الى رتبة البكباشى على الأقل ؟ .. فما أثر ذلك فى  
 حياة مصر والمصريين الا أسوأ الأثر .. أثر كله شر فى شر ، لذلك لم  
 تلبث تلك القوة أن تهدمت واندثرت

ظهر ذلك الأثر العظيم حينما جاء الانجليز لاختاد نورة عرابى .. دخل  
 الانجليز مصر بأسهل ما يدخل به دامر (١) على قوم ، ثم استقروا ولم  
 توجد فى البلاد قوة تثبت لهم أن فى البلاد من يحامى عن استقلالها ، وهو  
 ضد ما رأيناه عند دخول الفرنسيين الى مصر .. وبهذا رأينا الفرق بين  
 الحياة الأولى والموت الأخير

### الدين والاقواف

من جدران سلطانه دعامة من الدين .. أى دين كان دعامة لسلطان محمد  
 من جدران سلطانه دعامة من الدين .. أى دين كان دعامة لسلطان محمد  
 على ؟ .. دين التحصيل (٢) دين الكرباج .. دين من لا دين له الا ما يهواه  
 ويريده . والا فليقل لنا أحد من الناس أى عمل من أعماله ظهرت فيه  
 رائحة للدين الاسلامى الجليل ؟ ..

لا يذكرون الا مسألة الوهابية ، وأهل الدين يعلمون أن الاغارة فيها  
 كانت على الدين لا للدين .. نعم ان الوهابية غلوا فى بعض المسائل  
 غلوا أنكره عليهم سائر المسلمين .. وما كان محمد على يفهم هذا ، ولا  
 سفك دماءهم لارجاعهم الى الاعتدال ، وانما كانت مسألة محضة تبعثها

(١) الدامر : هو الذى يدخل على القوم بلا استئذان

(٢) معنى تحصيل الفرائض بالقوة والظنم

جراحة محمد على ، على سلطانه العثماني ، وكان معه ما كان ما هو معروف

نعم أخذ ما كان للمساجد من الرزق ، وأبدلها بشيء من النقد يسمى «فائض رزنامة» لا يساوي جزءا من الالف من ايرادها . وأخذ من أوقاف الجامع الازهر ما لو بقي له اليوم لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة ، وقرر له بدل ذلك ما يساوي نحو أربعة آلاف جنيه في السنة

وقصارى أمره في الدين ، انه كان يستميل بعض العلماء بالخلق أو اجلاسهم على الموائد لينفى من يريد منهم اذا اقتضت الحال ذلك ، وأفاضل العلماء كانوا عليه في سخط .. ماتوا عليه

ولا أظن أن أحدا يرتاب — بعد عرض تاريخ محمد على — على بصيرته ان هذا الرجل كان تاجرا زارعا ، وجنديا باسلا ، ومستبدا ماهرا ، لكنه كان لمصر قاهرا ، ولحياتها الحقيقية معدما .. وكل ما نراه الآن فيها مما يسمى حياة ، فهو من أثر غيره

### الخدو اسماعيل

كان المصريون قبل سنة ١٢٩٣ هـ (١) يرون شئونهم العامة والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ، ومن ينوب عنه في تدبير أمورهم .. يتصرف فيها حسب ارادته . وكانت سعادتهم وشقاؤهم موكولين الى أماتته وعدله ، أو خيائته وظلمه ، ولا يرى أحد من حقه أن يرى رأيا في ادارة بلاده ، أو فكرة يتقدم بها في عمل من الاعمال يرى فيها صالحا لأمتة ولا علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مملوكون لها ، مصرفون فيما تكلفهم به الحكومة ، وتفرضه عليهم . وكانوا بعيدين غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى ، سواء كانت شرقية أم غربية

(١) سنة ١٢٩٣ الهجرية توافق سنة ١٨٧٦ الميلادية التي وقعت فيها الحرب العثمانية وكان لها مع يقظة جمال الدين أثرها كما سيأتي بعد



ومع سفر البعض منهم الى البلاد الأوربية ، وما جاورهم من البلاد الإسلامية ، أيام محمد على باشا الكبير ، وإبراهيم باشا ، لم يشعر الأهالي بشيء من ثمرات تلك الاسفار ، ولا فوائد تلك المعارف التي حصلوا عليها واكتسبوها

وفد أنشأ الخديو اسماعيل مجلس الشورى في مصر سنة ١٢٨٣ الهجرية ، ومع ان الناية من انشائه أن يكون للأهالي رأى في شئون بلادهم يرجع اليه الحاكم ، فان أحدا منهم ولا من أعضاء هذا المجلس نفسه كان له ذلك الحق ، لأن الخديو اسماعيل قيده في النظام وفي العمل .. أما في النظام ، فلأنه قد نص فيه على أن نظر المجلس منحصر فيما تراه الحكومة من اختصاصه ، وما يعن لها أن ترسله اليه للمداولة فيه ..

وأما في العمل ، فلأن الخديو كان يرسل عند المداولة من يخبر الأعضاء بإرادة جنابه السامى ، فيقررون ما يريد بعد مداولة صورية .. فكان المصريون في ذلك الحين يشعرون بأن الارادة المطلقة هي التي كانت ولا تزال تصرفهم في آرائهم ..

وهل كان في استطاعة أحد أن يعمل على خلاف ما يأمر به ؟ .. هل كان يجوز لشخص أن يميل بفكره عن الطريق التي رسمت له ، أو عن الوجهة التي يتوجه اليها الحاكم ، لو أن الفكر السليم حدثه بأن هناك وجهة خيرا من تلك الوجهة ؟

هل كان يمكنه أن ينطق بما حدثه به فكره ؟  
كلا .. انه كان بجانب كل لفظ نفى عن الوطن .. أو ازهاق للروح .. أو تجريد من المال ! ..

وبينما الناس على هذه الحال .. لا كاتب ينبهم ، ولا خاطب يوقظهم ، اذ عرض أمر قلما يلتفت اليه ، أو تحوم الأفكار حواليه ، وان كان مما يعرض في كل مكان ، وجرت به السنة الالهية في كل زمان

### نهضة جمال الدين

جرت سنة الله في خلقه ان عظام الأمور تتولد من صغارها ، كما ان ضخام الأشجار تبسق من بذورها ..

جاء الى هذه الديار في سنة ١٢٨٨ هـ (١) رجل بصير في الدين ، عارف بأحوال الأمم ، واسع الاطلاع ، جم المعارف ، جرىء القلب واللسان . وهو المعروف بالسيد جمال الدين الافغانى ، اختار الإقامة في مصر ، فتعرف اليه في بادىء الأمر طائفة من طلبة العلم ، ثم اختلف اليه كثير من الموظفين والأعيان . ثم انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من أفكار وعقائد ، فكان ذلك داعيا الى رغبة الناس في الاجتماع به لتعرف ما عنده وكانت مدرسته بيته .. فاشتغل بتدريس بعض العلوم العقلية ، وكان يحضر دروسه كثير من طلبة العلم ، ويتردد على مجالسه كثير من العلماء وغيرهم . وهو في جميع أوقات اجتماعه بالناس ، لا يسأم من الحديث فيما ينير العقل ، ويطهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس الى معانى الأمور ، أو يلفت الفكر الى النظر في الشئون العامة مما يس مصلحة البلاد وسكانها. وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف الى بلادهم أيام الاجازة ، وكان الزائرون يذهبون بما ينالونه الى أحيائهم ينشرونه في الناس .. فاستيقظت مشاعر ، وانتبعت عقول ، وخف حجاب الغفلة في أطراف متعددة من البلاد خصوصا القاهرة

كل ذلك والحاكم القوى في علو مكانه ، أرفع من أن يناله هذا الشعاع في ضعف شأنه .. ولا زال هذا الشعاع يقوى بالتدريج البطيء ، وينتشر في الانحاء على غير نظام ، الى أن نشبت الحرب بين الدولة العثمانية

---

(١) نزل جمال الدين الافغانى مصر في أول المحرم سنة ١٢٨٨ هـ الموافق ٢٢ مارس سنة ١٨٧١ م وقد ولد في كابل سنة ١٢٥٤ هـ الموافق سنة ١٨٣٨ م وهو أكبر بأربع سنين من الشيخ محمد عبده الذى ولد في سنة ١٢٥٨ هـ الموافق ١٨٤٢ م

ودولة روسيا في سنة ١٢٩٣ هـ (١)

وجد الناس من أنفسهم لذة في الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليهم من دولة روسيا ، فتطلعوا الى ما يرد من أخبار الحرب

وكثرة الاجانب في هذه البلاد سهلت ورود الجرائد الاوربية الى طلابها من الأوربيين ، ومخالطتهم للعامة والخاصة مهدت الطريق الى العلم بما فيها ، فزاد تشوق الناس الى الوقوف على حوادث تلك الحرب ، وسرى هذا الشعور الى بعض الجرائد العربية التي كانت لا تزال الى هذا العهد مقصورة على ما لا يهم ، فانطلقت في ايراد الحوادث ونشرها ، وظهر فيها الميل الى اطراء ما كانت تأتي به العساكر الروسية ، وازدراء ما كان ينسب الى الجنود العثمانية .. فوجد في الناس الناقم على تلك الجرائد والناصر لها ، وحدث بين العامة نوع من الجدل لم يكن معروفا من قبل .. ثم استحدثت جرائد كثيرة لمباراة ما سبقها في نشر الأخبار ، ومناوأتها في المشرب ، واندفعت الرغبات الى الاشتراك فيها الى حد لا يمكن منعه ، وقضى سلطان الوقت على سلطان الارادة القاهرة ..

لم يكن ما ينشر في الجرائد محصورا في حوادث الحرب ، بل اجتراً الكثير منها على نشر ما عليه سائر الأمم في سيرتهم السياسية والاجتماعية وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدأ في الحكومة المصرية من سوء الأحوال المالية ، وكثر المتحدثون بما يكثر في تلك الجرائد

وأخذ الشيخ جمال الدين في حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الأقلام على التحرير ، وانشاء الفصول الأدبية والعلمية في موضوعات مختلفة ، لا تخرج جامعتهما عن اصلاح الافكار ، وتهذيب الاخلاق .. فتسابق الى ذلك الكتاب ، وتبارت الأقلام ، وأخذت الحرية الفكرية تظهر في الجرائد الى درجة يظن الناظر فيها انه في عالم خيال ، أو

(١) هذه السنة الهجرية الموافقة لسنة ١٨٧٦ الميلادية وهي التي اشار اليها الشيخ محمد عبده فيما سبق

أرض غير هذه الأرض . ومن يطلع على اعداد جريدة مصر ، وجريدة التجارة ، وجريدة مرآة الشرق ، والأهرام ، وصداها يرى حقيقة ماذكرنا

### حررة اسماعيل

وقد انطلقت الألسنة بانتقاد الارتباك الشديد فى المالية المصرية الذى أفضى الى تأليف اللجنة المالية المختلطة ، وتعيين ناظر «وزير» (١) انجليزى للمالية وناظر «وزير» فرنسى للأشغال العمومية . والذى أفضى كذلك الى صدور أحكام المحكمة المختلطة ضد الخديو اسماعيل وحكومته . وكانت الآراء السياسية التى ييئها جمال الدين الافغانى فى تلامذته ومريديه ، وما يبينه لهم وللناس من أنواع الحكومات الدستورية والاستبدادية ، تؤثر فيهم وفى غيرهم من الطبقات ولكن الشعور بحقوق الأمة فى أمر حكم نفسها ، ومراقبة أعمال حكامها لم يسر فى هذه النابذة من المصريين الا وقد صحبه رؤية التصرف الاجنبى فى حكومتهم ، والتحكم الاوربى فى شئون البلاد .. فتعلقت آمال البصراء من المواطنين باصلاح عظيم ، غير أن سوء حال الحكومة الوطنية وفساد رجالها والخوف من السلطة الاجنبية ، كل ذلك كان عقبة فى طريق الاصلاح

وقد ضاق الخديو اسماعيل بالوزيرين الأوربيين ، وأخذ يسعى للخلاص منهما وكثرت الاشاعات عن فساد تصرفهما ، وسوء مقاصدهما بايعاز من الخديو - كما كان يقال - وفى أثناء ذلك دعا مجلس شورى النواب الى الاجتماع ، فوفد أعضاؤه الى القاهرة .. وفى أنفسهم ذلك الشعور الشديد بسوء الأحوال . فالتأم المجلس فى ٩ المحرم سنة ١٢٩٦هـ (٢ يناير سنة ١٨٧٨ م) فى موج من التشويش ، وشدة الاضطراب . واتفق ان الحكومة لم تقدم اليه من المسائل التى نظرت فيها الا مالا قيمة له عندها .. فكثرت فى المجلس انتقاد الحكومة . ولما أمرت باقفال أبواب

(١) هما السير ريفرس ولون للمالية والسيو بلنير للأشغال

المجلس ، هاج النواب ، وسلك بعضهم مسلك الشدة في الجواب عن ذلك الأمر ، وحاولوا التوقف عن الانصراف ، حتى يعلموا من أحوال الحكومة ما يخبرون به منتخبهم . وكانت هذه أول مرة ظهر فيها لبعض النواب رأى يخالف رأى الحكومة ، ولكن الخديو في ذلك الحين كان يشد عضد أعضاء المجلس في المعارضة ..!

وقد قلق ضباط العسكرية في ذلك الوقت من تأخير رواتبهم ، وأحسوا بانحراف الخديو عن رئيس حكومته نوبار باشا وزملائه النظار (الوزراء) فثاروا عليه (١) ، وهاجموه هو ووزير المالية في الطريق ، وقبض أحدهم عليه من شاريه وأهانوا بعض الوزراء ، لولا أن جاء الخديو بنفسه ، وهدأ ثورتهم وصرفهم . وانما كانت ثورتهم بتحريك منه (٢) توسلا منه الى اسقاط وزارة نوبار باشا ، فتم له ذلك . ولكن لم يتم اسقاط الوزيرين الأوربيين ، فأدخل في الوزارة الجديدة التي تألفت برئاسة محمد توفيق باشا ولي العهد . وقد ازداد تضيقهما على الخديو في

(١) خلاصة هذه الثورة من كتاب « مصر اسماعيل » للاستاذ عبد الرحمن الرافعي ، ان وزارة نوبار باشا أهملت رواتب الضباط ولم تعاملهم كموظفي السلك المدني . وترجع هذه الثغرة الى ان الوزارة النوبارية ولجنة التحقيق كانتا لا تشعران بأى عطف نحو الجيش وترهان جانيه ، وتريان في القوة العسكرية أول عقبة دون التدخل الاجنبى في شئون البلاد ، ويدخل في ذلك ان الوزارة عمدت الى انقاص عدد الجيش بحجة التوفير لاداء انفاط الديون فقررت الوزارة احالة ٢٥٠٠ ضابط الى الاستبداع ، وكان الضباط جميعا قد تأخرت رواتبهم عشرين شهرا ، فاجتمعوا في يوم الثلاثاء ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ ، وكانوا ستمائة ضابط برئاسة اليكباشى لطيف سليم ( لطيف باشا ) أحد كبار اساتذة المدرسة العربية وتشدد ، فنادروا ثكناتهم وخرجوا بجمعهم الثلاثى ، يشتمهم لقيف من طلبة الحرية ، ونحو القى جندى قاصدين وزارة المالية ، واشترك معهم بعض نواب مجلس الشورى ، فلما اقتربوا من وزارة الخارجية ، لحقوا نوبار باشا خارجا منها واكبا هربته ، المأحطوا به من كل مكان ، فاعتصم نوبار باشا وأمر سائقه بالسير فمكاد يفعل حتى هجم الضباط على نوبار باشا ، وطرحوه ارضا واعتدوا عليه بالضرب . وفي ذلك الحين أقبل وزير المالية السير ريفرس ولسون قادمين من عند الخديو ، فشاهد المظاهرة ، وتبين نوبار باشا وهو في ايدى الثوار ، فاقبل لنجدته وضرب بعضهم بعصاه ، فهجموا عليه ايضا ، وشدوه من لحيته وضربوه وادخلوه هو ونوبار باشا الى سراى الوزارة ، واحتلوا غرفها وقاعاتها وكان بها رياض باشا ليجسوه مع زميليه فى إحدى الغرف . وعلم اسماعيل باشا بذلك ، فبادر بركوب هربته يصحبه فنصل انجلترا المسترققيان ، وذهب الى الثوار ، لطيف خاطرهم ، وطلب منهم الاعتماد عليه فى اداء رواتبهم . فدخلوا سبيل الوزراء المحبوسين . وانتهت المظاهرة

(٢) يرى الاستاذ عبد الرحمن الرافعي ان الخديو اسماعيل ليس له يد في ثورة الضباط ، وانها كانت ثورة طبيعية باعتراف اللورد كرومر أحد شهود الميان فى كتابه « مصر الحديثة »

التصرف ، فتوسل الى عزلهما بوسيلة أخرى ، وهى طلب أعيان البلاد تنحيتهما عن الحكم

لذلك اجتمع الأعيان فى دار السيد البكرى (١) ، ووضعوا اللائحة الوطنية المشهور أمرها التى تعهدوا فيها بوفاء ديون أوربا ، وضمانتهم لها . وقد أحدث ما فعله اسماعيل من الالتجاء الى أعيان الأمة شعورا بقوة لم يعرفوها من قبل ، فقد أيقنوا انه الحاكم القوى السلطان ، قد صار فى حاجة اليهم ، ولا قوام لأمره الا بالاعتماد عليهم .. فزاد ذلك فيهم ولوعا بما كانوا يميلون اليه من وجوب اشتراكهم فى أعمال الحكومة تفاديا للمضار التى نشأت عن استقلال الحاكم بالرأى وانفراذه بالسلطة..

### عزل اسماعيل

« كان السيد محمد رشيد رضا قد لخص كتاب الثورة العرابية للشيخ محمد عبده الذى جمعناه الى هذه المذكرات لأنها تكمله ويكملها ، كما أشرنا الى ذلك فى المقدمة . ولما كان نشر ما كتبه الشيخ محمد عبده فى سيرة الخديو اسماعيل يطيل من صفحات هذه المذكرات ، وخاصة انها لا تخرج عما رواه المؤرخون من الاضطراب والمساوىء والفساد ، فقد آثرت أن أنقل ما لخصه السيد رشيد .. قال :

« ثم بين - أى الشيخ محمد عبده - سيرة اسماعيل بعد ذلك فى العودة الى التصرف بأموال الحكومة ، وتبذيره ، وسوء الحالة العامة ، وذهاب رياض باشا ، ونوبار باشا الى أوربا بقصد الإقامة فيها . وسعى الثانى الى اقناع فرنسا وانجلترا بالسعى الى خلع الخديو اسماعيل ، ثم ارسال فرنسا مسيو تريكو مندوبا خاصا ( فوق العادة ) ليتحد مع وكيل

(١) هو السيد على البكرى نقيب الاشراف، وقد اجتمع الاميان والاحرار الوطنيون فى داره ، وانفقوا على تأسيس جمعية وطنية ، ثم اجتمعوا بدار اسماعيل راجع باشا رئيس مجلس شورى القوائين ، ومقدوا هذه الجمعية ، ووضعوا وثيقة وطنية ، تتضمن تسمية للديون يمارضون بها مشروع ديفرس ويلسون ، ويجعل البلاد قادرة بضمانتهم على وفاء ديونها، وطالبوا فى هذه الوثيقة او اللائحة - كما كانت تسمى - تاليف وزارة وطنية ، مستقلة واقضاء الوزيرين الاوربيين منها ، وتقرير نظام دستورى للبلاد ، قوامه جعل الوزارة مسئولة أمام مجلس النواب

انجلترا في مصر ، ويتعاوننا في مطالبة الخديو بالتنازل عن الخديوية لولى  
عهده ، واستشارة الخديو لحاشيته في الأمر : وإشارة أعلمهم بالسياسة  
عليه ألا يتنازل والجيش حاضر يؤيده - كما بين إشارة من كان يقال  
انه أعلمهم بالسياسة بألا يتنازل .. » قال الأستاذ الامام :

وكان جمهور العقلاء يرون أن رأى ذلك العالم بالسياسة من حاشية  
الخديو الذى أشار اليه بعدم التنازل كان عين الصواب ، ولو أن الخديو  
ظهر لمدوبى الدول بجلد الأسد الذى كان يلبسه للمصريين ، وعلموا  
( أى مندوبى الدول ) أن دون التنازل حمل السلاح لأمكنه أن يرضيهما  
بوسيلة أخرى مع بقاءه على العرش

وكان السيد جمال الدين قد أسس حزبا في مصر (١) باسم « الحزب  
الوطنى الحر » وكان من أغراضه السعى لتنازل الخديو اسماعيل ، وكان  
محمد توفيق على صلة بهذا الحزب .. وكان الناس كافة في شوق الى  
رؤية اسماعيل بعيدا عن كرسى الخديوية ، وكان طلاب الحرية من الأهالى  
يترددون على رئيس الوزارة المصرية ( شريف باشا ) يظهرن له الميل الى  
ولى العهد توفيق باشا . وكانت بينه وبين السيد جمال الدين محادثات  
في هذا الأمر ، فسعى هو والكثيرون من الأعيان عند محمد شريف باشا  
حتى يقنع الخديو الأسبق بوجوب التنازل عن الخديوية ..

وقد وافق شريف باشا ، فأشار على الخديو بالتنازل ، وبأن رفض  
التنازل لا يفيد وخاصة ان الدولتين ( فرنسا وانجلترا ) سوف تتالان ما  
تريدان ان عاجلا أو آجلا . والفكر في الحرب رأى طائش ، فان الناس  
جميعا في انحراف عنه ، فاذا حدثت حرب خذله الجيش في أول موقعة ،  
وكانت عاقبة ذلك أشنع ، وان الصواب أن يحال الأمر الى السلطان  
( عبد الحميد ) . ثم ذهب وفد من المصريين ، ومعهم السيد جمال الدين

(١) مع الخطب السياسية التى كان يخطبها السيد جمال الدين الانقضى قبيل خلع الخديو  
اسماعيل قوله في خطبة بالاسكندرية جاء فيها: « أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الارض  
لتستيت منها ما تمد به الرمح بأود العيال، فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب  
الدين ياكلون لمة اصابك » . وكان لمثل هذه الأقوال بقطة وصدى في النفوس

الافغانى الى وكيل دولة فرنسا (١) وأبانوا له أن في مصر حزبا وطنيا ،  
يطلب تنازل الخديو ، وان الاصلاح لا يتم الا على يد ولى العهد توفيق  
باشا (٢) ؟ !

وقد انتشر ذلك في القاهرة ، وغيرها .. وتناقلته الجرائد ، وهى أول  
مرة عرف فيها اسم الحزب الوطنى الحر « (٣)



(١) بقصد مسيو تريكو ، ولم يذهب السيد جمال الدين ومن معه الى وكيل انجلترا ، لانه كان على عداد شديد مع انجلترا .. وهى تعرف شدة كراهيته لها ، وهى التى حاربتة الى ان توفى

(٢) خلع الخديو اسماعيل باشا بمرأه سلطانية ارسلها اليه بالتلفراف الصدور الامظم فى ٢٦ يونية سنة ١٨٧٩ ، وتولى محمد شريف باشا رئيس الوزراء تقديمها اليه بمرأه عابدين ، وجلس فى نفس اليوم توفيق باشا على كرسى الخديوية ، وسافر اسماعيل الى المنفى بعد ثلاثة ايام أى فى ٣٠ يونية سنة ١٨٧٩

(٣) كان جمال الدين شديد الميل الى السياسة ، والى الحرية ومحاربة الاستعمار ، قوى الرغبة فى انقاذ البلاد الاسلامية من المستعمرين . وقد انتهز الفرصة لجمع الكلمة ، فدخل الماسونية حتى صار من الرؤساء . ثم انشأ محفلا وطنيا ماسونيا للشرق بلغ أعضاؤه ثلثمائة ، وعظم امره حتى ان ولى العهد توفيق وقتله طلب الدخول فيه . ثم انشأ الحزب الوطنى الحر ، فسعت انجلترا الى الدس له عند الخديو توفيق حتى نفاه من مصر بعدما تولى الحكم كما سيأتى فى حادث نفيه



## الفصل الثانى

### عهد جديد

دخلت مصر فى عهد الخديو محمد توفيق فى طور جديد من الحياة فقد كان لها من ارشاد السيد جمال الدين الافغانى وتعاليمه وسمى الحزب الوطنى الذى ألفه فيها ما فتح اقفال القلوب والعقول لتدرك حالة حكومتها وما يجب أن تكون عليه ، وسيرة الأجانب فيها وما تخشى أن تنتهى اليه ، فقد تولى هذا الأمير ولاية أمة غير الأمة التى كان يتصرف والده فيها تصرف الراعى المالك بالمواشى ، ولكن هذا الأمير لم يكن شرها ولا مسرفا ، بل كان فى أول عهده غفيا رحيمًا فكان لطلاب الإصلاح فيه آمال كبيرة ، حال دون تحقيقها نوع آخر من الضعف فيه وسوء سيرة حاشيته فيما بعد

وفد كان أول عمله أن كتب الى محمد شريف باشا (١) فى اليوم الثانى من ولايته ، أمرا بتأليف الوزارة بعد قبول استعفائها .. صرح فيه برغبته فى تحقيق آمال الأمة فيه واخراجها من الحال السيئة التى هى فيه ، بالاقتصاد القانونى فى نفقات الحكومة ، والاستقامة فى الوظائف العامة ، واصلاح القضاء والادارة .. ثم كتب فى اليوم الخامس أمرا آخر الى مجلس النظار ، فصل فيه ما يحقق الآمال بجعل الحكومة شورى ونظارها

---

(١) هو الوزير الخبير الجامع بين العلم والسياسة الوطنية . ولد بالقاهرة سنة ١٨٢٢ الميلادى من عائلة عريقة العصب والنسب . وكان والده قاضى قضاة مصر فى عهد محمد على ، ثم صار قاضى قضاة الحجاز ، وقد دخل شريف وهو صغير المدرسة الحربية بالخانكاه ثم ارسل فى بعثة الى باريس ، كان من أمضاها الاميران محمد سعيد باشا واسماعيل ( الخديو ) وعلى باشا مبارك . وقد تخرج فى العلوم العسكرية وعاد برتبة يوزباشى أركان حرب ، وبعد خدمته فى الجيش المصرى مدة مین ناظرا للخارجية ، ثم ناظرا للدخلية ، ثم ناظرا للمعارف والعقانية ثم رئيسا للنظار فى عهد اسماعيل وتوفيق ، وتوفى سنة ١٨٨٧ م من ٦٤ سنة

مستولين ، وتوسيع نظام شورى القوانين ، واصلاح المحاكم والمجالس ، والسعى لتعميم التربية والتعليم وتوسيع دائرة الزراعة والتجارة ، ومنح الحرية للعاملين في أعمالهم ، وصدر ذلك الأمر في رجب سنة ١٢٩٦ الهجرية الموافقة شهر يونية سنة ١٨٧٩ الميلادية

وقد انعكس كل ذلك على فكر توفيق باشا من الحال الجديدة التي كانت عليها خاصة رعيته

وقد ذكر الامام هنا مشروع شريف باشا الخاص بوضع قانون أساسى لمجلس النواب ، يضمن لهم حرية القول والفكر وحق النظر فيما يحق لنواب الأمة درسه ومناقشته ، على حسب ما قرأه ورآه في بلاد أوروبا.. فأعجب بذلك أرباب الافكار الحرة وقالوا ان التصديق عليه يعد فاتحة عصر جديد لمصر والمصريين

ثم قال الامام :

وتظاهر الأجانب بالرضا عن الاصلاح المشروع فيه ، وأنشئت جمعية في الاسكندرية باسم « مصر الفتاة » ولم يكن فيها مصرى حقيقى ، بل كان أكثر أعضائها من الشبان اليهود المنتمين الى الأجانب ، وقد رفعت هذه الجمعية لائحة الى الخديو فيها من مطالب الحرية ما يستحق الاعتبار ، وأنشأت بعد ذلك جريدة (مصر الفتاة) فكانت تنشر فصولا حادة الانتقاد وشديدة الموعظة . على حين كان أولئك الأجانب في ظل الاستبداد يقرضون الفلاح المائة بمائتين في بضعة أشهر وكانوا يتصرفون في المصريين كتصرف حكومتهم بهم

لكن ما حظ الأجانب في مصر من اطلاق الحرية للمصريين وتخويلهم الاصلاح المرغوب ؟.. لو صح شأن المصريين واستتارت عقولهم ، وكان لهم رأى في ادارة بلادهم ، هل تزيد الضرائب ويضيق على الفلاح في أدائها حتى يأخذ المائة بمائة في بضعة أشهر وهو انما يأخذها من الأجنبي؟ ولو وضع نظام ثابت للحكومة المصرية يكفل للأهالى سعادتهم ، هل يمكن للأجانب أن يتمتعوا بالسلطة والنفوذ الذى يتمتعون به تحت

السلطة الاستبدادية ، وأن يكونوا حكاما في اقتضاء ديونهم واستخدام المصريين في مصالحهم ؟.. ماذا أصاب الأجانب في عهد الاستبداد مما لا يحبون ، حتى يطلبوا الخلاص منه ؟.. نعم .. قد يصح هذا اذا أمكن أن يكونوا ملائكة قديسين ، يؤثرون سعادة المصريين على سعادتهم ، ويترهبون في المنافع الخاصة بهم اذا جلبها ضرر عام يصيب غيرهم ، وأن يكون ذلك الطلب مبدأ توبة عما أتوه من قبل

وسواء صحت هذه الأقوال أو لم تصح ، فالمحقق الذي لا ريب فيه أن وكيل دولة فرنسا مسيو « تريكو » عندما أحس بمقاصد الخديو وميله الى مشايعة الاحساس العام، أخذ يسعى في اقامة الموانع دون ذلك ، ودعا وكيل دولة انجلترا مستر « ريفرس ولسون » للاتفاق معه على اقتناع الخديو بضرر هذه الأوضاع الجديدة في الوقت الحاضر - وقت الارتباك في المسائل المالية - وأن دخول النواب في تصحيح الموازين ونحوها مما يعوق حل المشاكل الموقوفة ، لتشتت الآراء وافناء الوقت في المداولات.. لو تم ذلك ، وبقاء هذه العقد في الحكومة بدون حل سريع قد يؤدي الى الضرر بمسند الخديوية كما حصل من أيام

وقد ساعدهما في ذلك بعض الوطنيين من حاشية الجنب الخديوى ، ولقرب حادثة الخديو السابق من الأذهان ، وظهور السبب فيها ، تأثر الخديو الجديد بهذه الأدلة ، ومال الى غير ما أظهر للعامة في أول الأمر .. وصمم على رفض مشروع الاصلاح الجديد لو عرضه شريف باشا

وعندما عرض عليه رئيس النظار ما وضعوه في مشروعهم عرضا غير رسمى ، ظهرت عليه علامات النفور منه .. غير انه لم يقطع بعدم قبوله الى أن جاء فرمان (١) وتلى في احتفال عظيم ، وذهب المندوب السلطاني الى الاسكندرية ليتوجه منها الى الاستانة يوم الأحد ١٩ شعبان سنة

(١) يقصد فرمان السلطاني الذي أرسله السلطان عبد الحميد الى توفيق مع مندوبه على بك أنزاد باشا كاتبه المابين الهمايونى والذي تلى على الخديو بالقلعة في ٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ ، وكان يتضمن قيودا لحكم الخديو الجديد

١٢٩٦ هـ ( الموافق ٧ أغسطس سنة ١٨٧٩ م ) فبعد غروب ذلك اليوم دعا الخديو حضرات النظار فوفدوا عليه . وبعد قليل قدموا استغفاهم ، فقبل وانصرفوا

والسبب الصحيح لاستغفائهم أن شريف باشا صمم على تنفيذ لائحة الإصلاح ، ورأى الخديو توفيق أن الإصلاح على هذه الصورة سابق لوقته .. فلم يقبل ما عرض عليه . فاستعفت النظارة وشكل الخديو نظارة جديدة تحت رئاسته (١)

### نقى جمال الدين

بذلت مساع كثيرة فى اخفاء حقيقة سبب الاستغفاء حتى لا تشعر به الأنفس الطامحة الى الإصلاح الجديد .. لكن الحقيقة سطعت رغما من هذه المساعى ، وكثر القيل والقال فى ذلك . وكان وكلاء الدول أرباب النموذ فى مصر ، يظنون أن محرك هذه الافكار وباعث الأنفس على طلب الحرية ووضع أصول للنظام ، انما هو السيد جمال الدين الافغانى .. فتقدموا الى الخديو باقامة الأدلة على خطر الرجل وأخافوه منه ، كما أخافوه من النظام نفسه الذى اقترحه شريف باشا وكان النخاص من النظام باستغفاء الوزارة . أما التخلص من السيد جمال الدين . فكان بنفيه فى رمضان سنة ١٢٩٦ ، فأخذ فى الطريق آخر الليل — وهو ذاهب الى بيته هو وخادمه — وحجز فى الضبطية ، ولم يمكن من أخذ ثيابه

وبعد أن انتشر ضياء النهار ، حمل فى عربة مقفلة الى محطة السكة الحديدية ، ومنها ذهب تحت المراقبة الشديدة الى السويس ، ومنها أنزل فى البحر ليسافر الى بمباى .. فقطع المسافة بقميص واحد على بدنه ، والوقت صيف والحرارة شديدة حتى تقرح جسده . ولم يكن معه من النقود أكثر من ثلاثة جنيهات عثمانية وبعض قروش من الفضة . وهذا المبلغ أخذ منه فى السويس ، فنزل البحر ولم يكن معه شيء

(١) هذه الوزارة الفت فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩

ولما علم ذلك أحمد بك النقاوى ، وكان قنصل دولة ايران فى السويس ، ذهب لتوديعه وعرض عليه مبلغا وافرا من المال ، فأبى أن يأخذ منها شيئا هذا ما رواه أحمد بك النقاوى ووافقه عليه السيد جمال الدين عندما سئل عن ذلك ، بعد عودته من الهند الى أوربا ..

وفى اليوم الثانى من سفر السيد جمال الدين ، ذهب بعض تلامذته الى بيته ، فوجدوا بعض أعوان الضبطية يعبثون فى كتبه ، فدهشوا ورجعوا. وكان عنده كتب كثيرة فى فنون شتى ، فاختار منها أعوان الاصلاح وحفظه الأمن ما اختاروا لأنفسهم ، وحشوا بالباقي بطون الصناديق ، وأرسلوه الى بندر « أبوشهر » من بلاد ايران .. فلما منهم أن صاحب الكتب ذهب الى ذلك الثغر ، وبقيت الكتب فى مخزن الجمرى هناك الى أن أكلها العث هنيئا مريئا !..

أذكر هذه الحادثة لما كان لها من الأثر السيئ فى أفكار العامة ، فقد ذكرتهم بالأيام السالفة .. وأجبت ما كان قد مات من ذكرى حوادث المفتش وغيره ، وفجعت آمالهم بشدة هائلة وقسوة شديدة نزلت بمن كان يقول له الخديو توفيق قبل الحادثة بأيام على مسمع من الحاضرين : « انك أنت موضع أملى فى مصر أيها السيد » . فأين موضع هذا العمل من الاصلاح الذى ينادى به الخديو توفيق فى أوامره العالية ، وينعش بذكره أرواح الخاصة من الماثلين فى حضرته ، ويجتهد فى ابلاغ البشرى به الى الكافة ؟ .. أليس من أول مبادئ الاصلاح تقرير الأمن على الأنفس وكفالة الحقوق بالعدالة ، ومتى يكون الأمن اذا لم تحقق التهم ، ولم يسأل المتهم ، ولم تتضح الجناية بأدلتها الصحيحة ، ولم تقدر العقوبة بقدرها ؟ !

لاريب أن الانزعاج بنفى السيد جمال الدين كان عاما ، والكدر كان تاما .. ولكن الخديو أظهر سروره مما فعل ، وتحدث به فى محضر جماعة من المشايخ على مأدعة الافطار فى رمضان .. فأظهر الطرب بذلك من كان لا يعرف لنفسه قيمة فى العلم والفضل فى محضر السيد جمال الدين ،

وألزمت الجرائد بنشر الأمر الصادر بالنفى ، وفيه من التقرير الشديد ما لم يكن يستحقه الرجل .. كما انه كان فيه تشنيع جارح بمن كانوا يجتمعون عليه ، فنشره البعض وأبت احدى الجرائد نشره لأن محررها كان من تلامذته فعطلت .. على ان هذه الشدة ، لم تزد الأفكار الا حدة ، ولا الألسن الا جرأة ، ولا الاحساس بضرورة الاصلاح الا نموا وظهورا

في هذه الأثناء ، وقبل استعفاء وزارة محمد شريف باشا ، صرف عدد عظيم من الجند الى بلادهم . وتقرر جعل الجيش العامل اثنى عشر ألفا فقط ، وقد قدم جماعة من الضباط — بعد ذلك — عريضة الى جناب الخديو يلتمسون فيها عزل ناظر الجهادية ، وبنوا ذلك على أسباب منها : رداءة المأكل وضررها بصحة العساكر .. ومنها سوء حال المستودعين وعدم النظر فى اصلاح معاشهم ، فوعدوا باصلاح الحالة . وبعد أيام استعفت الوزارة ، ولم ينظر فى حال الضباط ولا العساكر بعد ذلك . ولم يتوجه الفكر الى هذه الحركة بالبحث فى أسبابها ، وعلاجها قبل أن تأخذ قوتها ، ويظهر أثرها بمثل ما ظهر به فيما بعد

### نفوذ الاجانب

قضى باستعفاء الوزارة ونفى السيد جمال الدين غرض أرباب النفوذ من الاجانب وبعض الوطنيين فى منع الاصلاح وارهاب النفوس الطامحة اليه على ما ظنوا . وبعد ذلك أخذ القناصل فى اقناع الخديو بأن هذه الوزارة الجديدة تحت رئاسته ، لا قدرة لها على تذليل المصاعب الحاضرة .. ومن الضرورى أن يوجد مساعدون من الوطنيين والاجانب فى الوزارة حتى تقوى بذلك على التخلص من الضيق الذى تعانيه الحكومة ، وأشاروا الى عودة مستر « ولسن » ومسيو « دوبلنيار » فأظهر لهم ان ذلك غير ملائم للمصلحة ، وانه لايرضى البتة بأن يكون فى النظارة أعضاء أورييون ، لأنه يشوش أفكار المصريين ويؤدى الى

### الخطب في الأعمال

قال الخديو : « ومع ذلك فلو صممت الدولتان على ارجاعهما وزيرين ، فاني مستعد للاشتراك معهما في العمل وقبول ما يشيران به ، وأحسبهما صديقين ولكني أتبرأ من تبعة ذلك »

ثم قال : « اننى لا أنكر حاجتنا الى معونة الاجانب ، ولكنى أريد رجالا مثل بارنج (١) يشتغلون باصلاح المالية ، ولا يخلطون الادارة بالسياسة ، ويكونون في وظائف سامية غير أنهم لا يكونون وزراء »

فأشاروا الى نوبار باشا ، فأظهر غاية التمتع من قبوله .. بل أبى أن يسمح بعودته من أوروبا اباعدا لدسائسه ، كما عرف ذلك كله وشاع بين العامة والخاصة ، وتناقلته الجرائد في حينه ، فأشير الى مصطفى رياض باشا فأبان شدة ميله اليه ، وقال : « انه الصديق الحميم والصادق الأمين »

واتتهى الأمر باستدعائه ، فحضر في النصف الأخير من رمضان ، ثم عهد اليه برئاسة النظار في ٥ سوال سنة ١٢٩٦ الهجرية - ٣ سبتمبر سنة ١٨٧٩

كان الخطاب الصادر من الخديو توفيق الى رياض باشا المؤذن بتعيينه رئيسا للنظار ، يشف عن كمال المودة وتؤكد الثقة وخلوص السريرة في الاعتماد على أماته ، وفيه التصريح بأنه لم يقصد بترؤسه مجلس النظار مدة الشهر الذي مضى أن يعيد السلطة الشخصية بل كان ذلك لمقتضى الأحوال (٢)

من المعلوم أن أهم المسائل لدى الحاكم والحكومة في ذلك الوقت هي المسألة المالية التى لأجلها أجبر خديو واسع السلطة مدرب على الملك المطلق سبع عشرة سنة ، أن يتنازل عن مقامه ويهبط من عرشه ويترك ملكه ويبعد عن بلاده مشيعا بالعويل والنحيب ، ولأجلها ولى خديو

(١) هو الذى صار لقبه بعد ذلك لورد كروس  
(٢) يقصد رفضه لقانون الاصلاح الذى عرضته شريف باشا ورفضه له واستقالته ، وكذلك حادث فى السيد جمال الدين الافغانى

جديد ناشئ في العمل لا يأنف لذة الملك ولا أبهة السلطان ، وله الحق الكامل في المحافظة على ما وصل اليه بأي الوسائل الممكنة ، وآماله في المستقبل تستدعيه في كل آن لحل ما وجده من العقد ووضع حد لتلك المصاعب التي جرت الى مثل تلك الحادثة العظيمة والانتقال الذي لم يكن في حسبانها

وهذه المسألة المالية ، كان يريد الجناب الخديو أن يأتي على حلها قبل كل المسائل ، وينتهي من مشكلتها قبل جميع المشاكل .. على أنه لم يكن هناك مشكلة سواها لولا ما أعقبها مما تولد منه

لم تكن عقدة المشاكل فيما يمس حالة المصريين وعلاقاتهم مع الحكومة في الأمور المالية ، اذ لم تكن لهم حاجة الى أمور جسام وأعمال عظام ، فيما يتعلق بشأنهم مع الحكومة من هذه الوجهة .. فقد كان يكفي أن تنظم أوقات التحصيل على وجه ما نظمت عليه أخيرا ، ويزاح عنهم من الضرائب ما يثقل عليهم ولا يفيد الحكومة كبير فائدة كما حصل فيما بعد

وما كان أسهل هذا الأمر في ذاته .. على انه لو بلغ من الصعوبة أقصاها ، وكان فيه من المشاكل ما يصل بين الأرض والسماء ، لما أخذ من اهتمام الحكومة جزءا من المائة بل من الألف ، مما أخذت المسألة المالية في ذلك الوقت ، ولما كان خوف العاقبة يتعهد قلوب أولى الأمر من وقت الى آخر ويحملهم على أعمال لم يكونوا يقصدونها على علم منهم بأنها تبعد عنهم قلوب الرعية وتصرف عنهم ميلها

كان معظم الاهتمام منصرفا الى ارضاء الاجانب ، ووضع أساس مكين يضمن لهم وفاء ما كانوا ينالون من فوائد الدين الباهظ . ظهر عجز الحكومة عن تأدية بعض أقساط من دينها في أوقاتها المحددة في سنة ١٨٧٦ م ، ولكن الخديو اسماعيل كان يريد أن يكون ذلك العجز معروفا عند الدول ذات النفوذ ، ويجب أن يتدخل أيضا في تحديد وجوه الوفاء وطرق التسديد .. فلما منه بأنه متى ثبت عجز المالية المصرية عن أداء



الدين ، ولم يبق من وجود الوفاء ما يكفي له ، أعلنت الدول قطع مرتب الاستانة وفادت به ملكا مستقلا على مصر لا يؤدي خراجا الى سلطان آخر . وكان يسره أن يكون ملكا ، ولو على بلاد خربة ورعية ضئيلة ، وبين خليط من الاجانب يصرفونه في داخلية بلاده حسب ما يريدون !.. ثم لم يكف الخديو اسماعيل عن تصرفه الخفى في المالية المصرية بما يزيد ارتباكها

وكلما تقدم الزمن ، ظهر الاختلال فيها .. فيدعو وكلاء الدول السياسية للتدخل في اصلاحها ، ثم هم يجيبونه الى ما يدعوهم اليه ، تمكينا لحق التدخل في الشئون المصرية ، الى أن جر الأمر الى تعيين لجنة التفتيش العليا ، ولم يكن فيها الا مصرى واحد وسائر أعضائها من الأجانب .. وأخذت تتناول البحث في الشئون المالية ، وتصل بها الى ما شاءت من الأمور الادارية . وكانت أحكام المحاكم المختلطة لأرباب الديون السائرة على الحكومة من أشد الضربات عليها ، ووقع الحجز على كثير من أملاك الخديو ، وطلبت الحكومة سيلا للتخلص من بعض ورطاتها .. فعقدت سلطنة روشيلد تحت شروط شديدة ، ورهنت بعض أملاكها وضمنت ما تعجز الأملاك المرهونة عن وفائها .. وكانت هذه السلفة ضعفا على ابالة ، ومشكلا فوق المشاكل ، فقد أبى بيت روشيلد أن يؤدي بقية السلفة بعد ما دفع شيئا منها ، وطلب شروطا أخرى وكفالة أشد ضررا بمن يقبلها من الاستغناء عن تلك السلفة .. وبذلك وقع الخديو اسماعيل في شباك من حبال السياسة التى ألقى بنفسه فيها اختيارا لا يشوبه شيء من الاضطرار ، وصدق فيه قول القائل : « انه صرف مائة مليون من الجنيهات ، أخذها بأفحش الفائدة وأنفق معها مائتين وخمسين مليونا تناولها من الرعية بأشد أنواع العذاب ، وقضى مع ذلك مدة سبع عشرة سنة في سلطنة تامة وكلمة نافذة »

كل ذلك لكى يعد بلاده ويهيئها لنفوذ أجنبي يسوسها ، ولأن يسجل عليها استكانة وذلا يتعذر الخلاص منهما .. بل كان يهيء نفسه بالمال

والسلطان للسقوط تحت سيطرة مسيطر لا يرحم ، ورقب يعجز عقله الذكى عن اخفاء شىء دون علمه ، بل قاهر شديد يضعف سلطانه القوى عن مناوآته.. وهكذا كان يبذل جهد المستطيع فى اضاءة نفسه ، وهو يظن انه ساع الى الاستبداد بالملك والوصول الى الاستقلال به .

ولهذا سمح بأن يأتى وكلاء عن أرباب الديون ، ليبحثوا فى شئون المالية ، وأظهر لهم قبول ما طلبوه بعد بحثهم ، وعين مراقبة من الاجانب على عموم حسابات المالية . ولم يكتف بأن يكون شأنه مع دائنيه ، كما هى القاعدة المعروفة فى كل ممالك العالم ، بل حول المسألة من مالية الى سياسية .. وأدخل فيها القناصل والوكلاء السياسيين ليصل بهم الى ذلك الغرض السامى الذى كان يتخيله ، وهى فرصة لايضياعها أهل البصائر النافذة من وكلاء الدول ذات المصالح السياسية والتجارية فى مصر

ومن المقرر عند الاوربيين ، ان العادة قانون ، وان العادة تتأصل بمرءة .. فما بالك بالمرات الكثيرة ، فلهذا انقلبت المسألة المالية آخر الأمر الى سياسة محضّة ، وما أخذهُ الأوربيون من حق التدخل فى شئوننا أصبح أمراً مقررًا وقانونًا واجب الرعاية .. ولم يعد لأحد من حكامنا أن يفكر فى الغائه أو تعديله ، خصوصًا وقد وجد الأجانب من الأدلة ما يحتاجون به المتنازع .. اذ كانوا يقولون : « لا ثقة بوعده ولا اعتماد على عهد ، فقد وعد الحاكم السابق وأخلف ، وعقد وتقض .. ولم نره يوما أنى بعمل تكون النية فيه خالصة لنفع بلاده ، ولم نر له أثرا فى البلاد تساوى قيمته ما صرف فيه .. والحاكم الجديد حديث العهد ، لا نعلم ما يكون منه ، ولا نريد أن نقع فى التجربة مرة أخرى ، فلا بد من أخذ الاحتياط الشديد من بداية الأمر.. ولما كان توفير المال، الذى يقوم لوفاء الدين وضبط حسابه ، موقوفًا على ضبط جميع الادارات والمصالح ، فلا بد أن يكون لنا نوع من المراقبة عليها ، حتى نكون على ثقة من أن حالتها لا تنقص الايراد ولا تزيد فى النفقة

» ولما كان الفلاح هو العامل الفرد فى سوق الأموال الى الخزينة

ومنها الى الدائنين ، فشأنه مرتبط بشئون الدائنين ولا يشر عمل الفلاح الا اذا كان آمنا على نفسه وماله .. فلنا حق المراقبة على كل ما يتعلق بالفلاح من هذه الجهة . والنتيجة التي لا شبهة فيها بعد تسليم هذه المقدمات ، أن لنا حق السيطرة على الحكومة المصرية بجميع فروعها .. لكن تحت اسم المراقبة المالية »

وزاد نفوذهم شدة تدخلهم في خلق اسماعيل باشا ، فها هنا كان موضع الاشكال ، ومن هذا كان ينبوع المخافة والاضطراب على المسند الجديد

### المراقبان العموميان

قبلت الدولتان ما طلبه الخديو توفيق من عدم تعيين وزيرين أوربيين، ولكنهما صممتا على تعيين مراقبين عموميين يقيمان في نظارة المالية ، ونفوذهما يشمل جميع الادارات المصرية ، وراتبهما الذي يتقاضياه من الحكومة أوفر بكثير من راتب وزيرين . وصدر الأمر بتعيينهما قبل توجيه رئاسة النظر الى رياض باشا بأيام

ولما تعين رياض باشا رئيسا للنظار ، وجد مسيو بارنج دوبرنيار محاسبا عموميا لقلم المحاسبة وادارة الدين العمومي ، ولم يبق الكلام الا في تحديد وظائفهما .. كأن عنوان الوظيفة لم يكن كافيا في فهم معناها ، وبعد قليل قدم قنصلا دولتي فرنسا وانجلترا لائحة تحدد وظائف المراقبين .. وبعد مداولة طويلة في مجلس النظر ونزاع شديد بينهم ، قبلت اللائحة كما قدمت تقريبا ، وصدر الأمر بتحديد وظائفهما على وجه أن لهما في الأمور المالية حق المراقبة غير المحدودة على جميع المصالح العمومية

وعلى الوزراء والمأمورين من أية رتبة كانوا أن يقدموا الى المراقبين كل ما يطلبانه من الافادات ، وعلى ناظر المالية أن يقدم اليهما كل أسبوع كشفا مفصلا عن دخل نظارته ونفقتها وعلى كل ادارة أن تقدم كشفا مفصلا كذلك في كل شهر .. ويتقاسم المراقبان النظر في المصالح العمومية

التي يكون من شأنهما مراقبتها والاشراف عليها بمقتضى الحقوق المثبتة لهما في ذلك الأمر الخديوى

وتقرر لهما مقام في مجلس النظار برأى شورى ، وتقرر ألا يعزلا الا بموافقة حكومتيهما ، ولهما أن يعزلا وأن ينصبا جميع الموظفين في ادارة التفتيش ، وأن يعينا لهم الرواتب ، وهما اللذان يضعان برنامج (ميزانية) التفتيش على حسب ما يريدان ، وعلى الحكومة أن تصرف لهما ما يطلبان صرفه بلا معارضة . ومن هذا ترى أن تحديد الوظائف كان عبارة عن رفع كل حد يوهن عنوان وظيفتهما واطلاق حق المراقبة من كل قيد

وقد ذكر في ذلك الأمر ما نصه : « ان حكومتي فرنسا وانجلترا قد رضيتا بأن المراقبين العموميين لايتدخلان في الوقت الحاضر في ادارة المصالح الادارية والمالية ، فالمراقبان يقتصران الآن على أن يقدموا الينا « الخديو » والى وزرائنا ما تهديهما اليه مراقبتهما من الملاحظات » فهذا التقييد « بالوقت الحاضر » يدل على ما كان بين الدولتين والحكومة من المخبرات ، واعتذار القنصلين باسم دولتيهما بعد صدور الأمر الخديوى ، وتأويلهما على وجه لم يزد القصد الا ظهورا يشير الى أن الأمر سطر برأى القنصلية ، وان الحكومة تضجرت من هذا الوعيد بعد صدور الأمر .. كما تضجرت منه قبله ، ولكن لم يتعطف القنصلان لارضائهما الا بعد امضائه وكانت الترضية عبارة عن ابقاء الألفاظ وتأويلها بما لا يفهم منه ليجرى حكمها كما وضعت

### خيبة امل وحزن

لم يمر ذلك على الأنفس والعقول بلا أثر خادش ، وهزة أسف عامة ، لكل من كان يلوح في قلبه شعاع الفكر ، ويدور في خلدته خيال الميل الى استقلال البلاد ، ووضع الاصلاح فيها على قواعد سليمة ، واحاطته بما ينقى أعمال السلطة العليا من كل قصد الى غير مصلحة الرجل ، ويصونها عن كل غرض يسوق الى تأييد السلطة الاجنبية .. بعد ما

عرفت آثارها وتمكنت من النفوس النفرة منها  
وقد تحدث الناس بذلك بمجرد تعيين المراقبين ، وأكثروا من الانتقاد  
عليه قبل مجيء رياض باشا ، وقبل أن تبين حدود المراقبة على هذا  
الوجه . وبعد أن نشر هذا الأمر ، وعرفه العام والخاص .. ولم يدع  
انسانا حتى أنطقه ، ولا قلما حتى أطلقه ، وجرائد هذا التاريخ شاهدة به  
وهنا أترك تسلسل الحوادث وتوارد الأسباب التي جرت الى الثورة ،  
حتى أفرغ من ذكر ما تم من الاصلاح مدة وزارة رياض باشا ، وما  
تحولت اليه أحوال المصريين ، وما عرض على أفكارهم مما يحسب تقدما  
وتأخرا .. آتى على ذلك باجمال يغنى عن تفصيل ان شاء الله ، ثم ترى  
بعد ذلك سلسلة الحوادث قد اتصلت حلقاتها بما ذكرناه سابقا .. بدون  
حاجة للتبنيه الى العودة اليه



## وزارة رياض باشا

لما ألف مصطفى رياض باشا الوزارة (١) ، احتفظ لنفسه بوزارة الداخلية لاصلاح الحال العامة ، ونظارة المالية ( مؤقتا ) لحل مشاكلها مع الأجانب . وقد سار في الاصلاح سيرة حميدة ، لا شيء فيها الا محاولته تعميم العدل ، والمساواة فيها بسرعة ، ونلخص ذلك بما يأتي :

### الغاء رياض باشا للسخرة

كان أول اصلاح قام به الغاء (السخرة الشخصية) وكان التسخير في البلاد المصرية نوعين : عاما وخاصا .. أما العام فهو اكراه الحكومة الأهالي على العمل ، بغير أجر في المصالح العامة ، كاقامة الجسور « الحواجز » على الأنهار العظيمة ، وحفر الجداول الكبيرة ، وتشبيد كل بناء يقام باسم الحكومة . وأما الخاص فهو أن يلزم الأعيان من دونهم من الأهالي بالعمل في منافعهم الخاصة بغير أجر ، كالعمل في المباني والأراضي بجميع أنواعه .. فكان جميع الوجهاء وجميع موظفي الحكومة يرهقون الأهالي بهذه السخرة ، ويقرنونها بالضرب والاهانة .. حتى ان بعضهم كان يضرب الفلاحين لمجرد اللذة

وقد كان كل ذات من الذوات الفخام له بلاد تتعلق به ( أى هى منطقة نفوذه ) يستخدم سكانها في أراضيهم بأشخاصهم وماشيتهم في جميع مواسم الزراعة ، على شرط أن يحمل العاملون أقواتهم وأدوات العمل ، وغذاء ماشيتهم من ديارهم اذا كانت البلاد قريبة .. فان كانت بعيدة ، سمح لهم بغذاء الماشية دون غذاء الآدميين ، ولكنه لا يسمح لهم بأماكن تقى من

---

(١) مصطفى رياض بن اسماعيل الوزان بن احمد بن حسن الوزان احد كتبة الحكومة المصرية . ولد سنة ١٨٣٢ وتوفي سنة ١٩١١ م من سبع وسبعين سنة ، كان كاتباً في ديوان المالية في يناير سنة ١٨٤٨ م واخذ برتقى المناصب حتى صار وزيراً

المطر والبرد في أيام الشتاء ، ولا بمستظل يقيهم الحر في أيام الصيف .  
فكان البرد يقتلهم شتاء ، والحر يذيبهم صيفا

وقد شدد الوزير في الغاء السخرة بنوعها ، وبالنح في ذلك حتى انه  
أخذ مدير القليوبية مرة لأنه أرسل بعض أشخاص من أهاليها لحفر التربة  
التوفيقية التي تصل الى أراضي القبة لأنها خاصة بالحديو .. ووبخ المدير  
توبيخا شديدا ، وعرض الأمر على الحديو .. فأظهر استحسنانه ، ولكن  
لم يذهب بلا أثر في نفسه . فان مبالغته في العدالة الى هذا الحد مما لا  
يرضى السلطة المستبدة العليا في مصر ، مهما كانت منزلة الحاكم من  
الكمال .. فانظر ماذا يكون في نفوس أكابر رجال الحكومة السابقين -  
بين الحاليين - من رياض باشا ، بعد حرمانهم من منافع أبدان الرعية بغتة  
بلا تدريج !..

ثم ان رياض باشا شرع في وضع نظام لتوزيع الاعانة على الأعمال  
العمومية ، يحل محل السخرة .. كما أشارت لجنة التفتيش العليا من  
الأجانب ، وكان أساس هذا النظام التخيير بين العمل البدني ودفع نقدي  
للحكومة ، فخفف الويل عن كثير من الفلاحين ، وشعروا بأن أوقاتهم ملك  
لهم لا للحكومة

وكان من عدل رياض باشا في ذلك ، أن عنف فريد باشا مدير الشرقية  
لارساله مائتي رجل لاصلاح ما جرفه السيل من سكة حديد السويس ..  
اذ طلبت مصلحة سكة الحديد العمومية منه ذلك حسب العادة ، مع ان  
فريد باشا كان من رجال رياض باشا الذين يحبهم ويعبونه وبينهما شبه  
قاربة . ولم يكتف بذلك ، بل كتب منشورا عاما لجميع المديرين يحذرهم  
من مثل ذلك العمل ، وقد كتب صورة هذا المنشور كتاب الداخلية  
مرارا ، وكلما عرضوا عليه صورة مزقها ، لأنها لم تف بغرضه من  
التسوية بشأن الأهالي

وقد دعاني في آخر الأمر الى تحرير (١) ذلك المنشور ، فكتبته وذكرت  
فيه الحادثة ، وأتذكر منه هذه الفقرة : « وليعلم المديرون والأهالي

جميعا أن الأهالى ليسوا عبيدا لأحد ، ولا لأحد عليهم سلطان ، الا فيما يتعلق بمنافعهم عامة أو خاصة » وهذا تصريح من رئيس الحكومة النائب عن الجناب الخديو باعتاق الأهالى من عبودية التسخير .. بل العبودية للحاكم الأعلى على وجه الاطلاق : وهذا مما لم يكن له مثيل من قبل

### توزيع مياه النيل

واهتم رياض باشا بأن توزع مياه النيل بالقسط ، وقد كان الفقراء لا ينالون من النيل أيام هبوطه الا فضلات ما يزيد عن حاجة الأغنياء ، وشدد رياض باشا على نظارة الأشغال العمومية فى تنفيذ ذلك على الكبير والصغير . وذكر الأستاذ من الشواهد على ذلك تنفيذ عمل يحول دون ما كان بولينو باشا يستفيدة من آلة بخارية له يبيع الماء الذى ترفعه للفلاحين ، حتى فى أيام الفيضان التى يجدون فيها الماء بغير ثمن . ولما جاء بولينو باشا برجال مسلحين ليمنعوا فتح التربة التى يسقى منها الأهالى ، أمر رياض باشا بفتح التربة ولو بقوة السلاح .. ففتحت تحت حماية العساكر المصرية ا

### الغاء الضرائب

لم تمض على وزارة رياض باشا بضعة أشهر حتى ألغى ثلاثين ضريبة ونيف من الضرائب الصغيرة التى كانت أضرت بالمصنوعات والأعمال التجارية والصناعية الخاصة بالوطنيين وبحال المزارعين ، وزاد مائة وخمسين ألف جنيه على ضريبة الاطيان العشورية تعويضا لما فات بالغاء تلك الضرائب ، فخفف بذلك عن الفقراء ما ثقل على الأغنياء .. وهو مما لا يمحق أثره من أنفس الفريقين ، وذهب الأفواج من التجار والصناع

(١) كان رياض باشا يعرف الشيخ محمد عبده منذ كان شابا بالأزهر ، وهو الذى اختاره محررا ثالثا بالوقائع المصرية فى أواسط سنة ١٢٩٧ هـ الموافقة سنة ١٨٧٩ م ثم طبع منه اصلاحها ورفقاه الى المحرد الاول بها ، فضم الشيخ محمد عبده اليها سيد زقلول ، وابراهيم الهلباوى ، وعبد الكريم سلمان ، والسيد وفا



ليعلنوا شكرهم للجناب الخديو على الغاء تلك الرسوم ، ولكن الكبراء لم يحفلوا بذلك ، ولا شاركوا الشاكرين ، ثم عفت الحكومة عما عجزت عن تحصيله من الرسوم والضرائب المتأخرة الى سنة ١٨٧٦ م

### وضع ميزانية الحكومة والتحصيل

ثم نظم برنامج الإيراد والمصروف من مال الحكومة « الميزانية » وألفت لجنة لسماع شكايات المطالبين بالضرائب وانصافهم ، ووضع نظاما للتحصيل في الأوقات المعينة على حسب مواسم الزراعة ، وعرف الفلاح ماله وما عليه . وضع هذا طبقا لما أشارت به لجنة التفتيش العليا وقد ظهر عقب ذلك مبدأ المساواة بين الأغنياء والفقراء والوطنيين والأجانب في التحصيل ، وكان الأغنياء والأجانب يماطلون عدة سنين.. وكثيرا ما يعفى عنهم بعد ذلك . وظهر عند التنفيذ ، ان بعض أغنياء الأجانب كان في ذمته ضرائب سبع سنين .. فحصلت منه بقوة الحكومة ، وهذا مما لم يكن يسع به من قبل !..

### ابطال الكرباج والحبس

وقد صدر الأمر بإبطال الضرب بالكرباج في تحصيل الاموال الاميرية فعجب كثير من الناس لذلك ، وقالوا : كيف يمكن أن يحصل مال من الفلاح بدون ضرب ، وانكره كثير من المديرين ، وظنوا انه قد هدم ركنا عظيما من سلطان الحكومة

ثم صدرت الأوامر مشددة بمنع الحبس لتحصيل الحقوق سواء آكانت أميرية أم شخصية ، ولقى تنفيذها مصاعب ومقاومات شديدة لتمكن المبل الى الظلم من أنفس أكثر الحكام .. ولكن لم تأت آخر مدة رياض باشا حتى كان الحبس قد محى الا ماندر ..

ومن غرائب آثار تعود الظلم ورؤيته ملازما للسلطة بمصر ، ان الذين حفظت أبدانهم من الضرب والجلد وأرواحهم وأجسامهم من الحبس في سبيل اقتضاء الحقوق - سواء آكانت للحكومة أم للأفراد - كانوا

يعدون تلك الأوامر مخالفة لما يجب أن يعاملوا به ، وانه لا يفيد الا السكراباج .. كما لا يزال قوم منهم يقولون ذلك الى اليوم ، وكانوا يهزأون بتلك الرحمة ، اللهم الا الذين لمع في عقولهم روح الفهم ، ووصل الى أبصارهم شعاع الاحساس بما للانسان من حق الكرامة التى خصه الله بها ..

### قانون التصفية

بعد مخاضات طالت مدتها بين الحكومة المصرية والدول العادلة الفخيمة ، قبلت الدول تأليف لجنة لتصفية الديون المصرية التى استدانها شخص اسماعيل باشا ، ولا يعرف في البلاد من آثارها في المنافع العامة الا القليل .. قبلت الدول « العادلة » أن تؤلف لجنة من رجالها ليقضوا للدائنين من رعاياها على الحكومة المصرية ، ولم يكن في اللجنة من المصريين الا عضو واحد . قضت « عدالة » الدول المتمدنة أن تصادف المخاضات في ذلك صعوبات ، حتى يكون القبول مقرونا بالتفويض التام ، وخضوع الحكومة المصرية لكل ما يطلبه وكلاء الدائنين ، وصدر الأمر بتأليفها تحت رئاسة السير ريفرس ولسون في ٢١ مارس سنة ١٨٨٠ م (١) وبعد مدة أصدرت اللجنة قانون التصفية الذى اشتهر أمره وأهم مسائل هذا القانون هو كيفية توزيع دخل الحكومة ، ودخل بعض الأملاك على الديون ، ومنها انه قدر لنفقات الحكومة أربعة ملايين و ٨٩٧٨٩٠ جنيها وفيها جزية الدولة العثمانية على مصر ، وفوائد قنال السويس ، وتكميل النقص الذى يحصل في الإيرادات المخصصة ، وسنوية المقابل ، وما بقى من مالية القطر المصرى فهو للدين وفوائده .. وقد كان يوم أمضى هذا القانون من الأيام المعروفة في تاريخ مصر ،

(١) جاء في الوثائق المصرية بتاريخ ٧ ابريل سنة ١٨٨٠ م ان هذه اللجنة الفتى في ابريل من تلك السنة لا في مارس . وهى مؤلفة من رئيس وثمانية اعضاء : اثنان من انجلترا احدثهما رئيسها ، واثنان من فرنسا ، وواحد من النمسا ، وواحد من المانيا ، وواحد من ايطاليا ، وواحد من مصر هو بطرس بك « باشا » غالى . وقانون التصفية يعنى تصفية ديوان الحكومة وتحديد نفقاتها وتنظيم شئونها المالية وهو اساس نظام مصر الحالى حتى سنة ١٩٠٤

وقد احتفل له في الاسكندرية جماهير من أهالى القطر المصرى ، وعد الناس ذلك اليوم من الأعياد الوطنية في ذلك الوقت ، وقالوا انه فاتحة الطمأنينة وضمان من الاضطراب الذى كان يخشى منه . وفي الحقيقة كان هذا القانون فاصلا بين ماض قلق مشوش كان يتعسر السير فيه وبين مستقبل واضح معروف ، كما تمنى الخديو توفيق ، وقد صرح مرارا انه يريد فاصلا بين الماضى والمستقبل .. وأهم ما غنمته الحكومة منه رضا أوربا عن الحالة التى قررها ، واطمئنان الأهالى والخديو على كرسى الخديوية ، وانقطاع المخاوف التى كانت المشاكل المالية تثيرها في الأوهام عندما يخطر بالبال حادثة خلع اسماعيل باشا .. وبذلك الطمأنينة كان الفرح لها كالاحتفال

#### اصلاح الوقائع المصرية

وقد كانت الجريدة الرسمية توزع على المأمورين وعلى البلاد توزيع الضرائب .. ترسل الى من ترسل اليه بغير طلبه ، ويجبر على دفع قيمتها بالوسائل التى كان يجبر بها الممولون على الدفع . فأراد رياض باشا أن يجعل للجريدة الرسمية ، قيمة في ذاتها تحمل الناس على طلبها رغبة فيها ليقفوا على ما تضمنته من الأوامر واللوائح « القوانين » فيكونوا على بصيرة مما تريده الحكومة ، من غير اكراه من الحكومة لهم على ذلك . وكان قد أحس بتوجه الافكار الى طلب شئ من طلاوة العبارة ، ووفرة المعنى وحسن الانتقاد . أما أوامر الحكومة وحدها ، فلم تكن مما تحرك النفوس للاطلاع عليها في الجريدة الرسمية ، لأن المأمورين يعرفونها من طريق أخرى

أما الأهالى فلم يكونوا قد تعودوا معاملة الحكومة بما تنشره ، ولا أن تكون طاعتهم لها منحصرة فيما يكتب وينشر بوجه رسمى ، ولم يعرفوا بأن الحكومة تقف عندما تحدده في أوامرها .. لهذا لم يهتموا في الاغلب الا بأشخاص الحاكمين دون ما يكتبونه ، ولم يكن في الجريدة

الرسمية وراء أوامر الحكومة الا مدائح الخديو وبعض كبار الحكام ،  
على الطريقة القديمة ..

وهذا مما كان ينفر من رؤيتها ، فطلب رياض باشا وسيلة لتغيير طريقة  
التحرير وتحريرها على وجه يستميل الناس للاطلاع عليها ، ورغب مع  
ذلك أن تكون يومية .. فهدها بحثه الى تعيين الكاتب « يعنى الامام  
نفسه » فى تحرير تلك الجريدة ، وكان الخديو فى انحراف عنه لأسباب  
غير معروفة ، وانما قيل ان السبب فى هذا الانحراف انه كان موضع ثقة  
الشيخ جمال الدين الافغانى .. فاجتهد رياض باشا فى استرضاء الخديو،  
فرضى بتعيينه بالجريدة فعين محررا ثالثا ، وبعد تعيينه طلب أن يضع  
خطة يمكن بها اصلاح الجريدة .. فعرض له ما رآه فى تقرير واف ، فأمر  
رياض باشا بأن ينظر التقرير لجنة مؤلف من وكيل الداخلية ، ومدير  
المطبوعات ، وكاتب التقرير ، ثم توضع لائحة لقلم المطبوعات وتحرير  
الجريدة الرسمية ، فوضعت اللائحة فى قليل من الزمن ، وأمضاها رياض  
باشا ، وعين صاحب التقرير رئيسا لقلم تحرير الجريدة الرسمية العربية  
.. فانتخب محررين مجيدين تستميل الناس أقلامهم ، وتنبعث الرغبات  
الى النظر فيما يقولون ، فتحولت حال الجريدة الرسمية الى ما حمده  
العامة والخاصة ..

### صلة الجريدة بحياة الامة

وقد يقول غير العارف بسير الحوادث : وما مكان الجريدة الرسمية  
من تاريخ مصر — سعادتها أو شقاؤها ، طمأنينتها أو قلقها ، تقدمها أو  
تأخيرها ؟.. فنجيبه بأن تاريخ مصر ان كان مجموع حوادث أمة لها  
حياة سياسية وأدبية وعقلية .. فلتغير سير الجريدة الرسمية وتحرير  
ادارتها ، مكان رفيع من تلك الحوادث ، ومقام سام من ذلك التاريخ  
كما سنبينه ، وان كان تاريخ مصر تاريخ مادة جسمية حيوية تنمو  
وتتذى وتموت ، فالبحث فيه من خصائص علم التاريخ الطبيعى ، ولا

علاقة لنا به الآن ..

وربما تبسم استخفافا بالأمر بعض الغفل الذين لم يتعودوا النظر في طبيعة ترقى الأمم ، ولا يحرك احساسهم الا الصدمات الصاعدة ، والقواصف القارعة ، وهم من موضوع التاريخ الطبيعى كما قلنا ..

ان واضع لائحة ادارة الجريدة الرسمية ، لم يكن من أرباب المنازل السامية في مصر .. ولكنه نبت في تربتها واتصلت حياته بحياتها ، وأشربت مداركه الاحساس بحاجتها .. ولما تناولت عملا مما له علاقة بشئونها العامة ، فتح له هذا الاحساس بابا من المعرفة بطريق ايسال منفعة من المنافع اليها . فلما دعى لوضع اللائحة أودعها أحكاما غريبة في بابها ، يعجب لها الناظر فيها ، خصوصا اذا كان من أبناء الشعوب المتمدنة أو من المقلدين للمتمدنين ، ولكن لكل بلد طبيعة خاصة بها ، ولكل قوم حاجات تختلف باختلاف البقاع والازمان

#### نواحي اصلاح الجريدة

تضمنت اللائحة ان جميع ادارات الحكومة ومصالحها الكبرى « والمجالس الملفاة » ملزمة بأن تكتب الى ادارة المطبوعات بجميع ما لديها من الاعمال المهمة التى تمت أو شرع فيها على أن تتم ، وعلى المحاكم أن ترسل جميع نتائج أحكامها ، وان لادارة الجريدة الرسمية حق الانتقاد على أى عمل من الاعمال عندما ترى له وجها ، حتى أعمال نظارة الداخلية نفسها التى كانت الادارة جزءا منها ، واذا رأت في الجرائد التى تنشر في مصر - عربية أو أجنبية - ذكرا لخلل في عمل أو سوء تصرف في أمر ما ، فلها الحق أن تكتب بواسطة نظارة الداخلية الى النظارة أو الادارة التى يختص بها ذلك العمل تسألها عن الحقيقة ، فان كان حقا ما نشرته الجريدة أخذ المخطئ بواسطة رؤسائه ، وأشعرت ادارة المطبوعات بذلك ، ونشر في الجريدة الرسمية ، وان كان باطلا كلف صاحب الجريدة اثبات ما ذكره والا أنذر مرة بعد أخرى . وبعد الثالثة يعطل لأجل أو

دائماً على حسب الاحوال ، وان من حق رئيس تحرير الجريدة أن يكتب فيها تحت عنوان قسم غير رسمى ما يعن له أو ما يرد اليه من الفصول الأدبية مما له مساس بالاحوال العامة ..

وقد منح رياض باشا هذه السلطة لادارة الجريدة ، اما ثقة منه بالعامل فيها وهو واضح اللائحة ، واما علما منه بأن ذلك من مصلحة البلاد وحاجاتها الحاضرة ..

### اصلاح التحرير

وأول ما بدأت الجريدة بانتقاده طريقة التحرير التى كانت متبعة فى النظارات والادارات، فأخذت تبين وجه الخلل فيها واضرارها بفهم المعانى المطلوبة فيها واقتضائها لطول المخابرات فى الاستفهامات التى لا طائل تحتها ، ثم ترسم الطريقة الفضلى التى يجب السير عليها .. فلم تمض أشهر قليلة حتى ظهر فضل ذوى الالمام باللغة العربية من موظفى الحكومة ، وخصهم رؤسائهم بمكاتبة الجريدة الرسمية سترأ لعيوب الادارات ، واضطر الجاهلون باللغة والتحرير الى استدعاء المعلمين أو المبادرة الى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير ، وعم ذلك المديرىات ، كما عم النظارات ..

وذلك هو تاريخ اصلاح التحرير فى مصالح الحكومة ، ولا زال يتقدم الى اليوم . وهكذا كان شأن الجرائد .. كانت تتسابق الى اظهار مزاياها فى التحرير حتى ترضى ادارة المطبوعات ، وصلاح بذلك كثير من أساليب الجرائد التى لم تكن لها عناية بتهديب العبارات ، وتسابقت الأقلام فى تنقيح الألفاظ وضبط المطالب .. فتمت بذلك نهضة التحرير التى كانت بدأت من سنين مضت ، وكان الضعف يقعدها والخوف يرعدها ، فقضى لها أن تظفر على يد من كان له دخل فى نشأتها

سهلت بذلك المواصلات بين الانفس فى الافكار ، وخف عليها التعبير عما فى الضمائر ، وكثر الكاتبون ، وغزرت مادة المتكلمين ، وتيسير

التعارف بين المتباعدين ، ونشأ في الناس نوع من الألفة ، أحدثه الشعور بجامعة اللغة .. وبعد أن كان نظر الواحد منهم لا يجاوز شخصه ، أصبح وهو يشرف على فضاء يسمع بنى أمته ، وأخذ يشعر بأن له حركة عامة الى المقصد العام ، كما ان له حركة خاصة الى الغرض الخاص . وفي هذا من تواصل الافهام ما لا يخفى على عاقل ، وله من الأثر في انهاض النفوس الى طلب ما يصلحها ما لا يخفى الا على غبي جاهل

كانت تبحث ادارة المطبوعات أو دائرة التحرير في جميع منشورات الحكومة ولوائحها وأعمال المديرية وأحكام المحاكم وتبدى رأيها في جميع ذلك ، وتنشره في الجريدة الرسمية .. وكان ما ينشر من الآراء يأخذ مكانا من الاهتمام عند رجال الحكومة ، ويوضع موضع البحث ، ويبنى عليه التعديل أو التغيير ، ويبادر الى نشر ما تم من ذلك في الجريدة الرسمية ..

### \*\*\*

كانت دائرة التحرير تبحث في الجرائد عامة ، وما كان فيها متعلقا بانتقاد بعض عمال المصالح يكتب عنه من ادارة المطبوعات الى المصلحة التي كانت موضوع النقد ، ويسأل العامل عما نسب اليه .. فاما أوخذ ان صحت النسبة ، أو أنذر صاحب الجريدة اذا لم تصح ، عملا بنصوص لائحة ادارة الجريدة الرسمية - كما سبق - فارتفع شأن الجريدة في نظر الحكام والناس عموما من جهة ، واشتد حرصها على تحرى الصدق من جهة أخرى ..

أما القدح الشخصي ، فكان ممنوعا على وجه الاطلاق - سواء اشتكى من ذلك المطعون فيه أو لم يشتك - لاخلاله بالآداب العامة ، فكان ذلك من أسباب تأديب الحكام وحثهم على السير في طريق الكمال ، والمنافسة في محاسن الأعمال ..

ومن وسائل تهذيب الجرائد والزامها الوقوف عند حدود الوقار فيما تكتب ، مع اطلاق الحرية لها في تبين الحقائق وكشف وجوه الخطأ

والصواب بدون خوف ، انه لم يبق عامل ولا رئيس مصلحة ، بل ولا ناظر الا أحب أن تظهر محاسن أعماله في صفحات الجريدة الرسمية ، ويخشى أن تكون له سواة فتبدو بنفشة من نفثاتها ..

### انتقاد .. وفكاهة .. !

ومن فكاهات ذلك التاريخ ان مدير بنى سويف « ا . بك » بعد أن ضاق صدره من شدة انتقاد الجريدة الرسمية ، ومؤخدة نظارة الداخلية له على بعض أخطائه ، أصدر أمره بمنع دخول الجريدة الرسمية في مديريته .. وكتب بذلك محررا غير رسمى الى صديقه مدير المطبوعات ، فوقع المحرر في يد رئيس التحرير لأنه كان العامل وحده في الادارة ، فنشرت تلك الفعلة في منشور عام له ولجميع المديرين أو أدرج المنشور في الجريدة الرسمية .. فانظر الى أثر ذلك في أنفس العامة والخاصة .. وهذا مما علم الناس طرق انتقاد أعمال الحكومة ، وأفهمهم أنها قد أقامت من نفسها مراقبا عليها يبين مواضع الضعف فيها ، ويرشد الى طرق الصواب وتدارك ما يقع من الخلل .. وذلك مما يرفع الهمم الى أعمال الفكر في معرفة الحق ، ويسوق العزائم الى طلبه ..

لم يضع رئيس التحرير فرصة في انتقاد نظارة المعارف ، وسير التعليم واظهار معايب التربية وما يجب أن يؤخذ به من وسائل الاصلاح .. فغضب لذلك ناظرها (١) «ع.ا. باشا» وكان بطيء الحركة خامد الفكر ، بعيدا عن الاحساس بحاجة الوقت ، فاشتكى الى رياض باشا من اختفاء الجريدة الرسمية له ، وتنقيبها عن مواضع الخلل في أعمال نظارته .. فلم يسمع منه بل أجاب الى أن الحق أولى بالتأييد ، فان كان ما ذكرته الجريدة الرسمية غير صحيح فما على الناظر الا اقامة الدليل على ذلك ، وهى مستعدة لنشره ، فسكت لأن ضوء الحقيقة كان هو المرشد للمنتقد في سبيل انتقاده ..

(١) هو على باشا ابراهيم ناظر المعارف في تلك الوزارة ، وكان على مباركة باشا وقتئذ ناظرا للاشغال



### مجلس أعلى للمعارف

وبعد أن تكرر النقد ، ووجد رياض باشا أن السكوت عن الخل ضرب من الإهمال الذي لا يغفر .. ذاك يوماً رئيس التحرير في ذلك وفي الوسيلة إلى إصلاح نظارة المعارف ، وقال أما تغيير الناظر فغير ممكن لأنه له مكانة في نفس الجانب الخديو ، ومن جهة أخرى فنحن كحزمة ضمت أعوادها برباط واحد .. فلا يحسن البدء من الآن بحل ما عقد بيننا ولا بد من النظر في طريقة أخرى ، فعرض عليه أن يشكل مجلساً أعلى يكون هو القاضي في إدارة المعارف العمومية وما على الناظر إلا التنفيذ .. فلم يمض على إبداء هذا الرأي بضعة أيام حتى صدر الأمر بتأليف مجلس المعارف الأعلى يضم عدداً كبيراً من الأعضاء الوطنيين والاجانب ..

وكان رئيس تحرير الجريدة الرسمية عضواً فيه ، ولم يخل تأليف هذا المجلس من الانتقاد لكثرة عدد الاجانب من أعضائه ، غير أن رياض باشا كان يريد بذلك أن تكون قراراته معروفة حتى عند رجال الدول الأجنبية ذات النفوذ في مصر ، فيسهل تنفيذها بدون معارضة من المراقبين ولا غيرهم فيها خصوصاً إذا قضت بصرف النقود وتوسيع النفقات .. وقد كان لهذا المجلس أعمال مشكورة لا ينكر أثرها في حالة المعارف العمومية ، ولم تضرب به كثرة الاجانب فيه .. فإن حمية بعض الوطنيين من أعضائه كانت تحبس بعض الأغراض السياسية في نفوس أربابها ، فإن بدت وجدت من المقاومة ما يبدها ، وكانت القرارات تصدر جميعاً في مصلحة البلاد ، وما يجب أن يتبع في سير التعليم فيها ..

وقلما كان يخلو عدد من أعداد الجريدة الرسمية العربية من فصل في انتقاد عمل من الأعمال العمومية ، أو طلب إصلاح عادة من العادات الرديئة ، أو الأخذ بفضيلة من الفضائل التي بنى عليها العمران ، وكانت تخاطب العامة بلسان الحكومة وتخاطب الحكومة بلسان العامة .. لهذا كان لرأيها من الأثر في الانفس ما لم يكن لرأي غيرها من الجرائد ..

ومن يطلع على آداب تلك الجريدة يجد من نفسه هذا الأثر حتى اليوم، وما كان المقال لاظهار براعة أو الافتخار بمعرفة ، بل كان يكتب ما يكتب انتظارا لأثره في الانفس لاغير ، وما كان الأثر يتخلف عنه ..

بهذا ، وبما سبقه ، تنبهت الافكار .. وبدأت الحياة الاجتماعية تدب في جسم أمة مزقتها الظلم وأماتها الجور ، وانبعثت النفوس تطلب ما شعرت به من حاجاتها ، فتألفت بعض الجمعيات الخيرية ، اسلامية وقبطية ، لمساعدة الفقراء بالمعونة المادية وأولادهم بالتربية ، ولم يكن يسمع بمثل ذلك في مصر من قبل ..

#### دار الكتب العربية ودار العلوم

وقد اتجه عزم وزارة الأوقاف الى الأخذ بوسيلة من أجل وسائل الإصلاح ، وهى تقريب الكتبخانة العربية ومدرسة دار العلوم من الجامع الأزهر ، وتوسيع نطاق المدرسة الى أن يمكن احتواؤها على خمسمائة تلميذ ، وأن يرتب التدريس على طريقة تؤدي الى تكثير الاساتذة المهذبن لكل نوع من أنواع المعارف اللازم تعميمها في الأمة ، ولكل طبقة من طبقات المدارس ، بل الى اعداد عدد كبير من أهل الذكاء لادارة كثير من الأعمال الادارية والقضائية في البلاد . وقد قدرت فوائد هذا المشروع في سنين بما يعظم مقداره ويتجاوز حد ما يتصوره المهاترون في هذه الأوقاف ..

وبهذا كان يتسنى لنظارة الأوقاف أن تقدم للأمة المصرية خدمة لاحقة بذاتها بدلا من صرف تقودها بين الماء والطين ، وبناء معابد قلما يوجد فيها من المصلين أحد ، بل بهذا كانت تقيم الهياكل الالهية في قلوب المؤمنين وتزيد في عدد المصلين الحقيقيين ، فان ضاقت بهم المساجد وجدوا بأنفسهم الوسائل لتوسيعها ، واقامة ما تدعو اليه الحاجة منها ، وكانت توجه نظارة الأوقاف الى هذا المشروع بناء على ما عرضه رئيس تحرير الجريدة الرسمية أيضا ..

### اصلاح نظام العسكرية

وقد وجهت الحكومة عزمها لاصلاح نظام العسكرية ، فبعد أن قررت مدة الاقامة في الخدمة العسكرية بخمس سنين ورجوع العسكى الى أهله بعد ذلك تحت الاحتياط مدة ست سنين ، ثم محو اسمه بعدها من دفاتر العسكرية .. رأت أن الضباط الكبار منهم لا يمكن أن يكونوا من العساكر المقترع عليهم ، لأن المدة المقررة للخدمة لا تكفى في أن يصل العسكى الساذج الخالى من المعارف العسكرية الى درجة تؤهله لأن يكون ضابطا ، فلا بد أن يحصر تعيين الضباط فيمن ينال المعارف العسكرية بالتحصيل في المدارس الحربية لا غير وهو رأى معقول ، لا يخطئ مصلحة البلاد ..



## حكومة توفيق

كانت حكومة الخديو توفيق موجهة في أوائل عهدها الى ما فيه الخير لمصر وأهلها ، ولم تكن قائمة على الاثرة أو الاستبداد بالسلطة ، وقضاء شهوة الحاكمين وأعوانهم ، وكان توفيق عفيفا لين الجانب يميل للتجيب الى الرعية ، وتعرف أحوالها بالسياحة في المدن والعواصم المصرية .. وكان بعيدا عن الاسراف ، وقد اكتفى بزوجة واحدة ، وترفع عن ارتكاب ما كان يرتكبه غيره (١) من الأمور الفاضحة ، فاجتمع له في نفوس الرعية المهابة والمحبة ، وهما أقوى سند للحاكم ، وأشد ركن يعتمد عليه ، وهما الصفتان اللتان يبنى عليهما الملك والسلطان .. والسعيد كل السعادة من الحاكمين من هيا له القدر أن يكون في حكمه مهيبا محبوبا ..

وكان في ذلك الحين متفقا مع أعضاء حكومته ، وسائر كبار الموظفين على ما يخفف عن الرعية أثقالها ويرقى عقولها ، ويحسن أحوالها ، ويهذب آدابها ، ويفتح أبواب السعادة لها في المستقبل . وكان حريصا على تمسكه بولايته ، وتقوية سلطانه ، وقد رفع ذلك قدره أيضا في نظر الاجانب ..

وقد تناسى الناس في ذلك الوقت ما أتاه بعد توليه العرش من النفي بغير محاكمة ولا تحقيق ، ومسارعتة في تعيين المراقبين الاجانب ، واعطائهم الحقوق الواسعة ، حتى كادت تندمل تلك الجراح بالقاء تبعه تلك الاخطاء على غيره ..

وقد وفق الى وزارة كان رئيسها ومعظم وزرائها من خيرة الرجال ومن

---

(١) يريد والده الخديو اسماعيل ، وما كان يأتيه في عهده من الاسراف واللاثم

أحسنهم أخلاقاً . ولم يكن لأكثرهم غرض سيئ أو شهوة في الاستبداد بالأمر ، ووضع من دونه تحت قهره وسلطانه ، واستعباد الرغائب والارادات لرغبته وارادته ، وجمع ما تيسر له جمعه مدة استعلائه على كرسي الوزارة (١)

وقد كان لهذه السيرة تأثير حسن وقتئذ في نشاط العقول ، وحفز الهمم ، والاحساس بالأمل في أن يكون بمصر من قوة الارادة وتقاذ البصيرة ما يمكن المصريين من حفظ ما بقي لهم ، واسترداد ما ذهب منهم على مدى الزمان ..

وقد قنع العقلاء من طلاب الحرية العارفين بحاجات البلاد الناهضين بقدر استطاعتهم الى بلوغها أقصى أمانها ، مع تفوذ البصيرة في شئونها — رضى هؤلاء بما شهدوا من أعمال الحكومة وانضموا في العمل اليها وقبلوا ما كان في جسم الحكومة من العلل ، اختياراً لأخف الضررين ، وخضوعاً لحكم الضرورة مع قوة الأمل في الشفاء . وقد سطع ضياء الآمال على وجه كل أحد حتى الساخطين على الوزارة ، اذ أحس هؤلاء الساخطون بشيء جديد من القوة ، وأن مطالبهم — على ما فيها من الطيش — سهلة التحقيق

وكان أهل الاصابة في الرأي يتمنون لو استمرت سيرة الحكومة في ذلك عشر سنين على الأقل ، فيأخذ الشعور بمنافع البلاد مكانه ، ويستوى سلطان الارادة السليمة على عرشه ، وترسخ الملكات الحسنة في نفوس المستبدين .. وكانت زعازع الاستبداد تحيد بهم عما أعده لهم الكرم الالهى . وتعود الى النفوس سكنتها بعد ذلك الاضطراب الشديد، وعند ذلك كان يتهاى لأهالى البلاد أن ينزعوا الى نظام أكمل مما أعطى لهم ، وأن يطلبوا سبيلاً الى تخفيف شيء مما كان لايزال يثقل عليهم .. ولكن .. واأسفاه .. حال بلوغ تلك الأمانى أمور — منها : ما كان منشؤه رياض باشا نفسه وبعض النظار — ومنها : ما له علاقة بالخديو

(١) كان اسم الوزارة والنظارة اسمين مترادفين في ذلك العهد

توفيق ، ومنها : ما سببه امتداد السلطة الاجنبية الجديدة — ومنها : نهوض الساخطين لاستعمال ما وجدوا في ذلك من الوسائل لاثارة الفتنة لقلب وزارة رياض باشا ..

### صفات رياض باشا

رياض باشا خير رئيس من طبقته (١) من المصريين بلا نزاع ، والمنازع في ذلك مكابر ، وفيه من محامد الصفات ما لا ينكره العدو المنصف ، ولكن يصحب هذه المزايا ما قد يؤاخذ عليه ..

رياض باشا ذكى بالفطرة ، وقد اكتسب بالتجربة في الاعمال الادارية ما لم يكتسبه سواه ، ولكن معارفه جزئيات متفرقة يعوزها كلى يرجع اليه ، ولم يكن لديه علوم كلية ترد اليه الجزئيات ، فقد كان يقيس الجزئى على مثله وربما لا يكون بينهما جامع الشبه تماما ، فيقع في الخطأ في رياض باشا همة وقوة وعزم لا تنكر ، ولكن قلما يحوط ذلك بالحزم وبعد النظر في العواقب ليتجنب ما يكره منها ..

صادق النية ، مخلص السريرة في خدمة البلاد .. ولكن لا يبالي في تأدية ما يراه واجبا عليه ، بما يجرح القلوب ويؤلم النفوس ، ويظن أن من الواجب على كل أحد أن يعلم حسن نيته وان لم يبينها هو ، وأن يرضى بعمله ، وان لم تظهر الغاية الصالحة منه ..

له نشاط في العمل ، لا يصحبه كلال ولا ملل ، ولكن تأخذ الجزئيات من زمنه بعض نصيب الكليات ..

في رياض باشا ميزة التفويض للعامل في عمله ، ومنحه كمال الحرية فيه اذا وثق به ، ولكن ليس عنده قاعدة يبنى عليها ثقته .. فتارة يشق بالاذكاء العارفين وبالصادقين ، وتارة بأضدادهم ..

اذا غضب على أحد مزج في غضبه بين احساسه الخاص ، وما يتعلق بالعمل العام .. فيسقط المفضوب عليه من نظره ، وان كان فيه من

(١) كان الشيخ محمد مبدع صديقا لرياض باشا . وكان يقدره لامعاليه الوطنية في اوائل وزارته

الفضيلة ما يعترف به العالم أجمع ، ويفوته الانتفاع منه ، ولهذا يحترم أحيانا من لا يستحق الاحترام ، ويحتقر من يستحق الاكرام ، ويذم المتعصبين للأوهام ويجل الكثير من أفرادهم ..

\*\*\*

يجب المصرين جملة ، وليس في طبقة من يحبهم مثله .. ولكنه يجب أن يراهم في أعلى درجات الكمال المنتظر ، فينادى عليهم بالويل ويرميهم بالنقيصة لأنهم لم يستطيعوا أن يتجردوا مما ألصقته بهم الأيام الظالمة ، وقد أعجزه هو نفسه التجرد من ذلك والخروج عنه - وهو يشبه الأب الشديد الحرص على اعلاء منزلة أبنائه الذي لم يسلك مسلك اللين في تربيتهم وهو أهدي المسالك وأقربها ..

نظيف القلب بعيد عن المكر والحيلة .. اذا مال الى شيء أو نفر منه ظهر ذلك في قوله وأسرة وجهه وحركات أطرافه ، فتراه يميل الى اخفاء سره ، وطهارة نفسه لتكون الغالبة في اظهاره .. يهاب ذوى النفوذ ، ولكنه كان يجد السبيل لمقاومة بعضهم اذا وجد من يسانده في ذلك ، وهو أمثل طبقة في ذلك ..

جرىء مقدم في الأعمال .. كان لا شيء يخيفه ، فاذا عرض له ما لم يستطع تذليله رجع الى أقصى ما يمكنه أن يبلغه من الاحتراس فينقطع العمل ..

لم يكن يخالج فكره ريبة في خلود المصرين الى الطاعة في كل ما يؤمرون به حملا لهم على سالف عهدهم ، فكان في غاية الطمأنينة من ناحيتهم ، فلم ير أنه يجب أن ينظر فيما عساه أن يشيروه من جهة المقابلة في تنفيذ السلطة ، أو من ناحية الساخطين عليه من الوطنيين والاجانب ..

عثمان رفقى باشا

كان ناظرا للجهادية ، وكان رجلا ساذجا محدود الادراك (١) ، بعيدا

(١) مدح الامام رياض باشا واهضاء وزارته واستثنى عثمان رفقى باشا الذي كانت صفاته واعماله من اهم اسباب الثورة العربية

عن التبصر في العواقب ، لم يكن يهمل بعد قبض راتبه الشهري سوى أن يرضى ميله ، ويروى ظمأه الى حصر السلطة العسكرية في بني جلدته من الجراكسة ، وتجريد من ساء حظهم بالولادة في مصر منها ، مع معاملتهم بالاحتقار ، وكان يطيع في ذلك تلك العصية المقوتة التي كان عليها بعض الغفل من الجراكسة المقيمين في مصر ، كأن مصر وأهلها جنوا عليهم جناية مست آباءهم أو تعقت أديبارهم ، أو كان أهل مصر سلبوهم شيئاً مما كانوا يملكونه ، أو منعوهم حقاً كانوا أهلاً لأن ينالوه ..

### ماخذ رياض باشا

بعد ما تبين من سيرة رياض باشا وصفاته ، وهذا البعض من نظاره ، يمكن أن نحدثك عن نتائجها ، وما يؤخذ على رياض باشا في أعماله :

١ - لا شك ان ابطال رياض باشا للسخرية كان عدالة لا تنكر ، ولكنه أحنق عليه جميع الوجهاء الذين كانوا يستغلون أبدان الرعية وأموالهم ، ولم يكن ذلك ضاراً لولا ما صحبه من استغلاله على هؤلاء الوجهاء وتعريضه بسوء ماضيهم ، حتى رأوا أنه ينبغي لهم التخلص مما يمس كرامتهم ، فآلفوا لمقاومته جمعية تسمى « جمعية حلوان » (١) كان فيها « م . ش . باشا » و « ح . ش . باشا » و « ع . ل . باشا » وغيرهم ..

فلما خاب سعيهم ، تربصوا به الدوائر ، وكان قد اشتد على بعض الجرائد .. فألغاهم لأسباب لم تكن قوية ، فمنح بذلك خصومه آلة تهيج الآراء لمقاومته ، فذهب « أديب اسحق » أحد محرري تلك الجرائد المملوغة الى أوروبا ، وأنشأ جريدة سماها « القاهرة » ، لم يكن لها موضوع سوى رمى رياض باشا بالاستبداد والظلم والرغبة في بيع البلاد الى

(١) حرلت هذه الجمعية بالحزب الوطني فيما بعد، وقد نشرت في ١٠ نوفمبر سنة ١٨٧٩ م بياناً سياسياً انتقدت فيه سياسة رياض باشا ومن بين أعضائها محمد شريف باشا ، وحسن شريفي باشا ، وعمر لطفى باشا ، واسماعيل رافع باشا ...



الاجانب حتى كانت تسميه ( رياضستون ) وكان ينفق على تلك الجريدة الخديو الاسبق ( اسماعيل ) وأعضاء هذه الجمعية . وكان الكثير من الساخطين يتلذذون بتلاوتها كما يتلذذ المريض بحكاية علقته ووسائل شفائه

٢ - زاد خنق أكثر الاغنياء عليه بزيادة مائة وخمسين ألف جنيه في أموال الأتليان العشورية ، وهو لم يبين الضرورة الداعية اليها ليتضح عذره ، فاتهز الفرصة نوبار باشا وألب كثيرا من الاعيان للمظاهرة بالشكوى من الظلم والاستبداد الذى يحل بهم ، وقد كثرت الاجتماعات لذلك ونفى « حسن موسى العقاد » بتهمة انه كان سببا في اثاره المتظلمين وبارح نوبار باشا مصر بتنبيه يقال انه صدر اليه ، ولكن جرح الاغنياء لم يبرأ ألمه بذلك

٣ - وثق بمن لم يكن أهلا للثقة من المديرين ، فأساءوا الى وجهاء البلاد .. ولم يكن يسمع الشكوى فيهم لاعتقاده أن أولئك الوجهاء هم أصل شقاء البلاد . وهذا صحيح فى الاغلب ، ولكن ليس من الحزم جعله عاما . ولهذا وقر فى نفوس الاعيان ان رياض باشا عدوهم الاكبر الذى يريد اسقاطهم واقامة من دونهم مقامهم ..

٤ - اهتم بتقرير الأمن كمادته فى كل وزاراته كأن البلاد فى حرب دائمة ، وأعطى المديرين فى ذلك سلطة أساءوا فى استعمالها فأخذوا بالظن ، ونالوا من كثير بالشبه ، فأزعج بذلك نفوس الباقين فخافوا أن يصيبهم ما أصاب غيرهم بغير حق ولا عدل

واذا صوبنا النظر الى ما دون المرتبة العليا من مراتب الانسانية ، وهى المرتبة التى يصل فيها الى منازل الملائكة فى كمال الصفات وأخذنا الانسان من وجهة البشرية ، رأينا أن المنافع العامة مهما عظم مقدارها ، وعم أثرها ، لا تصرف الشخص عن نفسه ، ولا تنسيه منفعه ومضاره الخاصة به .. فما الظن بقوم تنقصهم التربية وتعوزهم البصيرة ، وقد شعروا بشيء من القوة لا يدرون كيف يستعملونه . فمن مسه ظلم

المأمورين ولم تسمع شكواه - ومن يترقب أن يؤخذ بما أخذ به غيره  
 بغير محاكمة عادلة ، ومن نكبه شبهة مخيلة لا حقيقة لها - ومن يخاف  
 أن يتمثل في خيال حاكم جاهل بصورة لا تعجبه فينال ما نال صاحبه ..  
 كل أولئك وان كانوا لا ينكرون فضل الحكومة فيما أتته من الإصلاح ،  
 كانوا يطلبون تغيير هذه الحال بما هو أدعى للسكينة والاطمئنان وتوفير  
 المنافع . وأنزه الناس غرضا ، كان يؤمل أن رياض باشا ينتبه الى ذلك  
 من نفسه بما تكشفه التجربة في زمن قصير أو طويل .. أما الضجرون  
 ومن لا تبلغ المصالح العامة من نفوسهم مبلغ أدنى مصالح الخاصة فضلا  
 عن أقصاها ، فقد كانوا يتمنون سقوط وزارة رياض باشا من ساعة  
 الى أخرى ، ولا يكفون عن الطعن فيها والتنديد بها بكل ما استطاعوا  
 تلك الرغبة كأنها قد وجدت من حسن نية الحاكم عوضا عن اشتراك  
 اسماعيل باشا والايام الاولى من حكومة الخديو توفيق - تلك النزعة  
 الى تأسيس الحكومة على قاعدة الشورى ومنح بعض منتخبين من  
 الاهلين حق المشاركة في كليات أعمال الحكومة في القضايا العامة ، وفترت  
 تلك الرغبة كأنها قد وجدت من حسن نية الحاكم عوضا عن اشتراك  
 الرعية في الحكم .. لكن تلك النزعة انبعثت مرة أخرى بعد مدة من  
 الزمان لهذه الاسباب التي سبق ذكرها ولأسباب سنذكرها ، فرجع  
 التحدث بين الناس الى ما كان عليه ، وأخذ الناس يقولون لا صلاح في  
 الاستبداد بالرأى وان خلصت النيات ، فرأى واحد عرضة للخطأ وان  
 تحققت نزاهته من الغرض

رياض باشا لم يكن يعرف ان في البلاد من يطلب هذا الأمر طلبا  
 صحيحا ، لأنه لم يختبر الناس ولم يصغ حق الاصغاء الى ما كان يدور  
 بينهم . وكان يعتقد أن في مجلس الشورى تعويقا عن الإصلاح المطلوب ،  
 لأن أعضائه تعوزهم الخبرة بالأحوال السياسية والادارية .. فلا ينتظر  
 منهم الا المعارضات واطالة البحث في أمور تجب فيها السرعة . وكان  
 يوافقه في هذا الرأي كثير من العقلاء ، ويتمنون مع ذلك أن يبدأ بشفاء

هذا الغليل بعد حل المشاكل المالية ووضع قانون التصفية وتأليف لجنة المراقبة الثنائية .. وحل أهم المسائل السياسية ، اذ لم يبق بعد ذلك الا الشئون الداخلية والقضائية ، وكان يمكن تخويل المجلس بعض الحقوق التى منحها الأمر العالى من قبل والتوسع فيها بعد ذلك بالتدريج ، وقد خاطبه بعض الوجهاء بذلك فرفض رفضا باتا . فكان ذلك مما زاد الحالة سوءا . ولو انه أجاب بالرفق ، ووضع المسألة موضع البحث ، وطاول فى بثها سنين - لكان قد أرسل الآمال تسرح فى فسحة من النظرة ، ولم يكن قد دعاها بالشدة الى الانضمام الى من يؤلب عليه ، ويثير الأحقاد حواله

### توفيق باشا والثورة

بعد امضاء قانون التصفية ، واطمئنان الحكومة من ناحية الاوربيين ومشاكلهم ، وجد الخديو فراغا من الزمن يمكن أن يسمع فيه أو يلاحظ ماله مساس بسلطته التى كان يمكن أن يحافظ عليها ، من جهة انه خديو وحاكم أعلى فى مصر . ولكن أضعفتها أمور منها :

١ - لين عريكة الخديو توفيق ، ورعايته لجانب والده ، بعثاه على ابقاء الكثير ممن كانوا فى خدمته فى معيته السنية . وأغلبهم كانوا ممن لا يقيمون لمصالح الرعية وزنا ، ولم تألف قلوبهم الرحمة والشفقة على الأهالى ، ولهم مطامع لا تهدأ بعد ما ذاقوا من لذائذها الماضية ما ذاقوا هؤلاء يعز عليهم أن يروا السخرة الشخصية قد أبطلت ، والسلطة الادارية قد قيدت ، وتحول مجراها عن رجال المعية الى ناحية النظارات .. ولم يبق لهم التصرف المطلق فى الاعمال والمصالح كما كان لهم من قبل ، بل أحسوا بأن من الأحكام العمومية ما يجرى عليهم كما يجرى على أفراد الاهالى ، وهذه غضاضة فى نفوسهم لا يسهل عليهم الصبر عليها .. فوجدوا من ذلك على رياض باشا ظنا منهم انه هو السالب لتلك الحقوق المكتسبة

٢ — ميل الخديو توفيق الى أن يكون محبوبا من رعيته ، كان يعثه على افاضة الاحسان بالرتب والنياشين على من يراهم أهلا لولائه أو على الوعد باجابة بعض المطالب المعروضة عليه من ذوى وجاهة أو من متوشحين بوشاح ضرورة ، وقد كان عهده بالسلطة الخديوية أن لا تعارض فى مجراها خصوصا اذا كانت متجهة الى ما لا ضرر فيه بالرعية حسب اعتقاده ولا يمس مصالح الأجانب .. لكن رياض باشا كان يجد فى كثير من ذلك موزعا للمعارضة ، وهو مع خلوص نيته فى خدمة الخديويين لا يستطيع اخفاء ما فى نفسه من غيظ أو ضجر مما لا يراه حسنا ، فكان يظهر فى أقواله ما ربما يخدش نفس الخديو ، وقد كان يأتى فى بعض مقاله ما يشير الى التهديد بالأجانب ووكلائهم ، كما أخبرنى به الصادق فى روايته

ورأى الرابضون حول الأريكة الخديوية علامات الانفعال تظهر مرة بعد أخرى على وجه الخديو ، ففتح لهم بذلك بابا يلجونه لشفاء ما فى نفوسهم ، فأخذوا يستنزلون الخديو الى بث ما فى نفسه فيفيض بما كان يجده وهم يفيضون فى شرح الأقوال وتوسيع دائرة المقصود منها وتحميلها ما لا تحتمله ، كأنهم مشايخ معممون ، يلقون دروسا على طلبية فى الأزهر ، والخديو يسمع منهم ويستريح الى ما يقولون ، وقد انتهى به نفسه ويمضى بها وقته ، وكان غيظه يزداد على رياض باشا كلما بدت أثناء خطابه وهياة جلوسه وما يرى فى مشيته من دلائل الخيلاء فى زعمهم وما شابه ذلك

كان توفيق باشا يجد فى ذلك نزهة لخاطره ، ونوعا من التسلية تسر به الأمر الى انه كان يسمح لبعضهم بتقليد رياض باشا فى كلامه وحركاته منه معارضة فى أمر صغير أو كبير بما كان يصوره أولئك المتملقون .. وكلما رأى رياض باشا علائم الانفعال ، اشتد ضجره ، وكلما اشتد ضجره وظهر فى قوله أو فعله .. التهب غضب الخديو عليه ، وان لم يكن يظهره له حتى انتهى الأمر فى أقل من سنة بعد امضاء قانون التصفية الى

أن الخديو توفيق لم تكن له أمنية الا عزل رياض باشا .. لكنه كان يظن أن قناصل الدول ، خصوصا قنصلى فرنسا وانجلترا يعارضان فى عزله لو أرادوه ، فأخذ يلتبس الوسائل لفصله من وجه يحمل الدول على الرضا به بدون معارضة ، فاستلفت بعض من حوله نظر جنابه الى الحادثة القريبة العهد التى كانت سببا فى عزل نوبار باشا من رئاسة الوزارة أيام الخديو اسماعيل فرآها أنجح الوسائل

**اثارة الخديو للضباط**

أخذ الخديو توفيق من ذلك العهد يقرب منه أمير الالاي الاول الذى كان يحرس السراى وهو « على بك فهمى » ويستدعيه الى مجالسه الخاصة ويمارحه ويزج به فى الحديث على اختلاف شئونه ، ويظهر له أمانيه فى الاحسان عليه ، وعدم وجود السبيل الى ذلك ، حتى قال له مرة : « انى أردت الانعام عليك بألف جنيه ، ولم يمكن ذلك لمعارضة رياض باشا » ومرة قال : « انى أردت الاحسان عليك برتبة اللواء فلم يقبل رياض باشا » وأمثال ذلك ، حتى اعتقد على بك فهمى ان الخديو توفيق ساخط على رئيس نظاره ، وان رئيس نظاره عدو منفعة ومنفعة اخوانه .. وعلى المؤلف عندنا لم يخف شيء من ذلك عن بقية الضباط الكبار ، بل ولا على كثير من الخاصة ومن يحبون الوقوف على حقائق ما كان يجرى حولهم

### **وزير الجهادية « الحرية »**

كل هذا وعثمان رفقى باشا يشتد فى معاملة الضباط الذين جنى عليهم آباؤهم بولادتهم فى مصر ، ويهيبء المشروعات لراحة القوة العسكرية منهم .. فماذا كان يدور من الحديث بين على فهمى واخوانه الضباط الفلاحين ؟ .. وماذا يتصورونه فى منزلة رياض باشا من الخديو ، وماذا يتخلوناه فى ميل جنابه الى فصله ، وماذا جسسته أوهاهم من معاداة رياض باشا للضباط ، حتى اقتنعوا بأن كل ما يقع من عثمان رفقى فانما هو من رئيس النظار ؟ .. ولينظر ماذا يهجون به من وسائل التخلص

من رياض باشا ورققى باشا معا ، على ظن أنهم لو فعلوا شيئا من ذلك ..  
فانما يفعلون ما يرضى خديويهم ، ثم تأمل فى الاعاليل التى يمكن أن  
يتخذوها حجة على أن ما يعملونه فى هذا السبيل موافق للصواب آت  
على وفاق الشرع

### نفوذ الأجانب

كان نفوذ الأجانب سببا من أسباب الثورة العرابية ، فان ضباط  
الجيش المصريين وغيرهم لما استراحوا من بعض المظالم .. انفسحت  
آمالهم فى استكمال الشفاء مما بقى من علل والتنبه لها وزيادة التألم  
منها ، كالمريض يشعر بالألم بقدر الأمل فى الشفاء ، وبهذا التنبه ظهر  
لهم : أن قانون التصفية وضعه الأجانب لمصلحة الأجانب ، وانه حرم  
البلاد حريتها ، وان الأجانب يتقاضون رواتب باهظة من الخزينة فى ادارة  
المراقبة العمومية وصندوق الدين والدومين والدوائر السنية وسائر  
المصالح التى ولفوا فيها مع ادعاء فقر الخزينة والبلاد ، وانهم هم أصحاب  
الكلمة النافذة فى الادارة والمالية ، وهم يعملون لمصالحهم لا لمصالح  
البلاد

فالحكومة الخديوية أصبحت تابعة لحكومات أخرى لا تهتم بسعادتها  
ولا شقائها الا من وجه ما تبقى قادرة على تأدية ديون رعاياها وتقديم  
الرواتب الوافرة الى المندوبين من قبلها .. ففسوة الأجانب المرايين  
وسيرة المحكمين منهم مما أوقع فى خواطر الملمين بذلك ان حقيقة الظلم  
واحدة ، وانما طورها الجديد أرسخ أساسا وأضبط نظاما ، وأظهر  
استعدادا للخلود فلا مخيض عنه ، فلو استطال سلطانه وامتد من دائرة  
الى أخرى آل الأمر الى وقوع البلاد فى شدة منظمة وضيق محكم  
الحلقات

وقال الامام :

— ان ما كان يقوله الساخطون على رياض باشا وما ينشرونه فى الجرائد

التي تطبع في أوروبا ، وما ظهر من المنشورات والرسائل الدالة على أن  
الحزب الوطني يرى ما قررته لجنة التصفية وما أشار به المراقبون لا  
ينطبق على رغبته وأمانه للبلاد .. كل ذلك كان يهيء الفرص للناقمين  
على رياض ، حتى ان الاجانب لم يكونوا راضين عنه لأن ربحهم في البلاد  
قل بحسن سيرته . وقد حصل نزاع بينه وبين البارون درنج قنصل فرنسا  
الجنرال بشأن قانون المحاكم المختلطة ، اذ كان الباشا يريد تخفيف  
امتيازات الاجانب فيه ، والبارون يأبى ذلك .. فأخذ يسمى في ايجاد  
الطرق لعزل رياض باشا

### تألب الضباط

رفع بعض الضباط عريضة الى وزارة محمد شريف باشا التي سبقت  
وزارة رياض باشا ، يلتمسون بها عزل ناظر الجهادية تمللا برداء الطعام  
وعدم النظر في أحوال المستودعين وأرباب المعاشات .. فلم يهتم ناظر  
الجهادية بالبحث في ذلك ولا في أسبابه ، ولم يسع لتفريق من جمعتهم  
تلك النزعة ، ولم يسلك مسلك رئيس النظار في المصالح التي تولاهما بأن  
يحمل العسكر على الأخذ بالأعمال العسكرية وتعاليمها ، ولم يلزم  
الضباط احياء الآداب العسكرية واعادة النظام السليم اليها ، بل اشتغل  
بتقريب زيد والتحامل على عمرو وزيادة التفرقة بين المصرى والجركسى ،  
وترك كبار الضباط هملا بغير عمل

ولما جاء وقت وضع الميزانية ، وعزمت الحكومة على تنقيص الجيش  
في أواخر سنة ١٨٨٠ الميلادية وحصر ترقى الضباط في المتعلمين بالمدارس  
الحرية .. اضطربت أنفس الضباط المصريين ، واعتقدوا لسوء ظنهم  
بالوزارة أن هذا النظام انما وجد لقضاء شهوة ناظر الجهادية فاجتمعوا  
للتشاور في أمرهم

## عبد العال وعلى فهمى

وبينما هم كذلك ، أحال عثمان رفقى باشا عبد العال (١) على الاستيداع ، وأقام أحمد عرابى مقامه . واتفق أن انصرف الخديو عن على بك فهمى أمير الالاي الاول ، وأبدى رغبته فى نزع سلطته عن « بلك » الموسيقى الخديوية وفرقة المراسلة .. وهو يعلم من سخطه على رياض باشا ما يعلم ، ويعتقد أن سلطته لا تنهض بالتخلص منه .. فخاف أن يحل به ما حل بعبد العال وأن يبدل بجركسى ، فانضم الى من أصابهم الظلم وكشف لهم حال الحاكم والحكومة كما سمع وعلم من الخديو نفسه

## أحمد عرابى بيك (٢)

وقد كان أحمد عرابى بك ( وقتئذ ) ينظر الى رؤسائه من الجراكسة نظر العدو الى عدوه ، وكان يحتقرهم فى نفسه لاغتقاده أنهم دونه فى المعرفة ، ويرى انه أحق منهم بالرتب العالية التى كانوا يتمتعون برواتبها وبنفاذ الكلمة فيها ، وربما لم يكن مخطئا فى الكثير منهم ، وكان أجراً

(١) عبد العال بك هو الميرالاي على بك حلمى حشيش قائد الالاي طره . وعلى فهمى هو الميرالاي على بك فهمى الديب قائد الالاي الاول « الالاي الحرس الخديوى »

(٢) ولد أحمد عرابى فى ٣١ مارس سنة ١٨٤١ م فى قرية « رزنة » من مديرية الشرقية بالقرب من الزقازيق وكان أبوه شيخ البلد . وهو من عائلة بدوية استوطنت تلك القرية من عهد جده وقد تعلم فى قريته خمس سنوات ، ثم دخل الأزهر فمكث به أربع سنوات ، ثم انتظم فى الجيش المصرى فى سنة ١٨٥٤ م . ولذا كانه وتعلمه ترقى فى الجيش الى أن صار وزيراً وقائداً للثورة وقد زاد من بغفه للجراكسة بالجيش اضطهادهم للضباط المصريين . وقد حدث فى عهد الخديو اسماعيل أن وقعت بينه وبين اللواء خسرو باشا الجركسى مشادة أدت الى تقديمه الى مجلس عسكرى والحكم عليه بالسجن ٢١ يوماً فاستأنف الحكم امام المجلس الاعلى للجيش ، فقتضى بإلغاء الحكم الابتدائى فحدث خلاف بين وزير الجهادية الشركسى واسماعيل سليم باشا ورئيس المجلس الاعلى على باشا سرى لان الوزير كان يرغب فى تأييد الحكم الابتدائى فسعى لدى الخديو اسماعيل فى فصله من الجيش ، فتم له ما أراد . وقد اورثته هذه الحادثة بغضا شديداً للشراكسة . وقد ظل مفصولاً بلا مرتبة مدة ثلاث سنين ، ثم سعى له بعض المقربين للخديو اسماعيل فأعادته برتبته العسكرية ، فواصلت فى نفسه روح الكراهية لرؤساء الجيش من الجراكسة والترك الذين كانوا سبباً فى تأخير ترقية الضباط المصريين ومنهم عرابى فقد ظل برتبة قائم مقام سبعة عشر عاماً . وهذا الاضطهاد كان من اسباب الثورة



اخوانه على القول وأقدرهم على اقامة الحجة ، فلما شرعت نظارة  
الجهادية في عملها الجديد ، وبدأت باستيداع عبد العال .. غلب على ظنه  
أن ما يصل الى عبد العال اليوم يصل اليه غدا ، فيحرم مما يرى نفسه  
أحق بالتمتع به ، ووجد هو واخوانه فيما كشفه على فهمي من النفرة بين  
الخديو ورياض باشا سيلا للجرأة على مقاومة تلك المشروعات ، ففزع  
الى رئيس النظار وشكا اليه ما أصاب عبد العال .. فقبلت شكواه بعد  
تردد استمر مدة أيام وأبقى كل في وظيفته

### أحمد بك عبد الغفار

كان قائمقام سواري ( فرسان ) وكان بينه وبين ناظر الجهادية منافرة  
لأمور أهمها ، تقاربهما في درجة الفهم وتزاحمهما على هنة واحدة ، فكان  
كل يطلب الخلاص من الآخر ولا يجده . وعرف الخديو ما بينهما ، وشكا  
اليه عثمان رفقي تصرف أحمد عبد الغفار معه ، فكان من ثمرات ذلك  
أن الخديو كان يستدعي أحمد عبد الغفار في طريق منزله الجزيرة ،  
ويستوقفه ويحدثه الزمن الطويل مظهرا ميله اليه ، ويسمع شكواه من  
عثمان رفقي ويعدده بقبول شكاياته ورفع الظلم عنه .. وهذا مما كان  
يشجعه على مناوأة رئيسه ويزيد في حقد رئيسه عليه

وبعد أيام ، كان عرابي وبعض شركائه في النقمة من نظارة الجهادية  
في وليمة بيت نجم الدين باشا .. دعاهم اليها اثر قدومه من الحج . وبينما  
هم على المائدة ، قال اسماعيل كامل باشا :

« ان ناظر الجهادية أتى اليوم عملا لا يحمد عليه .. عزل أحمد عبد  
الغفار من قائمقامية السواري وعين بدله « محمد شاكر بك » (١) فلم  
يتم أحمد عرابي عشاءه ، بل انصرف هو ومن كان معه من الضباط الى  
بيته .. وكان فيهم على فهمي وعبد العال ودعوا أحمد عبد الغفار ،

(١) محمد شاكر ضابط شرقي يدعى محمد شاكر طمازه . وقد قال عرابي حين علم بذلك  
الحادث : ان هذه لقمة كبيرة لا يقوى عثمان رفقي على هضمها . وعاد الى داره ساخطا ،  
لوجد كثيرا من الضباط ينتظرونه

وكتبوا تقريراً ضمنوه الشكوى من عزل أحمد عبد الغفار بلا محاكمة على خلاف القانون ، وذكروا أشخاصاً آخرين عزلوا واستبدل بهم شيوخ قانون أوجهة دونهم في المعارف العسكرية ، وعددوا من سيق من الضباط الوطنيين الى السودان ونحو ذلك . وطلبوا احالة القضية على مجلس عسكري ينظر في جميع أطرافها ، فان كل لهم حق منحوه ، وان استحقوا عقوبة قبلوها . وطلبوا عزل ناظر الجهادية لاختلال أعماله وميله عن النظام طاعة ليل خاص

### رياض باشا والضباط

رفعوا نسخة من هذا التقرير الى الخديو ، وأخرى الى رياض باشا ، بامضاء أحمد عرابي وعلى فهمى وعبد العال حلمى بالنيابة عن جميع الضباط المصريين .. فبقى التقرير ١٧ يوماً تحت المداولة بين الخديو ورئيس نظاره ، وكان من رأى رياض باشا أن يجاب طلبهم في تأليف المجلس العسكري ، ولكن الخديو لم يقبل ذلك

شاع هذا الخبر بين الناس على حسب العوائد في مصر .. علم الكثير من الأعيان والعلماء والموظفين بإصرار الضباط على طلب هام في الوزارة ، وأحسوا بخلاف بين الخديو ورئيس نظاره .. فهب عند ذلك جميع الراغبين في تغيير الحال من علماء وأعيان وذوات كرام ومقربين من الخديو ، واتحدت وجهتهم في الغاية وان اختلفت في الدواعي والبواعث.. فطلاب مجلس النواب يؤملون في التغيير أن ينالوا تأليفه ، والمتضجرون من استبداد بعض المأمورين والخائفون من أن يؤخذوا بالشبه .. يرجون بالتبديل كشفاً لكربتهم وأمناً على أنفسهم ، والواجدون من السلطة الاجنبية يرجون شفاء شيء من وجدهم ، والذوات الكرام الطامعون في رجوع سلطتهم على أبدان الرعية وأموالها يطعمون في ارضاء شرمهم والأجانب المرايين يتطلعون الى انقلاب تزيد به الشدة المالية حتى تتسع لهم طرق الكسب الماضية ، وقنصل فرنسا البارون درنج يسعى في

الاتقام من رياض باشا ويجب أن يأتى خلف له يمكنه مجاراته في مطالبه ،  
والجناب الخديو لا يكره أن يتخلى رياض باشا عن رئاسة النظار ، بل  
تلك أمنية من أمانيه ..

فأخذت هذه العوامل جميعها تشتغل لتقوية جانب الضباط وتشجيعهم  
على الالاحاح في الطلب ، وكل من وصل اليهم من أولئك بنفسه أو أمكنه  
أن يبعث اليهم من يعبر عن أفكاره يؤيد لهم عدالة الطلب ، وموافاته  
للرغائب الوطنية ، وان ما يأتية ناظر الحريية لا يمكن الصبر عليه ، ثم  
كانت تأتيمهم الأخبار بأن الخديو توفيق لا يأبى اجابة طلبهم بل يجب أن  
يمكن لهم أميتهم ، وانما رياض باشا هو الذى لا يريد ذلك ، والله أعلم  
من أين كانت تأتيمهم هذه الأخبار مع ان رياض باشا كان يريد تحقيق  
الأمر حسب ما طلبوا في تقريرهم كما قدمنا

زاد هذا كله في جرأة الضباط .. وكلما طالت مدة التردد في حسم  
المسألة ، كثرت الاشاعات وقويت عزائم المحركين وغلب الظن بضعف  
الحكومة ، وقد حصلت عدة مقابلات بين رئيس النظار وبينهم ، قال  
رياض باشا في احداها لعرايى ومن كان معه : « ان ما أودعتموه في  
تقريركم من طلب عزل الناظر ، يعد خروجاً عما حدده لكم القانون ..  
وتلك مهلكة سياسية فقد يخشى أن يعد الاجاب ذلك سبيلا لزيادة  
تدخلهم في الحكومة واشتداد وطأتهم عليها »

وأحسن بذلك البارون درنج ، فأرسل الى أحمد عرابى واخوانه ، يقول  
لهم انه يسره ما يراه من صلابتهم في عزيمتهم واشتدادهم في المطالبة في  
العدل فيهم ، فعليهم أن يثبتوا في مطالبهم بما يهددون به ، فهو بصوت  
حكومة فرنسا يسند المطالب العادلة وليس في الامكان أن حكومة متمدنة  
تقيم الموانع في سبيل الناهضين بطلب حقوقهم ، الساعين في الاتصاف  
لأنفسهم ولأبناء بلادهم

## الثورة العربية

كان الضباط يتوهمون أن رياض باشا مؤيد في منصبه بقناصل الدول ذات النفوذ بمصر ، وقد كان الخديو نفسه يظن ذلك ، فرأوا أن مقاومة وزارته مقاومة للدول ذات النفوذ في مصر ، فلا يتعرض لها الا بوسائل الرفق واللين.. فلما قال قنصل فرنسا (١) الجنرال لعرايى ما قال ، انكشف ذلك الوهم ، وتحول الاتجاه من سؤال الخاضع ، الى الحاح المطالب ، فأخذ أحمد عرابي ، وعبد العال ، وعلى فهمي ، يدعون سائر الضباط للاتفاق معهم على مقاومة كل ما تسنه نظارة الجهادية من نظام ضار بهم ، وطلبوا (٢) عزل ناظرها « عثمان رفقى » مثار تلك المخاوف

علا نداء الضباط بذلك وكثر الاضطراب ، فانعقد مجلس النظار برياسة الخديو للاسراع بحل هذا المشكل وحضره بعض رجال المعية ، فكان من رأى رياض باشا أن يحال تحقيق ما في التقرير على مجلس عسكرى . وكان من رأى ناظر الجهادية « عثمان رفقى » القبض على الضباط الثلاثة زعماء هذه الحركة ، والحكم عليهم بالعقوبة التى استحقوها بجرأتهم هذه ، ووافقه بعض النظار وجميع من حضر من رجال المعية ، وكان الخديو توفيق يؤيد هذا رأى

وقد استمر الجدل ذلك اليوم الى أن جاء وقت الظهر ولم يتقرر شيء ، فقاموا الى المائدة .. وبعد الفراغ من الطعام وقبل الرجوع الى

---

(١) هو البارون درنج السابق ذكره . وقد قال لعرايى : « لقه يسره ما يراه من صلابتهم » الخ  
(٢) طلبوا ذلك في عريضة قدموها عن الضباط العربيين الاميرالات الثلاثة عرابي ، وعبد العال وعلى فهمي الى رياض باشا في ١٧ يناير سنة ١٨٨١ م

المداولة ، جاء أحد رجال المعية « طلعت » باشا ، الى رياض باشا وأسر اليه أن بعض الناس يتهم دولته بـجسارة الضباط والأخذ بناصرهم طمعا في أن يملك قلوبهم ، ثم يستخدمهم في الاستيلاء على الخديوية المصرية ! فلما عادوا الى الجلسة لبث رياض باشا صامتا ، وصارت الأغلبية على رأى الخديو . وعندئذ سأل رياض باشا ناظر الجهادية : « هل تتحمل تبعة هذا الأمر » ؟ قال « نعم » وصدر الأمر بالقبض عليهم ، وسجنهم في ٣١ يناير سنة ١٨٨١ . هذا ما حدثنى به أحد النظار في ذلك الوقت ، ولا أظنه الا صادقا

ولم ينفذ الأمر الخديوى بقوة الحكومة وسطوتها كما جرت به العادة؛ ولكن سلك في تنفيذه طريق الحيلة والغدر

#### أول فبراير سنة ١٨٨١

فقد كتب ناظر الجهادية الى الضباط الثلاثة يدعوهم الى ديوان الجهادية للمذاكرة في ترتيب حفلة زفاف الأميرة جميلة شقيقة الجنب الخديوى ، أول يوم من شهر ربيع الأول سنة ١٢٩٨ هـ « الموافق أول فبراير سنة ١٨٨١ م » وهو اليوم التالى ليوم صدور الأمر بحبسهم — فلما وصلت اليهم الدعوة دهشوا لأن موضوعها لا يحتاج الى مداولة ثلاثة من أمراء الالايات ، ولم يكن مثله بمعتاد ، ففطنوا للحيلة في تلك الدعوة في ذلك التاريخ .. فدعوا من يثقون بهم من الضباط وأطلعوهم على ورقة الدعوة ، فاقتنع الجميع بأن خطرا سيحل بالثلاثة ، ثم بكل من يشايعهم ، أو بكل ضابط مصرى على ما رجح عندهم ، فحملهم الحرس على حياتهم ووظائفهم وأقدم بهم علمهم بضعف الحكومة عن الانتقام منهم ، لاضطراب أحوالها ، وما كان بها من اختلاف عناصرها ، وما كانوا يتخيلونه من رضاء الكافة عما يفعلون .. أقدم بهم ذلك على أن يقاوموا الشر المنتظر بالقوة اذا اقتضت الحال ، غير مبالين بعاقبة ، وكان

فى الضباط الحاضرين كل من محمد عبيد (١) بكباشى فى الآلاى الاول -  
آلاى الحرس - وخضر خضر بكباشى فى آلاى السودان ، فأخذوا على  
عهدتهما انقاذ الضباط الثلاثة اذا سقطوا

### حادثة قصر النيل

وذهب الضباط الثلاثة « ظهر أول فبراير سنة ١٨٨١ » الى قصر النيل ،  
يتبعهم عن بعد بعض العيون من جند الآلاى الأول .. فاذا الديوان غاص  
بالضباط وأمراء العسكرية ، فلما وصلوا الى حيث الناظر « عثمان رفقى  
باشا » قلا عليهم الأمر الصادر بسجنهم ، فجردوا من سيوفهم وألقوا فى  
السجن بعد أن قذفهم الحاضرون بالشتائم ، وكان أكثرها وأبلغها فى  
التحقير كلمة « فلاح » فعاد المقتنون لأثرهم ، وأبلغوا ضباط الآلاى  
الاول ما رأوا ، فنهض البكباشى محمد عبيد بالمسكر الذى تحت قيادته  
لانتقادهم ، فاعترضه القائمقام الجركسى خورشيد بك بسمى ، فلم يسمع  
له قولاً (٢) ، وشاهد الخديو حركتهم ، فأمر بروجى الحرس بأن يدعو  
ضباط الحرس الى السراى فدعاهم ، فلم يستجب له أحد ..

وانطلق بهم محمد عبيد الى قصر النيل ، فهجموا على الديوان فيه ،  
فأطار الرعب قلوب الحكام والضباط الموجودين ومعهم الناظر والوكيل  
« افلاطون باشا » ووئب كل منهم من نافذة يطلب الخلاص لنفسه ..  
فمنهم من كسر ومن جرح ، وفتح الجند معتقل الضباط الثلاثة عنوة ،  
فخرجوا ظافرين . وأرسلوا الى ضباط آلاى السودان وكان فى طره  
فحضر حالا ، والى آلاى العباسية وهو آلاى عربى ، وكانوا قد قبلوا  
أميرهم (٣) الجديد الذى خلفه بعد حبسه ، والتمسوا العفو عنهم « من

(١) محمد عبيد هو الذى صار الاميرالاي بطل واقعة التل الكبير التى دافع فيها دفعا  
مجيدا حتى استشهد ، كما انه كان بطل حادثة قصر النيل ، وهو اول من عمل لخلاص الزعماء  
الثلاثة من السجن . وهو من بلدة كفر الزيات بمصر ، ولم يفكر أحد فى تخليد ذكراه . اما  
البكباشى خضر خضر ، فقد لحق بجنده الزعماء عند عابدين ، واشترك فى وقائع الحرب  
(٢) لما امتنع خورشيد محمد عبيد أمر الجنود باعتقاله ، فاعتقلوه بالقشلاق ...  
(٣) كان الآلاى العباسية ، وهو الآلاى أحمد عربى غير مؤازر له فى اول الحركة . وبلا سجن  
عربى وزميله فى قصر النيل ، ولعين خلفاء لهم فى الآياتهم كان الضابط الجركسى محمود بك  
ظاهر قد عين خلفا لعربى فى هذا الآلاى ، فلما ذهب الى العباسية لاستلام منصبه استقبله

الخديو» ثم بلغهم ما حصل فوقعوا في «حيص بيص». وقد خطب عرابي في العسكر والضباط المجتمعين بعابدين ، وأثنى على اخلاصهم في حب أمرائهم ، ثم أمرهم بوضع السلاح وأخذ يكتب الى القناصل ويستعد لمخاطبة سراي عابدين

كان رياض باشا قد بلغه الخبر وهو في نظارة الداخلية ، فجاء الى سراي عابدين وعرابي يرسل شكواه الى البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال ويلتمس منه أن يبلغ جميع القناصل أن الضباط لم يأتوا عملا الا ما يقى أرواحهم ، ويضمن لهم اقامة العدل فيهم ، وأرسل اليه ورقة الدعوة الى ترتيب الزفاف ، وبسط الحيلة التي دبرها ناظر الجهادية للايقاع بهم ، وشرح له ما حصل لهم من سلب السيوف ، والحبس ، على انهم لم يأتوا جريمة سوى أنهم طلبوا عزل ناظر الجهادية ، وهو طلب عادل لسوء تصرفه .. فورد له الجواب من البارون درنج بالثناء (١) على عزيمته وثباته في مطالبه العادلة ، وبشره بأنه لا خوف عليه ما دام الحق في جانبه . فسر عرابي بذلك .. أما باقى القناصل فلم يجيبوه بشيء .. ثم ذكر أن الخديو أرسل الى عرابي يسأله عن سبب هذه الفتنة ، فأجابه بأنه لا يريد الا عزل ناظر الجهادية .. فقبل منه وعرض عليه عدة أشخاص على أن يكون أحدهم خلفا للناظر فلم يقبل أحد الى أن عرض عليه محمود سامي باشا (٢) ناظر الأوقاف فقبله .. فعين في الحال ناظرا

ضباطه بالقبول والاحترام . ولما بلغهم اجتماع الاي الحرس والاي طره بعابدين مع الزعماء الثلاثة ، وعزل عثمان رفقي ، وقمعوا في حيص بيص ، ثم ذهبوا لعرابي ليلا ، واعتدروا لقبيل مدرهم

(١) يقول الاستاذ عبد الرحمن الرافعي ان البارون درنج لم يرسل ردا لخطاب عرابي باشا يشن فيه على عزيمته . ولكنه تدخل لدى الخديو لانصاف الضباط الوطنيين ، وكانت نتيجة هذا التدخل طلب الخديو من رئيس جمهورية فرنسا عزله . واستشهد في ذلك برسالة تضمنت ذلك أرسلها البارون الى وزير خارجية فرنسا ( الثورة العرابية من ٩٩ )

(٢) ولد محمود سامي البارودي في سنة ١٨٤٠ م وتوفي سنة ١٩٠٤ . وقد كان رجلا حرب وسياسة وأدب . وكان عمره حين اشتراك في الثورة العرابية احدى وأربعين سنة . وهو ابن حسني بك حسني من ضباط المدفعية في الجيش المصري . وسمى البارودي نسبة الى ابيائى البارود بمصر التي كانت لاحد أجداده في عهد الالتزام ويدعى مراد البارودي . وقد تخرج من المدرسة الحربية في عهد سعيد سنة ١٨٥٥ م وسافر الى الاستانة ودرس اللغة التركية والفارسية وادابها وعاد الى مصر في اوائل عهد اسماعيل . وقد اشترك في الحرب التركية الروسية سنة ١٨٧٧ م . وكان طموحا وقد تولى رئاسة الوزارة في عهد الثورة العرابية وقال عرابي في مذكراته انه كان بطمع في العرش

للجهادية . فأرسل عرابي يشكر الخديو على ذلك ، وطلب العفو عن العساكر والضباط فيما فعلوا ، فعفا عنهم . وصدر اليه الأمر بأن يصرف العساكر في الحال ، فلم يمثل بل أجاب بأنها تنصرف في صباح الغد .. وبذلك انتهت الحادثة التي كانت تعرف بحادثة قصر النيل ..

### نتائج الحادثة

كان في استطاعة عرابي أن يطلب عزل رياض باشا ، بل يطلب أكثر من ذلك ، لما وصلت اليه الحكومة من ضعف كبير في ذلك الوقت ، ولانحصار القوة بيد عرابي ، ولكنه كان غير مدبر .. فان طلاب التغيير لم تكن لهم ثقة بعرابي ومن معه ، حتى كانوا يقضون اليه بما يريدون ، بل كانوا يظنون أن مجرد المقاومة والنزوع الى نيل مطلب ما بالعنف والوصول اليه بالقوة يكفي في أن يقدم استعفاءه ، ولا حاجة الى التصريح به لعرابي ومن معه خوف الاخفاق ، فيزداد عناؤهم اذا انكشف أمرهم ، فكانت الوسوس منحصرة في تزيين ما هم به بالضباط من طلب حقوقهم ..

أما عرابي فلم يكن بباله ، ولا يهتف به في منامه ، أن يطلب اصلاح حكومة أو تغيير رئيسها .. فذلك مما كان يكبر على وهمه أن يتعالى اليه ، وانما الذي أحاط بفكره وملك جميع مقاصده هو الخوف على مركزه مع شدة البغضاء لمن كان معه من أمراء الجراكسة ، والمنافرة من عثمان باشا .. فلم يكن لهم سوى الامن والمحافظة على مقامه ، والانتقام من ذلك العدو ، والتغلب على ما كان بيد الجراكسة من الوظائف العسكرية .. قصد التمتع بما كانوا يتمتعون به من رواتب أو نفوذ ، لأنه هو واخوانه أبناء البلاد أحق من غيرهم بمزاياها الخاصة بأمثالهم ..

وجميع المحركين له انما يأتونه من هذا الباب ، ولم يلفتوه الى أمر آخر ، فظن أن مقال الأعيان والذوات الفخام ، وما يأتيه من الجانب الأعلى وما يسمعه من العامة ممن بلغهم خبر طلبه من استحسانهم له وتصويهم للشباب عليه ، انما هو لعدالة الطلب واعتدال الرغبة ، فحمل



له أنه بعمله هذا يرضى الجنب الخديوى والكافة وقنصل فرنسا أيضا ، بتطهير الحرية من ظلم ناظر الجهادية والجراكسة فانحصر طلبه في عزل عثمان باشا ، أما ما بقى من سلطة الجراكسة فيسهل ازالته بعد ذلك ، وقد تحقق هدف عرابى ، ولم يستعف رياض باشا ..

أجال رياض باشا فكره في أسباب هذه الجراة التى أقدمت بهؤلاء الضباط على تمزيق حجاب الهيبة المضروب بينهم وبين الحكومة ، مع انهم ليسوا الا مصريين قد عرفوا بالاستكانة للسلطة ، وتنزيه الحاكم عن أن تتناول اليه الأوهام بالمقاومة ، فضلا عن الألسن والأيدى ، فانحصرت كل الاسباب عنده في البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال ، وان صفته هذه وجهره بمساعدتهم هو الذى تفخ فيهم هذا الروح ، ولولاه لم ينبض فيهم عرق ، ولم ينطق لهم لسان .. لهذا سعى لدى الجنب الخديوى في أن يطلب من رئيس الجمهورية استدعاءه من مصر فورد الجواب بقبول الطلب وعين خلفا له مسيو سينكفكس

Scienkiewicy

لم يدر في خلد رياض باشا ان البارون درنج كان العلة المتممة وان هناك أسبابا أخرى سبقت سعيه وهو ظهور الانحراف عنه من كل جانب وان الفتنة لا تسكن ما دام في الوزارة غير مرضى عنه عند الجنب الخديوى ، مضايقا لمن يحفون بسموه ، رافضا البحث في تأليف مجلس النواب الذى تطلبه الأمة ، واثقا بضعفاء العقول من الحكام ، مناصبا للذوات الفخام بلا مجاملة ، غير آخذ برأى الا ما يراه حسنا ، وما يعده خيرا للبلاد بلا التفات الى ما يخفف مرارة الحق ان كان محضا ، ويجلو جمال النية ان كانت سالحة ..

ولهذا آكتفى — بعد ابعاد البارون درنج — بالتفويض لناظر الجهادية الجديد سامى باشا في ازالة أسباب الشقاق المخيم في المراكز العسكرية ، والأخذ بزمام هؤلاء الضباط ، وردهم الى النظام وتسكين نفوسهم الى الطاعة ، وأما ما بقى من الاسباب الحقيقية للفتنة .. وهو ما في نفوس أهالى البلاد من الميل الى تغيير السيرة الحاضرة وما تمكن في قلب الجنب

الخديو من النفرة منه ، فانه لم يلتفت اليه رياض باشا لسقوط ذلك كله عن منزلة الاهتمام من نفسه ..

### دسائس الخديو توفيق

لم يكن يخطر ببال الخديو توفيق في ذلك الوقت أن الأمر يصل الى هذا الحد ، وانما كان الخديو يتظاهر أمام بعض الضباط بانحرافه عن رياض باشا ، ويلمح لهم أن رئيس النظار هو عدوهم .. وهو الساعى في تقنيل القوة العسكرية ، وفي ايجاد النظمات التى تحرم كثيرا من أبناء البلاد ثمرة أعمالهم فى الجندية ونحو ذلك ، ثم هو يميل فى مجلس النظار الى أخذ الضباط الثلاثة غيلة وتجريدهم من سيوفهم قبل محاكمتهم .. كل ذلك كى يحدث أزمة تضطر رياض باشا الى أن يستعفى من الوزارة

### عراى بعد الحادثة

كان الجناب العالى ينتظر أن يستعفى رياض باشا بمجرد الاصرار على صدور الأمر بحبس الثلاثة على خلاف رأيه فلم يستعف ، وكان يظن بعد ذلك ان غاية ما يؤدى اليه حبس الضباط الثلاثة أن يجتمع جماعة من الضباط ويتجهروا حول رئاسة النظار .. يطالبون بالافراج عن اخوانهم ويصرون على ذلك ، فيستعفى رياض باشا .. كما استعفى نوبار باشا فى حادثة الخديو اسماعيل ثم تنتهى بذلك الحادثة ، ويستقر النظام .. وقد غاب عن الأفكار أن آثار الحركة على وزارة نوبار باشا ، كانت لم تزل تشاهد فى الجندية .. تخفى وتظهر على حسب اقتضاء الأحوال كما يعرف من العريضة التى قدمت فى وزارة شريف باشا السابقة على وزارة رياض باشا ..

ولو أن الخديو توفيق أظهر رغبته فى عزل رياض باشا لهؤلاء الضباط ، ودبر الأمر معهم ، وقال لهم ان هذا الرئيس يرتكن على الاجانب وهم يسندونه ، فلا بد من ايجاد سبب يقنع الاجانب ظاهره ولكن ما أتاه الضباط صادرا عن أمره ، ولبقيت هيبة الخديو فى نفوسهم مع اطمئنانهم

على أرواحهم ومراكزهم من ناحية جنابه ، ولما وجدت نفوسهم في الظفر بمطالبهم شيئاً جديداً سوى الامتثال لأوامر الحاكم ، وان كانت سرية ، ولما استشعروا بتلك القوة التي اندفعت بهم الى خرق ذلك السياج المنيع الذي يحول بينهم وبين الخديو ..

وفي اليوم الثاني من الحركة ، استشعر الخديو توفيق أن في الحادثة ما يمس سلطته ، وان الضباط قد جنوا على مقامه ، فأصبح في همين عظيمين بعد أن كان في هم واحد : هم رياض باشا ، وهم الضباط — فبادر الى أخذ الاحتياط لأهمهما خطراً وأشدّهما وهو الثاني ، فاستدعى على فهمي أمير الآلاي الاول ، وذكره بما كان له من الزلغى عنده ، وأظهر له غاية الرضا عنه ، وأمره باستدعاء جميع ضباط الآلاي الى سراي عابدين ليقسموا للجناح الخديوي يمين الطاعة والفداء ويقسم لهم جناحه يمين التأمين من كل عقوبة على ما مضى ..

أراد بذلك الخديو توفيق أن يتخذ هذه الفرقة من الجيش قوة يخيف بها ما بقي منه ، فاذا أراد أن يريح نفسه من عبد العال مثلاً ، لم يستطع آلايه أن يفعل مثل ما فعل الآلاي الاول مع الضباط الثلاثة ، لوجود من يقاومه .. وهكذا لو أراد أن يبعد عرابي . ثم اذا استراح من كليهما رجع على فهمي وضباطه ، وبذلك ينتهي القلق .. لكن عرابي فطن الى الأمر ، فالتمس من الحضرة الخديوية أن يدخل فيما دخل فيه على فهمي من يمين الأمان ، فدخل برضاء الجناح الخديو ، وأعلى غير رضاه ، في رابع يوم الحادثة وتقاسما الايمان (١)

والى ما قبل الحادثة بيوم ، كان عرابي يخاف على مركزه في العسكرية ، ويخشى شماتة أعدائه من الجراكسة مضطهديه .. فكان كل همه كما قدمنا ، أن يأمن على وظيفته ويتقى عدوه ، ومع هذا فقد دفعه طلاب تغيير الحال الى اثارة الضباط لفعل ما فعلوا يوم قصر النيل . أما وقد

(١) بعد اسبوع من ذلك اراد الخديو ان يجتذب قلوب سائر الضباط فدعاهم يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٨١ من رتبة بكباشى الى ما فوق وحضر البارودي وزير الحرية وكبار رؤساء الجيش ، وخطب فيهم برأى عابدين خطبة ضمنها العفو عما حدث يوم أول فبراير والامتثال لولى الامر

هتك حرمة القانون وقلب قوة الحكومة ، وحولها عن وجهتها ، وجعل الآلة فاعلا ، والفاعل آلة ، وذلك مما يعد جرما في نظر كل واحد ، حتى أن سريره مهما عميت لا يمكن أن تغفل عنه ، ثم رأى من الجانب الحديوى تخصيصا لعلى فهمى بتقاسم اليمين معه - فقد ولت عنه السكره ، وآبت اليه الفكرة ، وشعر بأن حاكمه لا يسمح له بقوة تعلو قوته ، والنظام يقضى باهلاك هادمه ، وخيل له أن المخاطر تهدد روحه بعد وظيفته ، ولاريب أن الروح عليه أعز ، وأن الشماتة بعدها أدهى وأمر ، وأن دخوله في يمين الحديو لا يكفى في وقايته ، لأنه لم يكن يجهل الايمان .. ركب به الجبن وقتئذ طريقا عمياء ، يخبط فيها خبط عشواء .. يسوقه الرعب ، ويقوده الوهم ، وضعف الحكومة يمدده ، والرغائب الحرقاء تساعده ، الى أن أودت به وبالبلاد خطيئته !!

وأول ما أخذ به من الاحتياط ، أن أقام الحرس على بيته وبيوت مشاركيه ليلا ليحموهم من الغيلة المبتذلة في أرض مصر .. وقد علمته حادثة قصر النيل كيف يلاقى ماقد يوجه اليه من سلطان الحكومة ، فلجأ الى ضم القوة العسكرية اليه ، وإخلاء الوظائف الجندية من كل من حدثته نفسه بالريب فيه ، وسلك في ذلك مسالك علمت صغار الضباط بل العساكر أنفسهم كيف يخرجون عن النظام الضابط لهم ، وكيف يتدخلون فيما ليس من شأنهم أن يتدخلوا فيه كما ستراه فيما بعد

وقد سعى عرابى باشا لاستمالة الضباط والعسكر اليه ، فطلب من الحديو زيادة رواتبهم زيادة كبيرة وصدور أمر عال بتأليف لجنة من عشرين أميرا من كبار الضباط - هو أحدهم - للبحث في أنظمة العسكرية والمدارس الحربية وترقية الضباط وتسوية أحوال المستودعين ، ولكنه لم يسلك في ذلك طريق النظام بجعل ناظر الحربية هو الذى يعرض ذلك على الحكومة ، بل كانت العرائض تكتب في بيته أو بيت أحد شركائه ، ثم ترسل الى الالايات ليختتم عليها الضباط صغارا وكبارا وبعض الصف ضباط ، ثم تقدم من قبل ضابط الاى الى نظارة الجهادية أو الى رئاسة

مجلس النظر - فليُنظر بم كان يشتغل الضباط والعساكر وفيهم يصرفون أوقاتهم ؟ وكيف بذلك تموت رغبتهم في الأعمال العسكرية ويتولد فيهم حب التناول الى ما هو خارج عن الحق المخول لهم بمقتضى القانون وعوائد النظام

وقد أراد محمود سامى باشا ( وزير الجهادية الجديد ) أن يتخذ من سرور الضباط باعلاء مرتباتهم وسائر مامنحوه وسيلة لازالة ما وقر في أنفسهم من معاداة الحكومة لهم ، وما يكون في صدر الحكومة من الريب في مسلكتهم ، فاحتفل لتلك المنح (١) احتفالا باهرا في نظارة الحربية بقصر النيل ، دعا اليه النظر والمراقبين وأمرء العسكرية ، وخطب على المائدة خطبة فيما نالته البلاد من الاصلاح ، ونسب ذلك الى همة الحديو واخلاصه ، وصدق عزيمة رياض باشا وحده ، وسائر النظر ورجال الحكومة ، وبين أن هذه النعمة لا تحفظ الا بالشكر وهو الطاعة والخضوع للأوامر. ثم خطب رياض باشا ، فبين الفرق بين الحالة الحاضرة وما قبلها ، وخاطب الضباط فذكر لهم ما نالوه ، وذكرهم بوظيفتهم من حيث قوة الحاكم وآلته في تنفيذ أوامره .. وقام بعدهما عرابى ، فصدق ما قالا بلسان الجند والضباط أنهم مقيمون على طاعة الحاكم الذى هو مصدر هذا التقدم ، وأنهم آلتهم المنفذة في قبضة يده يديرها كيف شاء وان كل مطلع على ما قيل في ذلك الاحتفال ، يجد منه أن الحكومة كانت تريد أن تقنع الضباط بوجوب الطاعة ، وكان عرابى يعدها بذلك بنفسه وبالنياحة عنهم ، وهو دليل على أن القلق كان لم يزل مستمرا الى ذلك الوقت ، أى مابعد حادثة قصر النيل بنحو ثلاثة أشهر ، وقد كان يؤخذ من حالة عرابى عندما كان يجيب رياض باشا ومحمود سامى باشا أنه كان ينطق بخلاف ما يضر ، وان حجاب الطمأنينة كان يشف عن كامن القلق والاضطراب فى النفوس

(١) كان هذا الاحتفال فى ابريل سنة ١٨٨١ م . وكل ما القى فيه من خطبة كانت خلاصتها الشكر للخديو على هذه المنح، ووجوب الامتنان لأوامره . والعمل بطاعته

### دسائس حاشية الخديو

قلنا أن الجناح الخديو أصبح بعد حادثة قصر النيل ، يطلب الخلاص من أولئك الضباط وسطوتهم النافذة في جيشه ، فشغله ذلك وأخذ يدبر الوسائل ، ولكن لا مع وزرائه والمسئولين عن الامن في حكومته ، بل مع حاشيته وبعض رجال معيته ومن كان يختصهم من خدمه

ذلك مهبط البلاء على كل حاكم ، ومنبع الشقاء لكل أمير : أن يتخذ له عمالا في الخفية غير الذين أقامهم على الأعمال في الجهر

نعم للحاكم بل عليه ، أن يستشير كل من يراه أهلا لأن يشير متى وثق من عقله ، واتضح حسن السابقة في أعماله ، ولكن من الواجب عليه أن يكشف بذلك رجال حكومته الذين ألقى عليهم مقاليد أموره ، وفوض اليهم تدبير شئونه في رعاياه .. فاذا أقروه على العمل بما أشير به عليه ، ورآه حسنا مضوا فيه بالاتفاق معه والا نبذوه أو ادخروه لوقت آخر ، أو عزل من لم ير رأيه وأقام مقامه من هو أقدر منه على تنفيذ أوامره المطابقة لمصلحة البلاد ، بعد التروى في جميع ذلك ، والثقة بسلامة العاقبة .. فان اختلس لنفسه شيئا من التدبير بانفراده مع بعض خاصته على غير علم ممن ملكهم زمام الأمر من الحكومة تباينت المسالك ، واختلفت الغاية ، وفسد بذلك نظام الأعمال ، وسقطت البلاد في الفوضى ، وهجرتها الطمأنينة ، وتولاها القلق وظهر ضعف الحاكم ، وباد سلطانه هذه عواقب قضت بها السنة الالهية على كل أمة تضاربت فيها القوى ، وتخالفت النيات ، واستبد كل من الوازعين فيها برأيه ، ومضى على مآزينه له نفسه

لم يأخذ الخديو توفيق بذلك الأصل الذي وضعه الله نظاما لكل حكومة ، بل أخذ يعمل مع بعض خاصته للوصول الى ما أهمله من التخلص من سلطة الضباط في الجنود الذين تحت امرتهم ، فبدأ بعبدالعال فلما منه أنه كان أجراًهم وأشدهم نفوذا في عساكره ، وأفضى بسرهم في ذلك الوقت الى يوسف باشا كمال ، وكان ناظر دائرته الخاصة .. فأخذ

يوسف باشا على عهده تحقيق ارادة مولاه

استخلص يوسف باشا من صف ضباط آلاى السودان باشجاوينا شركسيا ، ودعاه الى بيته فى أوائل شهر مارس سنة ١٨٨١ ، وأكرمه . وكلفه أن يحول دون طاعة العساكر والصف ضباط لضباطهم فيما يأمرهم به اذا سيروهم الى حادثة مثل حادثة قصر النيل ، وأن يقنعهم بأن ضباطهم لا يريدون بهم خيرا .. فاذا صدر الأمر بنقل أمير آلايهم أو غيره من كبار الضباط الى آلاى آخر فعليهم ألا يعارضوا فى ذلك ، وأن يقبلوا كل ضابط يعين لهم

ذهب الأحقق وكتب عريضة ضمنها أن العساكر والصف ضباط لا يحبون ضباطهم ولا يريدون أن يكونوا تحت قيادتهم واذا ثقل أى واحد منهم الى أية جهة فلا يعارضون أمرا من الأوامر التى تصدر بذلك ، وطلب من أفراد الجند أن يختموا عليها ، قائلا انها عريضة طلب فيها زيادة المرتبات لهم ، فختم الكثير منهم عليها لأنه لا علم لهم بالقراءة والكتابة ، وقد ألفوا تلك القاعدة التى عودهم عليها رؤسائهم من أن المطالب التى يطلبها الجند من الحكومة تكتب عرائض ، ويطلب من الضباط أو العساكر توقيع الاختتام عليها .. غير أن أمين أحد البلوكات ( وكان يعرف القراءة ) اطلع على العريضة ، فأخبر بها اليوزباشى سليم أفندى الزيدى ، وسلمها اليه وهو سلمها الى عبدالعال ، فقدمها عبدالعال الى نظارة الجهادية ، فأوصلها الناظر الى الجناح الخديو فأمر بالتحقيق لاظهار منشأ هذا الفساد ، فصرح الباشجاوينا بأن يوسف باشا كمال هو الذى أمره .. فصدر أمر الجناح العالى بفصله من نظارة الدائرة الخاصة ظنا منه أن ذلك ينفى الشبهة فى أن جناحه يدا فى الحادثة ، ولكن الضباط كانوا على يقين تام من أن ناظر الدائرة الخاصة لم يعمل عملا الا بارادة مولاه ، ويقال ان عزل يوسف باشا كان بناء على طلب عبدالعال ومساعدة عرابى له

قال بعض كتاب الحوادث فى تلك الاوقات أن العريضة كانت تحتوى

على التماس العساكر والصف ضباط أن يعفوا الجناب العالى عنهم فيما أتوه من السير الى ميدان عابدين يوم واقعة قصر النيل ، وأن مافعلوا من ذلك انما كان باغراء ضباطهم لهم ، ولكن ذلك تأويل للحادثة بما لاينطبق على الحقيقة .. على أنه ظاهر السخافة ، فان الجناب الخديوى قد أصدر أمر عفوه عما وقع فى تلك الحادثة عن جميع العساكر والضباط واتتهى الأمر فيها ، ولم يكن يخطر بالبال أن أحدا سيؤاخذ على فعل ، ولم يحدث من جانب الحكومة مايوجب الريب فى ذلك حتى يلتمس العفو ، بل كانت الظواهر جميعها متضافرة عن أن الرضاء من جانب الحكومة على الجند ورؤسائه قام وعام

وفى أوائل شهر ابريل سنة ١٨٨١ م ، حدثت حادثة أخرى .. وذلك أن ضابطا سودانيا يسمى فرج بك الزينى من أمراء الآلايات المستودعين ، كان يسكن فى طره بجوار مركز التوتنجى ، وكان من رأى ابراهيم أغا (١) أن يلقى الخلاف بين العساكر وبين أمير الآلاى عبد العال بواسطة فرج بك الزينى ، فاتفق معه على الأمر ، وكان لفرج بك صهر يساكنه فى بيت واحد فاتخذ آلة لتنفيذ مايريد ، فتعرف الى شاويش يسمى عبد الخير ، فدعاه الى فرج بك فأكرمه ، وطلب منه أن يكتر من التردد عليه هو واخوانه .. فذهب عبد الخير وأخبر البكباشى خضر بما وقع له ، فسمح له بالتردد وأمره أن يخبره بما يكون ففعل ، واجتمع عند فرج بك اثنا عشر من صغار ضباط السودان فى ليلة من ليالى شهر ابريل سنة ١٨٨١ م ، فأبلغهم فرج بك سلام جناب الخديو ، وان جنابه يريد أن يؤمر عليهم أميرا سودانيا منهم وهو ( فرج بك ) وأنه متى صار الأمير منهم رقى الباشجاويش الى بكباشى ، والجاويش الى قول أغاسى ، والاونباشى الى ملازم .. ولايتم ذلك الا أن تعملوا على ما أشير عليكم به ، وموعدا للكلام فى ذلك الليلة الآتية بعد العشاء على شاطئ

(١) ابراهيم اغا هو توتنجى الخديو، ورئيس خدمه ، وقد دبر عدة دسائس ضد الضباط الوطنيين غير هذه الحادثة



البحر ، فتلقوا ذلك منه بالقبول ، وانصرف عبد الخير وأفضى بالأمر الى خضر خضر فأذن له بموافاة الموعد ، ومتى ظهر لهم من كلامه ما يشير الى الفتنة ، فعليهم أن يحضروه اليه ، ثم اجتمعوا في الموعد في مزرعة قمح على مقربة من البحر ، فطلب منهم فرج بك أن يرفعوا على ضباطهم شكاية من تصرفهم الى الحضرة الخديوية ليبنى عليها ذلك التغير .. فعندما سمعوا ذلك قام واحد منهم ، وقال هذا لا يريد بنا خيرا وعلينا أن نكرهه على الوقوف بين يدي ضباطنا في الحال ، فاتفقت كلمتهم على ذلك وطلبوا منه أن يسير معهم فأبى ، فحملة عبد الخير وساعده اخوانه حتى أحضروه عند خضر خضر فكتب الواقعة بالتفصيل الى أمير الالاي فحضر وطلب محاكمة فرج الزينى ، فحوكم وظهرت معه رسائل من ابراهيم أغا تدل على أنه مصدر هذا الشغب ، وحكم على فرج بك بانزاله عن رتبة القائمقام الى رتبة البكباشى وبنفيه الى السودان ، فعفا عنه الجناح الخديوى وأرسله الى السودان موظفا في وظيفة تليق به (١)

### تأثير الدسائس في عرابى

قدمنا أن سلطان الخوف ملك قلب عرابى بعد حادثة قصر النيل ، ولم يخفف دخوله في يمين الامان مع على فهمى شيئا من قلقه .. وقد زاد في اضطرابه تكرر هذه الحوادث ( حوادث الدسائس ) والوقوف على مصادرها ، وان خاصة الجناح العالى هم العاملون فيها ، وهم لا يصدرون الا عن رأيه السامى ، فأيقن أن العفو الصادر واليمين السابق لم يكونا الا ألفاظا قصد بها الهاؤه والهاء اخوانه عما يراد بهم وان الانتقام على ماصدر منهم ضربة لازب ، وأن جميع ما اتخذ من وسائل جلب الجند اليه ، وجمع كلمتهم عليه ، لا يحميه من الغيلة ، ولا يؤمنه من السقوط في فخاخ الحيلة .

(١) ارسله الخديو اليرموك باشا حكامدار السودان وقتئذ ، فالعنه بخدمة الحكومة في السودان ، وانتم عليه الخديو برتبة لواء نصار يعرف بفرج باشا الزينى . وقد قتله الثوار في الثورة المهدية سنة ١٨٨٥ م

لذلك أخذ ينقى الجيش من كبار الضباط الذين لا يثق بهم ، ويخشى أن يكونوا عوناً على تدبير كيد يكاد به .. فأوحى الى ضباط ألاى العباسية « ألاى عرابى » أن يخالفوا أوامر البكباشى « ألقى أفندى يوسف » وأن يهينوه اذا عرضت الفرصة ، متجاوزا الحد فى سوء المعاملة معه الى أن كلفوه يوماً بتقديم استغفائه فأبى ودافع عنه يوزباشى يسمى خليل أفندى على ، واتتهى الأمر الى عرابى فألزم البكباشى بأن يستغفى ، وحوكم اليوزباشى فحكم عليه بالسجن مكبلاً بالحديد ، ثم استودع مع القضاء عليه ألا يعود الى الخدمة العسكرية أبداً ، وكذلك أشار الى ضباط ألاى القلعة فطلبوا الى النظارة عزل أميرهم حمدى بك صدقى فعزل ، وعين بدله ابراهيم بك حيدر ، وكذلك فعل ألاى الطوبجية فعزل حاكم الاى حسين بك وعين بدله اسماعيل بك صبرى ، وحصل كثير مما يماثل ذلك ، ولا فائدة فى الاطالة بذكره ..

### \*\*\*

أفراد الجند كثير ، وعدد الضباط عديد ، وقوة الجناح الخديوى أعلى من قوة عرابى ، وليس فى الامكان لضباط مثله أو لأعظم منه أن يملك مفاتيح القلوب ومغاليقها فى جند مثل هذا مهما قل عدده ، خصوصاً بعد أن ألف أفراد وضباطه مناوأة أرباب الأمر فيهم ، وعرفوا فى أنفسهم القدرة على رفع التقارير بالشكوى منهم بحق وبغير حق ، وبعد أن ذاقوا لذة النجاح فيما يسعون اليه من ذلك ، فمن الممكن القريب أن الخديو توفيق أو الحكومة نفسها توحى الى بعض أرباب الكلمة النافذة من الضباط العظام .. بل الى بعض أفراد الجند أن يوقع بعرابى وصاحبيه وأن يأخذهم فى مأمنهم على غرة منهم ، فان لم يكن ذلك بازهاق الأرواح كان بإفساد القلوب عليهم وهم لا يشعرون ولكن شاء الله أن ينتجهم من ذلك

## مجلس النواب

أراد عرابي أن يستعين بقوة فوق قوته الشخصية ، وأن يلمس سلطة تعلو سلطته وسلطة الحكومة معا ، ولها من الشأن في مراقبة أعمال الحكومة ومناقشتها الحساب على ما يصدر منها خارجا عن الدستور أو مخالفا للعدل ماتخشي عواقبه ، وتتقى مصايره ، وكان يطالع في الجرايد وفي بعض الكتب المترجمة من اللغات الأوربية ، ويسمع من بعض المطلعين على أحوال ممالك أوربا أن مجالس النواب في تلك الممالك هي القائمة بحفظ أصول النظام ، وهي القاضية على كل حاكم بالتزام حدوده ، والحاجة للاستبداد في الأرواح والأموال ، والحفاظة للحرية الشخصية في الأعمال

وقد رأى أنه لو كانت في البلاد تلك القوة النيابية ، وكانت حكومتها حكومة شورية ، لكانت الشورى أو مجالس النواب عاصما لحياته ، حافظا لحقوقه في وظائفه ، ومأمنا يلجأ إليه ، اذا حوِّم طائر الانتقام عليه ، ولم يعلم أنه لو كانت في مصر حكومة دستورية يقضى فيها القانون ، ولا يستبد فيها الرأي لأوخذ عرابي ومن معه أشد المؤاخذة ، ولقضى عليهم بجزاء ما هتكوا من حرمة القانون ، وما أدخلوا في الجند من الميل الى الفوضى (١) ، وانما الذى استبقى حياتهم بعد ما فعلوا تلك الأفاعيل هو ضعف سلطان القانون ، وعجزها عن ايقاف الداخلين تحتها عند حدود أحكامه ، وميل صاحب الرأي الأعلى في الحكومة الى تلافى

---

(١) لعله قد فات الاستاذ الامام ان التوردة على النظام القائم لا تنفق والخضوع له والعمل بحدوده ، والسير على قانونه . فمؤاخذه عرابي هنا فيها نظر ..

الأمر بما ظنه أفضل وأنجح مما حدده النظام

وغاية ما توهم عرابي ، أن مجلس النواب هو من أبناء البلاد ، وهم لا يسمحون بأن يقتل واحد منهم أو يعزل من وظيفته ، وإن تعدى حدود كل نظام مادام يطلب طلبا يظنه هو عادلا . لهذا أراد أن يستعمل ما بيده من السلطة على الجيش في المطالبة بإنشاء مجلس نواب ، يكون له من الحقوق ما لمجالس النيابات في أوروبا ، ثم تخيل أنه إذا أنشئ هذا المجلس عرف أعضاؤه ومستنبيوهم فضل من كان السبب في تشكيله ، فيهتمون بالمحافظة على حياته (١) وعلى نفوذه بما يستطيعون ، بل واثق بأنه يستعمل النواب كما يستعمل ضباط الجند ويسوقهم الى الغاية التي يريدها منهم ..

ولم يخطر بباله أنه إذا فعل ذلك ، فقد سقط بالقوة التي يلجأ اليها الى هاوية العدم ، فانه اذا لعب بها فقد فتح لغيره باب الاستهانة بأمرها ، فيسهل عدم المبالاة بسيطرتها ، واذا قهرها على أمر فقد مهد السبيل لمن هو أعلى منه سلطانا في نظر الأمة ، يكرهها على عكسه فتقلب عليه بعد أن كانت له .. واذا كان المجلس تحت سيطرة الجند ، فما الفائدة من انشائه مع وجود الجند ، فليستغن عنه بالقوة العسكرية ، ولتكن هي الملجأ دونه ، فكيف يتصور أن يطلب تأليفه ليكون واقيا مما لم يقو الجند على الوقاية منه ؟ !

هذه أحاديث عقل ، ينبو عن فهمها ذهن شخص مثل عرابي ، تمثلت له جنايته في صور أغوال فاعرة الأفواه محددة الأنياب ، ولزمه خيالها في يقظته ومنامه ، فهو في فزع دائم يخيل له العزل والموت في كل شيء

---

= ثم ما هذا النظام الاستبدادي الذي سارت عليه حكومة توفيق ووطا معها عليه قبل حادثة قصر النيل ، وبعد حادثة قصر النيل فقد ازداد استبدادا حتى اضطر البارودي باشا وزير الحربية الى الاستقالة على اثر محاكمة الجنود التسعة الذين حكم على احدهم بالاشغال المؤبدة ، وعلى الثمانية الآخرين بالاشغال الشاقة ثلاث سنوات كما سيأتى في صفحة تالية

(١) اتهم عرابي بالحرم على حياته فيه اسراف .. ولعل ما نراه من انتقاد الامام لعرابي باشا في هذه المذكرات مبني على النقمة على الاحتلال الإنجليزي الذي أدى اليه فشل الثورة العربية

يراه .. يلتفت يمينا وشمالا ، فلا يرى الا سيوفا مسلولة ، أو جبالا منصوبة ، ولا يسمع من هواجس نفسه الا صيحة واحدة : الخلاص .. الخلاص .. الهرب .. الهرب .. ولم يتمثل في مخيلته أوفى له من طلب تأليف مجلس النواب على الصورة التي قدرها له في نفسه

وشد أمله في نيل أمنيته ، ان أغلب أهل الطبقة العليا من الناس كثير من أهل الطبقة الوسطى يهمسون بما يدل على القلق ويشعر بالملل من ادارة رياض باشا لأعمال البلاد وسياسته فيها للمآرب التي بينها .. فأخذ يتحسس ما في النفوس ، ويسمع ما تنطق به الألسن ، فوجد أن أمنية تغيير الحال لم تزل تجول في صدر كل واحد ممن كان يلتقى بهم - ولو قيل لطلاب التغيير أن لا سبيل اليه الا باستدعاء الخديو اسماعيل باشا ، أو استحياء اسماعيل باشا صديق لاستسهلوا طلب ذلك بعد ما ذاقوا على عهدهما ما ذاقوا ، فقد نسي الماضي واحتدمت الشهوة في التخلص من الحاضر

### \*\*\*

وكلمة « مجلس النواب » كانت لم تزل دائرة على الألسنة ، وفي وهم الكثير ممن نظروا في سير الأمم الأوربية ، أن علاج كل داء ينحصر في تحقيق معنى هذه الكلمة ، فلما نطق عرابي وهو صاحب النفوذ في الجند بأنه يريد انشاء مجلس النواب سمع دوى الاستحسان من كل جانب ، وصفقت له الاحشاء بين الجوانح قبل أن تصفق له الأيدي ، فاشتد بذلك عزمه وازداد طمعه ، وخيل له أن الأمة ستكون سنده

ولعلمه أن علاقة مصر بالدول العثمانية علاقة لا تسمح له أن يجاهر بايجاد شكل في الحكومة المصرية - ليس معروفا عند السلطان العثماني - بدأ بتحرير عريضة أمضاها هو وعدد كبير من الضباط ، وختمها بالشكوى من استبداد الحكام في الأقطار المصرية ، وأن ذلك الاستبداد قد أضعف الأمل في الامن على الأنفس والأرواح كما عاد بالقوة على نفوذ الاجانب ،

حتى أصبحت مصالح البلاد في أيديهم وتحت تصرفهم ، وكاد اسم الدولة العثمانية ينسى ، وأشرفت علاقتها بمصر على الاندثار والانحفاء .. فورد له الجواب من بعض رجال المايين يحمل اليه تحية الخليفة العثماني ، وينقل له رضاه السامي عن كل ما يجري في مصر لمقاومة نفوذ الأجانب في ادارتها ومصلحتها

أخذ عرابي ، بعد ذلك ، يجهر بطلبه هذا .. وخاطب رياض باشا في شأنه فأباه عليه ، فأخذ يخاطب بعض العلماء ويكاشفهم بمقصده من ثلم النفوذ الأجنبي ورد ماسلبيته أيدي الأجانب الحاضرة اذ ذاك ، كأنها نسر حوم في جوها لاختيار خير الفرائس لينقض عليها ، ثم اختار من بينها الدين والعوائد الموروثة عنه لينشب مخالبه فيها ، وأنه لو دامت سياسة رياض باشا في منهجها لقضى على الدين وسننه ، وفي خلال هذا كان يزين لكل ذى شهوة منهم ماتميل اليه نفسه ، ويمنيه بنيله اذا تغيرت هيئة الحكومة الحاضرة ، فوجد من حضرات المشايخ - وهم على مانعهم من السذاجة والبعد عن معترك السياسات - اصغاء لقوله وتأييدا لرأيه ، وكذلك كان يخالط بعض الأعيان ومشايخ العربان ويقرر لكل من لاقاه أن لاسبيل لمبتغاه الا بتأييده في طلب مجلس النواب فيجد أذهانا مقتتعة ، وارادات مستسلمة .. وكذلك لأن القوة في يده ولأن نفوسهم ترى منتهى راحتها في التغيير على أى صورة جاء

واستحثه الحرص على ادراك المطلب أن يفضى به الى ضباط الجيش ، وأن يثير في أحلامهم تماثيل الأمانى من العزة والسلطان ، والصعود الى أعلى مراقى الرتب والمناصب ، وأن كل ذلك لاينال الا بمجلس النواب ، ولم يكفه أن يكون ذلك مطلبا لهم يشتهونه ويساعدون عليه عند القيام للالزام به ، ولكنه كان يطلب الى بعض الضباط أن يكتبوا به عرائض يبينون فيها ضرورة انشاء المجلس ، وانما يقام الدليل على تلك الضرورة بالظن في هيئة الحكومة وبيان عدم كفايتها في كفالة الأمن على الأتفس والأموال والأعراض ، وبينما هو في ذلك اذ أحس الخديو توفيق بمسعاها ،

وعرفه بعض حاشيته ، وبعد قليل ظهرت مسألة تسمى مسألة التسعة عشر ضابطا

### مسألة ال ١٩ ضابطا

كتب البكباشي عبد الله أفندي الكردي تقريراً أمضاه ، هو وضابط قول أغاسي وستة عشر من اليوزباشية وملازمان ، وقدمه الى ناظر الجهادية .. ومحصل مافيه الشكوى من تصرف عرابي ومخالفه وتعديهم حدود القانون ، واشتغالهم ببث الدسائس بين ضباط الجيش وحملهم على تقديم عرائض للجناب العالي ، يطلبون فيها عزل وزارة رياض باشا ، وتأليف مجلس للأمة ، وزيادة عدد الجيش ، والتصديق على القانون الجديد ، وان عرابي قد صرح لهم بما معناه « ان القوة في يدنا ، والعلماء والأعيان ومشايخ العربان يعضدونا ، ولا مندوحة للخديو عن اجابة طلبنا ، فان لم يفعل خلعناه وأقمنا حكومة جمهورية مستقلة » فلما وقف الناظر (محمود سامي البارودي) على ما في التقرير ، أمر بتأليف مجلس عسكري لتحقيق مازعمه الضباط ، فقالوا انهم لم يكتبوا الا ماسمعوا وزادوا على ذلك ، أن في الجيش كثيرا من المظالم والحيانات ، وطلبوا تحقيقها .. ثم قدمت الى المجلس العسكري تقارير من ضباط الآليات ، تنسب فيها تهم كثيرة الى هؤلاء الضباط الواقفين موقف المخاصمة مع عرابي وجماعته ، وانتهت المحكمة باثبات أنهم مدفوعين من ابراهيم أغا التوتنجي على كتابة ذلك التقرير ، فحكم عليهم بعقوبات شديدة ، قابلها الجناب الخديو بعفوه ، غير أنهم فصلوا من الجندية

وفي أثناء هذا الاضطراب ، كان محمود سامي ورياض باشا يخطبان فيما يجب على الجند أن يؤدوه للحكومة ، وعرابي يجيبهما بتصديق ما قالوا ، وينادي بأن الجيش آلة الحكومة المنفذة .. كلا الطرفين خادع ومخدوع .. ا

### أبعاد الضباط غير الموالين للحركة

في تلك الأيام ، قام ضباط الآلاي الرابع ( آلاي عرابي ) وطلبوا فصل البكباشي ألفي بك يوسف ، لأنه المانع للآلاي من الآلايين يوم حادثة قصر النيل ، فحملوه على الاستعفاء .. فاستعفى وأحيل على الاستيداع . وكذلك فعل ضباط آلاي القلعة في طلب عزل أميرهم محمد بك صدقي ، فعزل وعين بدله الاميرالاي ابراهيم بك حيدر ، وتبعهم ضباط آلاي ( الطبية ) في طلب فصل قائدهم حسين بك ، ففصل وعين بدله الاميرالاي اسماعيل بك صبرى .. كل ذلك ليستوثق عرابي لنفسه ، وليأمن على أن القوة الجندية بأسرها معه

على أن ذلك لم يفتر عزيمة المخلصين من حاشية الخديو توفيق ، فقد قيل ان بقية مما ترك الخديو اسماعيل باشا من الجوارى السود ، كانت تحت تصرف الخاصة من الخدم .. فأخذوا يزجونهم ببعض العساكر والضباط من آلاي السودان ، وكان أغوات سراي الاسماعيلية يدعون أولئك العساكر ويمنحون الواحد منهم تقودا لاتعطى عادة لأمثالهم ، بحجة أن ذلك مساعدة لهم على معيشتهم مع زوجاتهم عتيقات السراي ، ولكن العساكر كانوا يقولون لضباطهم أن الاغوات يغرونهم بقتل رؤسائهم ، فهيج ذلك غضب الضباط وأضعف ثقتهم في الأمن على أنفسهم .. وسواء صح قول العساكر أو لم يصح ، فأثره في ازدياد القلق والاضطراب لاربية فيه ، والاشاعات التي تتولد عنه لاتقل قيمتها عن الحقائق الثابتة ، وانما وقود الفتن مايقال لا مايفعل

### مقتل الجندى

في ٢٥ يوليو سنة ١٨٨١ ، حدث أن عجلة ( عربية ) لأحد تجار الاسكندرية يقودها قائد أوربى ، كانت تمر في الشارع المؤدى الى سراي رأس التين .. فصدمت جنديا من عساكر الطبية فقتلته ، فاجتمع رفاقه على أن يحملوه الى السراي حيث يقيم الجناب الخديو ويلتمسوا



منه الاهتمام بمعاقبة الجاني فحملوه مخالفين في ذلك رؤساءهم ، وساروا في ضجة وولولة ، وصاحوا بطلب الانتقام من القاتل ، فكبر الأمر على الحديو وراه تطاولا عليه مخالف لآداب الجندية .. فأمر العساكر بالانصراف ، فانصرفوا ظانين أن شكواهم قد قبلت

وبعد أيام صدر الأمر بتأليف مجلس حربى لمحاكمتهم ، وحوكموا وصدر الحكم على الجندى الذى بدأ بدعوة رفقائه الى الاشتراك فى حمل الميت الى السراى بالاشغال الشاقة مدى الحياة ، وحكم على رفاقه - وهم ثمانية - بالاشغال الشاقة مدة ثلاث سنوات ، وبأن يقضوا مدة العقوبة فى السودان . ثم قدم الحكم الى ناظر الجهادية ، فرفعه الى الجناب الحديو ، فأمر بانفاذه ، وسيق المذنبون الى السويس ومنها الى سواكن .. ثم الى داخل البلاد السودانية

بعد هذا كتب عبد العال بك حلمى ، أمير الفرقة السودانية ، تقريراً طويلاً يشكو فيه ما أصاب هؤلاء العساكر من شدة الحكم ، ويبين قلقه من الحوادث التى تجرى فى آلايه والفتن التى لاتنقطع ولاتجف ينابيعها ، وأظهر استغرابه لشدة الحكم فى حادثة مثل هذه ، مع مقابلة الجانبين بالعفو فيما هو أعظم منها وأهم كحادثة فرج الزينى وغيرها

\*\*\*

قدم التقرير الى ناظر الجهادية ، فرفعه الناظر الى الحضرة الحديوية ، واشتد كدر الحديو لذلك ، وعده جرماً لايقبل عما اجترمه حاملو القتل وملتمسو عقوبة القاتل ، فاستدعى النظار من القاهرة بالتلغراف .. فاجتمعوا فى حضرته وتداولوا فى الأمر ، وقرر ( أى جنابه ) ووافقه الأغلب من رجال النظارة على أن بقاء محمود سامى فى نظارة الجهادية مع ميله الى عرابى ومن معه ، هو منشأ الفوضى ، وأن لاسبيل لايقاف سير هذا الداء ورد المتطاولين على السلطة العليا الى الحد الذى رسمته لهم وظائفهم الا عزل محمود سامى ، فقدم استعفائه فقبل فى الحال ، وعين

بدله داود باشا يكن (١) ناظرا للجهادية ، وأعقب ذلك صدور أمر آخر بعزل أحمد باشا الدرملی من ضبطية المحروسة ( محافظة العاصمة ) وتعيين عبد القادر باشا مأمورا لها

### ضعف وزارة رياض

هنا أذكر ما أخبرني به بعض الثقات وهو أن من أسباب ميل الجناب الخديوى الى استعفاء وزارة رياض باشا ، أنه كان ينتهز فرصة لتعيين داود باشا يكن ناظرا للجهادية لمكان المصاهرة الجديدة ، وانه لما لم يتمكن من ذلك فى حادثة عابدين لم يزل يتخذ له الوسائل حتى تهيأ له أن ينفذ ما عزم عليه بعد هذه الحادثة التى لا تمتاز فى شىء عما سبقها من أمثالها ، ومع ذلك فقد أظهر جنابه شدة قلقه من رياض باشا ، وأشيع فى الاسكندرية — بل وفى القاهرة — أنه قدم استعفاءه لتحقيقه من عدم رضى مولاه عنه ، وعلم رياض باشا بعد انصرافه من سراى رأس التين بضجر الخديو من بقاءه على ما أخبره به بعض الأوربيين ، فرجع اليه وسأله فى ذلك فأكد له أن لا صحة لما سمعه ، وأنه فى المحل الأعلى من رضاه ، فأظهر رئيس النظر اقتناعه بما سمع مع قيام آلاف من الأدلة على ما يخالفه !

ومن العبث أن يقال ان رياض باشا لم يكن يحس بوجود الخديو عليه ، ورغبته فى اعتزاله للسلطة ، ولكن لذة المنصب والشغف بالرئاسة ، وثقة دولة الرئيس بنفسه ، وظنه أن لا صلاح للبلاد الا اذا كان هو صاحب سياستها والقائم بتدبير شئونها .. كل ذلك كان يغالط به احساسه ، ويدافع به ضميره ووجدانه ، ويلتمس له العذر فى البقاء ، ويصرف نظره عن أدلة الانحراف عنه — على قوتها — ويقبل به على موهومات الركون اليه على ضعفها ، ولو حكم عقله وأنصف نفسه وبلاده لانصرف عن مقام السلطة مختارا قبل أن ينصرف عنها مكرها ، فقد كان من المحتمل ألا

(١) داود يكن باشا هو مهر الخديو تولىق .. أما عبد القادر حلمى فقد كان مواليا للسراى ومكروها من العربيين وقد صار فيما بعد حكاما للسودان

تبلغ القوضى بالبلاذ مبلغ ما وصلت اليه .. أو لم يضطر الضباط الى حشد الجنود فى ساحة عابدين لأكراهه على التنازل عن رئاسة النظر ! أراد داود باشا أن يقوم ما اعوج من النظام ، أو يرمم ما تقوض منه ، فأخذ يصدر الأوامر الشديدة الى الآلايات ، يلزم بها أمراءها وضباطها كافة بألا يفارقوا مراكزهم العسكرية ، ويحظر بها على جميعهم ما اعتادوا عليه من الاجتماع فى المنازل ، والتردد على المحافل ، ويطالبهم بإيفاء الأعمال العسكرية حقها من الدقة ، وأمر بإنشاء مكاتب فى مراكز الآلايات لتعليم القوانين العسكرية ، ظننا منه أن ذلك يذكر الضباط والعساكر بأحكام النظام فيقبلون على طاعته ، وتأخذهم الرهبة من مخالفته ، وكان يذهب بنفسه الى ثكنات العسكرية ليلا ونهارا ليراقب تنفيذ تلك الأوامر. واهتم سعادة مأمور الضبطية « محافظ العاصمة » بمعرفة حركات ضباط الجيش ، خصوصا الرؤساء منهم ، وهم : عبد العال ، وعرابى ، وأحمد عبد الغفار ليخبر ناظر الجهادية بما يكون من أمرهم خطوة بخطوة ، فأرسل العيون والجواسيس على بيوت الرؤساء منهم وكبار الضباط ، ولم يخف شئ من ذلك على عرابى ورفقائه

### قوة الناظر والمحافظ

ما القوة التى كان يستند اليها ناظر الجهادية فى إصدار أوامره ، ومأمور الضبطية فى بث جواسيسه ؟

هى القوة التى يشير اليها اسم الوظيفة « ناظر جهادية .. مأمور ضبطية » وهى من القوى المعنوية التى لا يظهر أثرها الا بعد اليقين بأن قوة الجند من ورائها عند التواء الأمور عليها ، كسائر الوظائف فى الحكومة لا تخضع الأنفس الا للقائمين عليها ، الا ومثال القوة القاهرة منتصب أمامها ..

وما تلك القوة القاهرة اذا لم تكن سلاح الجند ؟.. فان كان الجند وهم حفاظ الوظائف فى كل حكومة خصا لها أصيبت بالشلل كما يصاب

المخ اذا تمزقت عنه عظام الجمجمة

غفل كل من ناظر الجهادية ومأمور الضبطية « المحافظ » عن هذا الأصل المعروف عند الأمم كافة ، وظننا ان اسم الوظيفة له من السلطان فى انفاذ الأوامر ما يغلب قوة الجيش ويخمد نيران مدافعه وينادقه ، وربما صار هذا السهو منهما مثالا حذا حذوه كثير من السذج فى مصر فيما تأخر من الزمان

نعم قد لايبالى بقوة الجيش متى استعصى على النظام ، اذا قامت الأمة بأسرها للمحاربة عن دستورها ، وهمت بمعالجة جسمها بقطع ما فسد من أعضائه ، واستعاض الحاكم بقوة الرعية من قوة بعض أفرادها ، وهم الجند ، وأخذ لذلك من الوسائل ما هو أشد أثرا من كتابة المنشورات ، ونشر الوريقات ووسوسة الجواسيس ، وحشد الأخبار يتراكم كاذبها على صادقها ، ويغلب باطلها على صحيحها ، ليكافح بذلك حشد الجيوش وصلصلة السلاح ..

لكن الأمة كانت لا تزال فى دور النقاهة من مرض التفرق وشلل الارادة ، فهى ان حكمت على مترد فانما تحكم قلة .. فكل يصدر حكمه لصديقه همسا يرجو ألا يسمعه ثالث ، وقد يبالغ الاغلب فلا يقضى قضاءه الا فى نفسه ، وان جهر بالقول لم يبلغ من نفوس السامعين الا مجرد استحسان ، قد لاينطق به لسان ، وان نطق كان على طريقة القائل : « فربما اجتمعت أصوات ، وعلت ضوضاء » ولكن كان كل فى مكانه لا تتحرك قدماء ، ولا تمتد يداه ، وأول صيحة من مدفع تخرس لها جميع الألسن وتخفت جميع الأصوات ، ويتبدل الزئير بالأنين

ذلك شأن كل أمة ، لم تقوّم نفوسها بالتربية السليمة ، ولم تثقف فلولها بالمعارف الصحيحة ، ولم يبلغ بها حب وحدتها الملية أو الشعبية الى حد أن يسهل عليها بذل المال والروح فى سبيل صيانتها .. كل أمة تفرقت المطامع بين أفرادها ، ويصرف كل منهم شأنه عن شأن مجموعها ، ويلهيها العاجل عن الآجل ، ويذهب بها الحاضر عن المستقبل ، لا سبيل

للاعتدال عليها في دفع غائل ، ولا في مقاومة صائل

### الجند والامة وعرابي

وكان الجند طوع عرابي ورفقائه ، لا تحت طاعة الناظر ولا المأمور ، وكانت الأمة على حالها التي ذكرنا طالبة لتغير الحال كما قدمنا .. فالجند والامة كلاهما كان في جانب عرابي . أرقام المنشورات وأشباح الجواسيس قامت عند عرابي واخوانه مقام انذار لهم بسوء المصير ، فاشتد حذرهم واستجمعوا كل قواهم لحفظ أرواحهم ومناصبهم . وكانت الليالي ، ليالي رمضان ، تكثر فيها الزيارات ، وتيسر الاجتماعات ، وتنتشر الاشاعات .. فازداد عرابي ومشايعوه من الحراس تحفظا مما عساه يقع من الغيلة ، وواصل اجتماعه مع اخوانه ، ومع كثير من أعيان القاهرة ، وتابع رسائله الى بعض من يظنهم على ولائه في الاطراف ، وهو في كل ذلك يدعو الى تأليف مجلس النواب ، لأنه الوسيلة الباقية لانتقاء شر الحكومة ، وكان يتردد في أغلب الاوقات على منزل سلطان باشا ، ويستمد منه المعونة بالقول والفعل

### محمد سلطان باشا

#### لماذا انضم للثورة العرابية ؟

سلطان باشا (١) لم يكن من أغنياء الاغنياء في هذه البلاد ، بل كان فيه شيء من الفطنة يزينه الغنى وتعالى قيمته مظاهر الثروة .. كان يفهم ما يقال ، ويرضى السامع اذا قال . ولكن هيهات أن يكون له بصير بالعواقب أو علم بمصائر الانقلاب في الحكومات وتغير الاشكال عليها ، وما يصيب الأمم في مجارى الحوادث من تقدم وتقهقر

(١) محمد سلطان باشا كان من زعماء الثورة العرابية ، ثم انقلب عليها وخانها. ولد في بلدة زاوية الاموات بمديرية المنيا سنة ١٨٢٥ . وتعلم القراءة والكتابة وشيئا من القرآن في بلدة . ثم عين عمدة لبلده ، فعمورا لمرکز قلوبنا ، ثم جعله الخديو اسماعيل مفتشا عاما للوجه القبلى . وفي مهده امتلك ثلاثة عشر ألف فدان

أفادته مناصبه السابقة أيام اسماعيل باشا شهرة وعلو صيت .. حافظ على مكاته في النفوس ببسطة في الكرم امتاز بها على أمثاله ، فكان يتردد على منزله الاعيان والعلماء وأدباب المناصب ، وكان يجد في نفسه لهذا علوا على أقرانه . كان مثله مثل الكثير من الاعيان في استئثار يد رياض باشا فيما استأثر من السلطة ، وفي استنكار تلك البدع التي جاءت في وزارته ، خصوصا أبطال السلطة الشخصية ، والاخذ على يد الاقوياء ، حتى لا تطاول الى استخدام الضعفاء برغم ارادتهم ، ووضع حدود تلزم الاعيان وأهل الثروة بالوقوف عندها في علاقاتهم مع غيرهم ، فكان ممن يألم لهذه القيود ويعدها من الضربات التي أصيبت بها البلاد على يد رياض باشا وشركائه

توسم الفرج والخروج من هذه المضايق والوصول الى مقام تعلو فيه كلمته على كلمة مثل رياض باشا ، ويتمكن فيه من أن يعيد نفوذه الشخصي فيمن دونه من عامة أهل بلاده ، عندما لاح له بوارق الثورة ولمع في عينه شرر الفتنة - عند ما أحس أن عرابي يتلمس المعين على انشاء مجلس النواب لوقاية روحه ومنصبه - ظن وصدق ظنه أن عرابي لا بد أن يصل الى ما يريد يوما ما ، فمن الحزم أن يتفق معه في البداية ، ليكون له النصيب الاشراف من الفائدة في النهاية .. فكان أول من مد يده اليه وعاهده على التعاون في طلب مجلس الشورى . وأخذ سلطان باشا يستميل بعض أعيان الوجه القبلى والبحرى الى رأيه ، ويحثهم على الاجتماع لتأليف وفد يطلب الى رياض باشا ويلج عليه في الطلب أن يستصدر من جناب الخديو أمرا باستدعاء مجلس النواب ، وتخويله حق النظر في وضع قانون يضمن له البسطة في حقوقه ، حتى يكون كمجالس النيابات في أوربا ، ثم يكون ذلك دستورا للبلاد تمضى عليه حكومتها ، فانصاع له بعضهم وعارضه آخرون ، ولم يتم له تأليف ذلك الوفد ، ولم ير من الحزم أن يتولى الطلب بنفسه من رياض باشا خشية الخيبة ، فاقبل الى عرابي وحالفه على أن يجمع له أعيان القطر من

الوجهين البحرى والقبلى ، وعلماءه على تعضيد طلبه متى استقال رياض.  
باشا ، ثم بارح سلطان باشا مدينة القاهرة ، وتوجه الى المنيا فى أواخر  
شهر رمضان سنة ١٢٩٨ هـ « أوائل سنة ١٨٨١ م » وقت اشتداد.  
الاضطراب وتلاطم القوى

### بينى وبين عرابى

كنت معروفا فى ذلك الحين بناوأة الفتنة واستهجان ذلك الشعب.  
العسكرى ، وتسوئة رأى الطالبين لتأليف مجلس النواب على ذلك الوجه  
وبتلك الوسائل الحمقى ، وكنت أذهب لزيارة سلطان باشا أحيانا ، فأرى.  
من لدن الباب عرابى وبعض رفقاءه جالسين معه ورءوسهم بادية من.  
النوافذ فاذا استأذنت للدخول وسمعوا اسمى أسرعوا بالفرار من محل  
الاستقبال العام الى محل آخر ليختفوا ثم ينصرفوا

مررت ببيت « طلبية » (١) ثالث يوم عيد الفطر ، فسمعت جلبة ورأيت  
بعضا من صغار الضباط يجولون من جانب الى آخر من البيت ، فدخلت.  
للزيارة فوجدت عرابى وجمعا غفيرا من الضباط ، ووجدت معهم أحد  
أساتذة المدرسة الحربية « ل. بك. س » وكان من الناقمين على الوزارة  
لأمر لا يستحق الذكر ، فجلست واستمر الحديث فى وجهته ، وكان  
موضوعه الاستبداد والحرية ، وتقييد الحكومة بمجلس النواب ، وأن.  
لا سبيل للأمن على الارواح والاموال الا بتحويل الحكومة الى مقيدة.  
دستورية ، فأخذت طرفا من البحث فأقمنا على الجدل ثلاث ساعات كان.  
عرابى والاستاذ من طرف ، والكاتب من طرف ..

هما يقولان : « ان الوقت قد حان للتخلص من الاستبداد وتقرير  
حكومة شورية » والكاتب يقول : « علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم  
بعض سنين ، وأن نحمل الحكومة على العدل بما تستطيع ، وأن نبداً

(١) هو طلبية باشا عصمت قائد الاسكندرية فى الحرب مع الانجليز ، وهانهم فى موقعة كفر  
الدوار فى ١٩ أغسطس ١٨٨٢ م

بترغيبها في استشارة الأهالي في بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيدا لما يراد من تقييد الحكومة ، وليس من المصلحة أن تفاجيء البلاد بأمر قبل أن تستعد له ، فيكون من قبيل تسليم المال للناشئ قبل بلوغ سن الرشد ، فيفسد المال ويفضى الى الهلكة ، وختمت قولى بأنه لو فرض أن البلاد مستعدة بأن تشارك الحكومة في ادارة شئونها ، فطلب ذلك بالقوة العسكرية غير مشروع .. فلو تم للجند ما يسعى اليه ، ونالت البلاد مجلس شورى لكان بناء على أساس غير شرعى ، فلا يلبث أن ينهدم ويزول ، وأرى أن هذا الشعب قد يجر الى البلاد احتلالا أجنبيا يستدعى تسجيل اللعنة بسببه الى يوم « القيامة »

تبسم عرابى ابتسام الساخط ، وقال : « أبذل جهدى في ألا أكون مورد هذه اللعنة ، وليس الجند هو الطالب لتأليف مجلس النواب وانما هو مؤيد لطلب الاعيان ووجوه البلاد »

فسألته : « وعلى من تعتمد ؟ ومن أخذت الميثاق على ذلك ؟ » فهمس بصوت لا يسمعه الا ثالثنا : « ان سلطان باشا قد عاهدنى على أن يجمع أعيان القطر من الوجهين ليتقدموا بالطلب متى سقطت وزارة رياض باشا » .. ثم انصرفنا

بعد أن استوثق عرابى لنفسه من سلطان باشا ، وأيقن بما وعده أن أهالى البلاد وأرباب الكلمة فيها سيكونون معه ، وبذلك تحول عمله من عصيان غير مشروع الى طاعة للأمة غير ممنوعة ، فقد رأى أن يضع نفسه ومن معه من الضباط موضع الآلة المنفذة لرغبة الأمة ، كأن الأمة هى التى استعملته ، فالثورة ثورة الأمة لا ثورة الجند ، وكل ما تأتى به الأمة فى سبيل حريتها وتقويم ما اعوج من حكومتها لا يصادف منكرا ولا يستوجب عقابا . هذا هو الحجاب الممزق الذى كان يسدله على أعين الناظرين اليه ، والحجة الساقطة التى يقيمها للناقدين عليه .. وبعد أن استحکم هذا الخيال من نفسه ، أخذ يترقب الفرصة لجمع



رجالهم لالزام رياض باشا بتقديم استعفائه ، وكان يصل ليله بنهاره في التفكير والتدبير والمشاورة مع اخوانه ، وكلما عقدوا عزما على شيء عرض لهم ما ينقصه

كل ذلك والخديو توفيق بالاسكندرية ، وهم ينتظرون عودته ، وكان يزيد قلقهم ما كان يبلغهم من أنه استمال آلاى الحرس وأميره على فهمي، وعاهده على أن يكون قوة تقضى على من يخالف الأوامر من بقية الآلايات ، وقد كانت الاشاعات في ذلك لا تخلو من صحة ، وقد أخبرني المرحوم على باشا مبارك يوم مجيئه من الاسكندرية في معية الجناب العالي ان افتراق آلاى الحرس عن بقية الآلايات واستعداده لتنفيذ ما يصدر اليه من الأوامر مما لا ريب فيه ، وانه عما قليل سيؤخذ في تقرير أمر فاصل تنحسم به هذه الفتنة

عاد الخديو توفيق من الاسكندرية في أوائل شهر شوال سنة ١٢٨٩ هـ ، وبعد عودته بأيام تجلى ذلك الأمر الفاصل الذي سمعت خبره من على باشا مبارك .. فاذا هو من غرائب التدابير ، بل من عجائب الالاعيب ، ذلك ان الحضرة الخديوية بعد أن استمالت على فهمي ورجالهم وأعدتهم لمغالبة من يستعصى عليها من سواهم ، استمالت أيضا أمير الآلاى الخامس الذي كان مقيما بالاسكندرية بجهة باب شرقي ، فأرادت أن ينقل الآلاى الثالث الذي كان مقيما بقلعة المعز بالقاهرة الى الاسكندرية، وأن يأتوا بالآلاى الخامس الى مصر بدلا عنه ، وبذلك يكون في مصر آلايان تحت طاعة الخديو ، والله أعلم ماذا أراد الخديو توفيق أن يفعل بهذين الآلايين بعد استقرارهما في مصر

هل كان الخديو يريد أن يصدر أمرا بالقبض على رؤساء الفتنة ، فاذا قامت جنودهم لحمايتهم صدر الأمر بالحرب والقتال بين الفريقين الطائعين والعاصيين ؟

ما أظن أن ذلك خطر بالبال . ولو مر ذلك بذهن الخديو لسهل عليه حسم الفتنة في اليوم الثاني من واقعة قصر النيل ، ولكنها هواجس كانت

تجول في الاذهان ، ثم تصدر عنها حركات وأعمال لا يدري صاحبها نفسه ما الغاية التي يريد منها !..

ولما استحکم اليأس من نفس عرابي (١) ، وظن أن الخطر محقق به كتب هو وجماعة من الضباط عريضة الى السلطات يشكون فيها من الظلم ، ويلتمسون ارسال مأمور خاص لتحقيق ما يشكون منه ، وكان ذلك قبل حادثة عابدين بثلاثة أيام

(١) اشار الاستاذ الامام الشيخ محمد مبدع في هذا الفصل الى ان من اسباب طلب عرابي باشا عقد مجلس النواب ورثته مريضة الى السلطان هو خوفه هو وزملاؤه على حياتهم ، وأنه اراد بطلب مجلس النواب ان يضيف قوة الى قوته . ومع تسليمنا بأن الحكم النيابي الصحيح هو قوة تظهر فيها سلطة الامة الا أننا لانوافق على أن عرابي لم يطلب هذا المجلس الا لحماية نفسه . وهنا ننقل ما كتبه عرابي في هذا الموضوع في مذكراته ، وفيه تبين أسباب طلبه التحقيق لقيام هذا المجلس .. قال : « أخذت في نشر الكاري بين علماء الامة واميانها وعهد البلاد ومشايخ العربان ، طالباً منهم مساعدتي في حفظ الامن والراحة العمومية : حتى نتفرغ للنظر في مصالح البلاد ، وكنتوفر على انشغالها من وحدة الاضطلال ، وهادئة الثلاثي التي سقطت فيها ، أو كادت ، بتفريط الحكومة ، في حقوق الامة وبمسها كثيراً من الاراضي الاجانب مع تعيين كثير منهم في ادارات الحكومة ومصالحها بالربط الفادحة ، ومسعيها في رفع الاحجار الطبيعية ، الموجودة في بؤغاز الاسكندرية ، وغير ذلك مما كان يندب بأوخم العواقب . ثم اثبت لهم ان سكوتنا عن حفظ حقوقنا عجز وجبن قاضح ، ومشاركة للحكومة في التفريط في وطننا العزيز

» وانضيت اليهم بأننا قد اعتمدنا على البارئ سبحانه وتعالى فيما اعترناه من منع كل ما من شأنه الاجحاف بحقوقهم . وسبيل ذلك اسقاط الوزارة الحاضرة التي لا تريد بالبلاد خيراً . وتشكيل مجلس نواب يعهد اليه في الوصول بنا الى الحرية المنشودة .. وختمت المنشور بطلب مساعدة أبناء البلاد وتأيدهم

» وبناء على ذلك وقدت علينا الوفود من جميع انحاء القطر ، وسلمتنا فرائض النيابة منها . ولوشت اليها العمل لما فيه مساعدة البلاد ، وخلاصها من براثن رجال الاستبداد ، معلنة تضامنها معنا في كل ما نقوم به من اعمال الإصلاح وما ينتج عنها من النتائج »

## الفصل السادس

### أسباب الحادثة

أصدر ناظر الجهادية أمرين في يوم واحد ، أحدهما الى ابراهيم بك حيدر أمير الآلاى الثالث الذى كان يقيم فى القلعة بالتوجه الى الاسكندرية ، والآخر الى حسين بك مظهر أمير الآلاى الخامس أن يبارح الاسكندرية الى القاهرة ليحل محل الآلاى الثالث ، ثم أصدر أمرا الى أمير الآلاى الثانى أن يرسل من الضباط من يستلم المخافر من ضباط آلاى القلعة عند سفرهم ، فعندما وصل الأمر الى ابراهيم بك حيدر وعرفه الضباط أسرع اثنان منهم الى عرابى وأخبروه به ، ففزع لذلك هو ومن معه وهالهم ، وتمثل لهم سوء العقبى ، وأيقنوا أن فى ذلك القضاء عليهم ، فأمر عرابى أولئك الرسل أن ينادوا فى ضباط آلاى القلعة بعدم التسليم وبالبقاء فى مواقعهم ، وأن يسكوا من يأتى اليهم من الآلاى الثانى للاستلام ، ففعلوا واجتمعت كلمتهم على ذلك ، وعندما حضر الآلاى الثانى كتب محمد أفندى الرملاوى ومحمد أفندى السيد الى عرابى بما محصله : « ان أربع بلوكات حضرت لاستلام مواقع الآلاى ، وأمتعة أبنائكم قد ربطت ، فأحضروا بنصف آلايكم والافنجن قائمون ، أما النصف الآخر فيبقى تحت قيادة محمد أفندى الزمر الى العصر ثم يحضر »

عند ذلك كتب عرابى الى نظارة الجهادية ينبئها بأن جميع الآلايات ستكون فى ميدان عابدين فى نهاية الساعة التاسعة من ذلك اليوم ، وهو اليوم الخامس عشر من شهر شوال سنة ١٢٩٩ هـ (١) بعد أن كتب الى

(١) الصحيح يريد سنة ١٢٩٨ هـ فقد أرسل عرابى الى جمع الآليات الشاة والفرسان والمدفعية الموجودة بالقاهرة ان يوافوه فى ساحة عابدين فى الساعة العاشرة ( بالوقت العربى ) عصر يوم الجمعة ١٥ شوال سنة ١٢٩٨ هـ الموافق ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ م لعرض طلباتهم على الخديو

جميع الآلايات أن توافيه في الموعد ، وكتب الى الجناب الخديو يحيطه بذلك علما ، والى قناصل الدول يؤكد لهم أن الغاية من جمهرة الجند داخلية محضة لطلب أمور عادلة ، فليكونوا مطمئنين على أرواح رعاياهم وأموالهم وأعراضهم

أرسل الجناب الخديو رضا باشا ليسأل عرابى عن السبب في اجتماع العساكر بساحة عابدين ، فأجاب عرابى أن للجند مطالب يريد انفاذها ، فجاء رضا باشا (١) ، وعرض الأمر على الخديو ، فأرسل طه باشا ليطلب الى عرابى أن يسكن ويرجع عما عزم عليه ويحذره العاقبة ، وكان الوقت قد حضر فقام الآلاى بحضرة طه باشا وقام معه آلاى الطبخية . أما الخديو توفيق فقد توجه بنفسه الى آلاى الحرس ( الآلاى الاول ) وأخذ ينصح الضباط ويذكرهم بأنهم أبناءه وحرسه الخاص ، وينذره بعواقب مثل هذه العصية .. عصبية الجاهلية ، فصاحوا جميعا : « نحن جميعا فداء لولى نعمتنا » فعند ذلك أمر جنابه أمير الآلاى أن يوزع العساكر داخل السراى ، وأن يقيمهم على نوافذها ليقوها من الهاجمين عليها .. ثم استصحب رياض باشا وذهب الى القلعة ، وعند وصوله طلب الضباط وسألهم عن الحامل لهم على مخالفة الأمر الصادر اليهم فأنكروا المخالفة ، فالتفت الى أمير الآلاى ابراهيم بك حيدر يستفهم منه فأجابه أن « فودة بك حسن » هو الذى أغرى الضباط بالمخالفة ومنعهم من التسليم ، وكان « فودة بك » على مقربة من رياض باشا فجذبه من طوقه وقال له : « أمثلك يقاوم أوامر الحكومة ويمنع من تنفيذها ؟ » وبينما هم فى الكلام ، اذ ضرب أحد البروجية نوبة « سنكى ديك » (٢) فأسرعت العساكر الى تركيب الحراب على البنادق ، وأحاطوا بالخديو ورئيس النظار ، وصاحوا : « أطلق البكباشى » ، فأمر الخديو بتركه وأخذ يخاطبهم : « ألسن خديويكم ؟ ألسن ولى أمركم ؟ هل تأخر لأحد

(١) اللواء رضا باشا واللواء طه باشا كلاهما كان ياورا للخديو توفيق  
(٢) هذه النوبة يراد بها أن يضع الجنود السلاح فى رموس البنادق . وقد امر بئدالها  
البيوزباشى محمد السيد

منكم راتب ؟ أو نقصت له مئوته ؟ أو حرم من حقه في ملبس أو نحوه ؟ فلم جهرتم بالعصيان وخالفتم أوامري ؟ » فأجابوه بقولهم : « نحن جميعا مطيعون لأوامر ولى نعمتنا ، ولكن قيل لنا ان الغاية من الأمر بسفرنا هو اغراقنا في البحر ، عند مرورنا فوق كوبرى كفر الزيات .. »

فأسف الخديو لذلك ، وانصرف على أن يذهب الى العباسية لمنع عرابى من المجيء الى ميدان عابدين ، فبلغه وهو في الطريق ان الآلاى قد سبق الى ساحة السراى ، فرجع هو ورياض باشا ، فوجد الساحة غاصة بالعساكر من كل فريق فدخلوا من الباب الشرقى

وأول من حضر من الآلايات آلاى السوارى تحت قيادة أحمد عبد الغفار ، ثم آلاى عرابى وآلاى الطوبجية تحت قيادة اسماعيل بك صبرى ، ثم الآلاى الثانى تحت قيادة البكباشية لأن أميره محمد بك شوفى أبى أن يحضر معه ، ثم آلاى عبد العال حلمى وهو آلاى السودان تحت قيادة أمير الآلاى ، وفرقة المستحفظين يقودها ابراهيم بك فوزى ، واجتمعوا جميعا في مبتدأ الساعة التاسعة (١) حسبما كتب عرابى

وصل عرابى يقود آلايه ومعه الطوبجية تتخلل بطاريات مدافعه فرق العساكر وهو ممتط جواده شاهرا سيفه ، ويحيط به عشرة من ضباطه شاهرى السيوف كحرس له .. أنباء بعض الضباط أن على فهمى قد أدخل عساكره في السراى للدفاع عنها اذا دعت الحال ، وقد ادخر كمية وافرة مما يحتاج اليه لذلك ، فاستدعى على فهمى واشتد في توييحه ورماه بالخيانة ، فاعتذر بأنه فعل ما فعل مداراة منه للخديو وتدييرا لحيلة سياسية ثم أمر بالنداء في الآلاى بالنزول فنزلت العساكر جميعا واصطفقت في الساحة مع بقية الجنود

وكان قناصل الدول ومستشارو الحكومة ونظارها قد حضروا الى سراى عابدين ، وعندما رأى عرابى أن الجيش قد اجتمع بأكمله ما عدا

(١) الساعة العاشرة في مذكرات عرابى

آلاى القلعة ، فانه بقى فى مقره بأمره - أمر بإقامة الخفر على أبواب السراى لمنع من يدخل اليها ومن يخرج منها

### عراى والخديو توفيق

وأشرف الجناب الخديو على العساكر ، وأمر بإحضار عراى ، فحضر راكبا جواده سالا سيفه ، محفوقا بضباط السوارى يحرسونه .. فأمره بإعتماد سيفه والنزول الى الارض وإبعاد الضباط عنه ففعل ، ثم أخذ يخاطبه :

« ألم أكن سيدك ومولاك ؟ ألسنت أنا الذى رقيتك الى رتبة أمير آلاى » فيجيبه عراى : « نعم » ثم سأله : « لم حضرت بالجند الى هنا ؟ » فقال : « لطلبات عادلة ، وهى عزل وزارة رياض باشا ، وتشكيل مجلس النواب ، وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد ، وعزل شيخ الاسلام » الشيخ العباسى (١) « .. » فقال الخديو : « كل هذه المطالب ليس من شأن الجند أن يطلبها » فسكت عراى ولم يجب بشئ ..

ثم أشار القناصل على الخديو بالرجوع الى داخل السراى خوفا مما عساه أن يعقب هذه المخاطبة مما لا يحمد ، ثم تولى المستر كونفى (٢) المستشار الانجليزى فى المراقبة الثنائية وقنصلا انجلترا والنمسا المخابرة مع عراى فى مطالبه ومطالب الجند ، فقال المستر مالت قنصل انجلترا لعراى : « ان عزل الوزارة من خصائص الخديو ، وطلب تشكيل مجلس النواب من شأن حقوق الأمة لا الجند ولا ضرورة لزيادة عدد الجيش ، فان البلاد آمنة مطمئنة ، وليس فى الأمم من يريدونها بسوء ، أما التصديق على قانون العسكرية ، فسيكون بعد اطلاع الوزارة عليه ، وأما عزل

(١) نفى عراى باشا فى مذكراته انه طلب عزل شيخ الاسلام . ولم يذكره احمد شفيق باشا وكان شاهد ميان لهذه الحادثة ، ولكن شيخ الاسلام محمد العباسى النهدى لم يكن من انصار الثورة العرابية ، وكان من الموالين للخديو ، فلما سقطت وزارة رياض باشا وتولت وزارة شريف باشا سعى عراى وصحبه فى خلعه وكان يتولى منصبه الافتاء مع مشيخة الازهر ، فخلع من المشيخة وبقي فى منصب الافتاء

(٢) هو السير اوكلن كونفى

شيخ الاسلام ، فقد يحصل بعد بيان أسبابه »

أجاب عرابي : « يا حضرة القنصل ان ما يتعلق بالأهالي من هذه المطالب لم تنهض اليه الا بالنيابة عنهم فقد أقاموني نائبا عنهم في طلبه وتنفيذه بواسطة هذه العساكر الذين هم أبناءهم وأخوتهم ، واعلم أننا لا نفارق هذا المكان ما لم تنفذ جميع تلك الرغائب التي أبديتها »

وقال القنصل : « تصرح بأنك تريد الوصول الى ما تطلب بالقوة ، وهذه هي الهمجية التي تجر الخطر الى بلادك ، وربما تقضى الى ضياعها » فقال عرابي : « وكيف ذلك ومن الذي يعارضنا في شئون داخلينا ؟ .. ولئن تحرش لذلك أحد فاعلم أننا نقاومه بكل ما لدينا من الحول والقوة ولو أدى ذلك الى فنائنا عن آخرنا » فقال مالت : « وأين تلك القوة التي تكافح بها وتناضل عن بلادك » فقال : « أستطيع أن أحشد في زمن قصير مليوناً من العساكر كلهم يسمعون قولي ويتبعون اشارتي ، فان كانت دولة انجلترا هي التي تستعد لخصامنا ، فلتكن على حذر من ثورة عامة في الهند تقضى على حياتها فيه » فقال القنصل : « وماذا تفعل لو لم تجب على طلبك » فقال : « كلمة واحدة أقولها » فأجاب مالت : « ما هي ؟ » فقال عرابي : « أقولها عند اليأس والقنوط »

ثم انقطعت المخابرات بين الجنب الخديو وعرابي مدة ثلاث ساعات ، استولى فيها الضعف على جميع من كانوا داخل السراي من نظار وقناصل وغيرهم ، وظنوا انه من وراء هذا الاجتماع نيرانا تلتهب ، وحربا تنتشب .. ولذلك أفضت مداولاتهم الى التسليم والرضا باجابة عرابي الى ما يطلب ، لكن على شريطة التدرج في التنفيذ ، وأرسلوا اليه يخبرونه بذلك فقبل ما عرض عليه ، واشترط أن تعزل الوزارة قبل انصراف العساكر ، فجاءه الخبر في الحال بقبول استغائها ، فطلب أن يعين شريف باشا رئيسا للنظار ، ومحمود سامي باشا ناظرا للجهادية ، فقبل شرطه وانصرف العساكر

## سقوط وزارة رياض

استدعى شريف باشا لقبول رئاسة النظار ، فتردد في ذلك (١) أياما لاحساسه بالضعف عن القيام بأعباء الوظيفة ، اذا استمر الجند على مناوآته للحكومة واستبداده بالسلطة فيما يطلب ، واستعداداه عند الإبطاء في موافاة مطلبه الى احاطة كرسى الحاكم بالسلاح وتهديده بالوثبة عليه اذا لم يسارع في سوق رغائبه اليه ، ولظنه أن دولتي فرنسا وانجلترا ربما كانتا معضدتين لرياض باشا ويههما أن يبقى في مسند الوزارة .. فاذا تولاهما غيره خشى أن تنصبا له المكاييد ، وتقيما له العثرات في سيرة ولسابق علمه بالمخابرات التي كانت بين الضباط وبين الآستانة ، وبما في بعضها من الثناء عليه ، وانه ورياض باشا على طرفي تقيض .. فرياض باشا هو ممثل النفوذ الأجنبي في مصر ، وشريف باشا هو الامام المنتظر لتخليص مصر من ذلك النفوذ واعلاء الكلمة العثمانية فيها ، ويخشى أن تظهر الحوادث عجزه عما يؤمل فيه

كان محمد شريف باشا رحمه الله من أقوى عوامل هذه النهضة التي انقلبت الى فتنة ، كان من القائلين ان النفوذ الاجنبى قد بلغ حدا لم يكن يمكن أن يبلغه لو لم يتساهل رياض باشا بالتسليم للأجانب في كل ما يطلبون . كان شريف باشا يقنع جلساءه بأنه اذا ملك فيها ، أوقف الأجانب عند حدودهم ، وسار بالوطن شوطا عظيما في مجده ..

كان هو ورؤساء الفتنة (٢) يتراسلون ويتواعدون .. ولهذا طلبوه

(١) وكان شريف باشا بالاسكندرية وقتئذ ، فاستدعى بالتلغراف وحضر يوم ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨١ م في الفجر بقطار مخصوص ، وتقلدا للوزارة وهي وزارته الثالثة - في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ م

(٢) كان الأستاذ الامام وقتئذ المحرر الاول للوقائع المصرية ورئيس تحريرها . وكان في اول الثورة العربية منتقدا للطريقة التي اتبعها الثوار مع رياض باشا رئيس الوزراء الذي خلص البلاد من كثير من المظالم ، ويرثى لحملتهم عليه ، وكان من رأيه اخذ الامور بالسياسة لا بالعنف ، وكان تقديره لوطنية رياض باشا واعتداله في مسألة مجلس النواب مع رغبته في قيامه ، وخوفه من استيلاء الاجانب على البلاد اذا ما تفاقمت الثورة والتجأ أمير البلاد الى المساعدة الأجنبية ، كان ذلك كله يدفعه الى نقد مراهبي ، ونصيحته له ولاخوانه بأخذ الامور بالتدريج لا بالطرفة حتى لا يزداد النفوذ الاجنبى ، خصوصا وقد كانت انجلترا وفرنسا تترسان بمصر الدوائر ، وتتمسكان الى الاستيلاء عليها



رئيسا للنظار ، ولو عرض عليهم سواه لما قبلوه  
 كان وجه الرئاسة يهش له على بعد ، وجمالها يخدعه . وهو منها على  
 موعد ، حتى اذا ما دنا منها ، ألفاها شكسة شرسة !



وقد كان هو والاسناد جمال الدين الانغاني يتوقعان ذلك من تصرفات اسماعيل التي اتاحت  
 للاجانب فرصة التدخل ، واخذوا يميلون لزيادة تدخلهم واستيلائهم على مقاليد الامور .  
 ومع انتقاد الشيخ محمد عبده للثورة ورياسها مرأى ، فلم يكن ميالا للتخدير ولا رافيا من  
 تصرفاته هو ورجال السراى ولم يؤيد عملا من اعماله ، بل كان ينتقد سياسته المخالفة لمصلحة  
 البلاد . ولما رأى ان المصلحة في الاتحاد انضم الى مرأى وزملائه في طلبه مجلس النواب ،  
 وعندما قامت الحرب انضم اليه وكتب في الوقائع يؤيده ويدعو الى مساعدته بالنفس  
 والمال . وقد حوكم معهم وحكم عليه بالنفي ثلاث سنوات خارج القطر . ويدل على ذلك  
 قصيدته التي نظمها في السجن . قال فيها :

على اساس من التقوى ارايه  
 وشيمة الحر ثأبى خفض اهليه

سريت للمجد هونا غير ذى مجل  
 مجدى بمجد بلادى كنت اطلبه

## الفصل السابع

### سفر عرابى الى رأس الوادى

قبل شريف باشا الوزارة بعد تردد وألفها في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ م ، وكانت له الرئاسة ووزارة الداخلية ، ومحمود سامى البارودى باشا للحرية والبحرية ، وعلى حيدر باشا للمالية ، واسماعيل أيوب باشا للاشغال ، ومصطفى فهمى باشا للخارجية ، ومحمد زكى باشا للمعارف ، والاقواف ، ومحمد قدرى باشا للحقانية

وقد انتهجت الأمة بوزارة شريف باشا ، وهناك الضباط وسائر طوائف البلاد . وقد اجتمع الزعماء من الضباط والأعيان في منزل محمد سلطان باشا وكتبوا عريضة بطلب انشاء مجلس نواب ، وذهبوا برئاسة سلطان باشا الى شريف باشا وقدموا اليه هذه العريضة ملتصين رفعها لسمو الخديو توفيق ، فوعدهم بذلك وصرح لهم بأن تأليف مجلس النواب هو الوسيلة الوحيدة لما يقصده من اصلاح والسبب القوى لما يبتغونه من النجاح

وقد بر شريف باشا بما وعد به من انشاء مجلس النواب الذى افتتحه الخديو توفيق ، فوعدهم بذلك وصرح لهم بأن تأليف مجلس النواب هو ادارية وقضائية وعسكرية ، وعمل على تحسين حالة البلاد

وقد صارح أحمد عرابى وصحبه - بعد توليه الوزارة بقليل - بأن مصلحة البلاد تقضى بابعاد الآلايات التى يتولون قيادتها عن العاصمة ، حتى تهدأ الخواطر ، ويقوى سلطان الحكومة أمام الدول الاجنبية ، فوافق عرابى مرغما ، وسافر عبد العال حلمى مع آلايه الى دمياط ، وسافر عرابى مع آلايه الى رأس الوادى بالشرقية . وقد بقى فيه عرابى ثلاثة أشهر يتنقل فى الجهات ويبحث أفكاره ، فرأى شريف باشا أن يعينه

وكيلا للحرية ، فعاد الى العاصمة واستقر بها وتوطدت الصلة بينه وبين البارودى وزيرها ، وعظم نفوذه

وبعد أن ألفت وزارة شريف باشا مجلس النواب ، أخذ فى وضع دستور له ، وكان يدعى فى ذلك الحين « اللائحة الاساسية » أو « القانون الاساسى » . وقد وضع على أحدث المبادئ العصرية ، فهو يحتوى على القواعد الرئيسية للنظم البرلمانية كتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس النواب ، وتخويل المجلس حق اقرار القوانين بحيث لا تصدر الا بموافقته ، ومناقشة الميزانية وتقريرها ، والرقابة على أعمال الحكومة وعدم فرض أية ضريبة الا بعد عرضها على المجلس وموافقته عليها ، الى غير ذلك من النظم النيابية الصحيحة التى تقرر سلطة الأمة . ولما علمت فرنسا وانجلترا بهذا الدستور تذرعت بأزمة سياسية حتى لا يصدر ، ولكى يتاح لها التدخل المسلح فى شئون مصر .. وهنا نستأنف مذكرات الاستاذ الامام ، وهى فيما يلى من الصفحات مركزة ننقل بعضها مما يحتاج اليه المقام عن الشيخ محمد رشيد رضا الذى نقلها عن دفتر مكتوب بخط الامام . ونعلق عليها بما يحقق أحداثها ويوضح أغراضها ومراميها

### سفر عرابى

قال الاستاذ الامام :

لم يذهب عرابى الى رأس الوادى الا بعد أن صدر الأمر بتأليف مجلس النواب على طريقة جديدة . وكان الخديو توفيق قد حاول أن يستدعى أعضائه على مقتضى النظام القديم (١) فأبى الا نظاما جديدا . وعند سفره ألقى على مودعيه خطابا طويلا شكاه فيه من العقبات التى تصادفها مطالب الشعب من وضع دستور يكفل له الحرية ، ويؤمنه من

(١) يقصد نظام مجلس شورى القوانين الذى كان فى عهد الخديو اسماعيل . وكانت السلطة فيه للخديو

الاستبداد ، وصرح فيه بأن الخديو والنظار ، ومن على شاكلتهم كلهم لا يميلون الى مساعدة الأمة على ما تطلب ، وبأن أعداء الأمة هم الدائنون ومعاونوهم من الأجانب يدفعهم الطمع الى الاستيلاء على جميع موارد الرزق في مصر ، وان من الافتراء أن يقال ان البلاد تريد سلب الأموال والاستثمار بالمنافع ، وسلب حقوق الدائنين ، وانما الحق أن هناك شعبا يطالب بأن يكون على أثر بقية الشعوب تحت حماية قانون عادل يؤمنه من الاعتداء على الاشخاص والأموال

### مؤامرة فرنسا وانجلترا

في أواخر سنة ١٨٨١ ، أراد غمبتا ارسال ٢٥ ألف عسكري لتقرير النظام في مصر ، مع انه لم يكن حصل فيها شيء . وكان ذلك في وقت المخابرة بين فرنسا وانجلترا في عقد معاهدة تجارية وقد قال غمبتا في محادثة مع اللورد ليون فيما يتعلق باستدعاء مجلس النواب : « قلبي مستلئ رعبا .. ليس من الممكن الحزر والتخمين على ما عساه يقرره ما يسمى بالحزب (١) الوطني .. من الجائز أن يعمد الى تقرير طريقة مختلفة تخالف مصالح الاوربيين .. لا أجد وسيلة للاحتياط لمنع نهضة جديدة أفضل من افهام المصريين ان انجلترا وفرنسا لا يمكنهما أن تحملا شيئا من هذه المطالب ولا تلك النزعات كان اتفاق « غمبتا » (٢) واللورد ليون نوعا من التعصب ، اذ لم يعرف مثل هذا الاتفاق على اسبانيا واليونان مع كثرة ديونهما ، وانهما

(١) الحزب الوطني هو وليد جمعية حلوان السابق ذكرها في هذه المذكرات فان هذه الجمعية التي تالفت من بعض الاميان المعارضين لسياسة رياض باشا ، تحولت فيما بعد الى حزب انضم اليه الزعماء الوطنيون من الضباط والوجهاء .. وكان منهم الشيخ محمد عبده ، وقد اجتمعوا في منزل محمد سلطان باشا . ووضعوا برنامجا له قبل ان واضعه الشيخ محمد عبده . وقد نشروا هذا البرنامج حينما ذاع بخوف الأجانب منهم ، وارسله مستر بلنته بواسطة السير وليم جريجوري الى جريدة التيمس فنشرته في اول يناير سنة ١٨٨٢ م .  
(٢) غمبتا السياسي الفرنسي تولى رئاسة الوزارة ووزارة الخارجية الفرنسية في نوفمبر سنة ١٨٨١ م وكان حريصا على التدخل في شئون مصر . وقد ساهم انشاء مجلس النواب اذ كان يكره الحرية للشعوب الشرقية . وقدفاوض اللورد جرانفيل وزير خارجية انجلترا في ضرورة التدخل المشترك . ولذلك اشتركت الحكومتان في ارسال مذكرة الى الخديو توافيق ٨ ابريل سنة ١٨٨٢ م بلفاه اتفاقهما على تأييده

أصعب حالا في الوفاء من مصر

### مقاومة فرنسا وانجلترا

في ١٢ يناير سنة ١٨٨٢ م ، سأل اللورد جرانفيل وزير خارجية انجلترا مالت ( ادوار مالت المعتمد البريطاني ) : « أخبرني بالتلغراف ما هي حدود سلطة مجلس النواب في المالية المصرية على حسب ما قرره الجمعية العمومية والشروط التي تطلبها ؟ »  
فأجابه في ١٣ منه :

« مرتبات الموظفين الذين لم يكن تعيينهم بعقود مع الحكومة تكون تحت مراقبة المجلس ، وعلى ذلك يمكنه أن يلغى مصلحة المساحة مثلا لأنها لم يكفل تشكيلها باتفاق دولي ، ويمكنه الاستغناء عن عدد كبير من الموظفين الأوربيين في الادارة المصرية »

وقد قال مالت : « اذا حاز مجلس النواب حق تقرير الميزانية فقدت المراقبة ( المراقبة الثنائية ) سطوتها في الأمور المالية »

وفي ١١ يناير سنة ١٨٨٢ م ، قال مالت : « انه قد تقرر عنده ان المصريين قد دخلوا بحق أو بغير حق في طريقة الدستور وان اللائحة التي يريد المصريون تقريرها لمجلس شوراهم تمثل في الحقيقة شرائط حريتهم . وحيث قد تقرر هذا المجلس بحالة نهائية فلا شيء يمكن أن يبطله ، ولا أن يلغيه الا أن يكون تدخل ( أجنبي ) وهو آخر ما ينتهي اليه العمل . وقد أكد سلطان باشا ( رئيس مجلس النواب وقتئذ ) لفنصل انجلترا ان النواب لم يوافقوا الا آمال الشعب ، وليس من ضغط عسكري ، ولا يمكنهم أن يعدلوا عما يوافق رغبة الأهالي

فأجابه : « لا انتظر لأدنى مساعدة بما يختص بهذه المسألة ( تقرير الميزانية ) لما في ذلك من الخطر . وما يقولونه وما يطلبه النواب لا طريق لنيله الا القوة ، واستعمالها اعلان للحرب . وقد علمت ارادة انجلترا وفرنسا فيما يتعلق بذلك

وفي ٢٠ يناير سنة ١٨٨٢ م ، في مجموعة أعمال البرلمان نمرة ٣٢٣٠  
تلغراف من مالت يقول فيه :

اذا تمسكنا بمعارضتنا لمجلس النواب في أن ينظر في الميزانية كانت  
المدخلة العسكرية أمرا اضطراريا ، فان اصرار مجلس النواب على رأيه  
في ذلك جزء من مشروع تام أعد للثورة

وفي ١٧ يناير سنة ١٨٨٣ ، قدم المراقبون طلبهم فيما يتعلق بمجلس  
النواب ومطالبه قائلين :

ان الأوامر الخديوية السابقة قد ربطت الادارة المالية بدولتي  
فرنسا (١) وانجلترا ، فاليهما يرجع السماح للمجلس بحق اعطاء رأيه في  
الميزانية وعدمه ، وهما لا تسمحان بذلك لما ظهر من مقصد المجلس في  
تنقيص عدد الموظفين الاوربيين ، وفي ٢٧ منه أمضوا المذكرة بذلك باسم  
الدولتين

وفي ٢ فبراير سنة ١٨٨٣ ، استعفى شريف باشا وعين محمود سامي  
باشا البارودي

### وزارة محمود سامي البارودي

\* قرر مجلس النواب تعيين لجننتين لتخفيف بعض الشكاوى التي  
رفعت على مصلحة المساحة وعلى ادارة الجمارك ، وظهرت وجوه الخلل  
في أعمال الموظفين الاوربيين ، وتحقق ما كان يخشاه المراقبون من مقاصد  
المجلس ، وقد رفض مسيو كاليار مدير الجمارك أن يحضر جلسات  
التحقيق وعارض في أعماله

وقد وقف المجلس على تقرير قدم للمراقبين من أحد موظفي الدومين  
المسمى « روفسل » يطلب فيه مراقبة المجلس ، حيث أعطى الفلاحين آمالا

(١) تدخلت فرنسا وانجلترا مرتين في شئون مجلس النواب ، الاولى عند وضع اللائحة  
الاساسية « الدستور » والثانية عند تقرير الميزانية ، وقد طالبتا بشدة حرمان المجلس  
من حق تقرير الميزانية . وكان من رأى شريف باشا تأجيل البت في الميزانية لبتفادي الازمة  
ولما لم يوافق المجلس استقال من الوزارة ، وخلفه محمود سامي البارودي في الرئاسة ،  
واختار مرابى ناظرا للجهادية والبحرية « وزيراً للحربية والبحرية » . وذلك في ١ فبراير سنة  
١٨٨٢ م

فى أن يصلوا بالطفرة الى ما يزيد من حريتهم ، واشتكى من أن المدير لا يحبس فى الحال من يطلب منه حبسهم لتوقفهم عن العمل ، ومن أن كل شخص يحبس بغير أمر قضائى يرسل بالتلغراف الى نائبه ، وعلى ذلك يسأل المدير عن السبب فى الحبس . وهذا تظاهر من الأهالى بالأحوال الجديدة التى يننون عليها حريتهم وخلصهم

✽ غوردون باشا يكتب الى « التيمس » فى يناير سنة ١٨٨٢ :  
« يقال ان مصر تسرع فى الغنى والسعادة وأنها فرحة مسرورة . ولا أظن أن شيئاً قد تغير عما كان الا ما كان من ضمانه الدين ، فانها اليوم أوثق ، أما الحبوس ( السجون ) فغاصة بأولئك المساكين من الفلاحين !

#### مسألة الضباط الجراكسة

فى مسألة الجراكسة قدم عرابى الحكم وطلب العفو بتخفيف العقوبة ، فأرسل الخديو الحكم الى الآستانة ، فطلب السلطان الأوراق ، وكان ما فعله الخديو بناء على نصيحة القنصلين قد أساء الى الوزارة ، وبدأ الخلاف ، وطلب من الخديو تسوية المسألة ، فأشار على القنصلين بالاصرار وطلب استعفاء الوزارة ( وزارة محمود سامى البارودى ) يقول مقدم هذه المذكرات :

« ان ما ورد فى هذه السطور من مذكرات الامام مقتضب يحتاج الى توضيح .. ذلك ان طائفة من الضباط الجراكسة دبروا مؤامرة لقتل عرابى وصحبه زعماء الحركة العرابية . وعلم عرابى بهذه المؤامرة فى شهر أبريل سنة ١٨٨٢ ، فعرض الأمر على الوزارة والخديو ، فتقرر محاكمة الضباط المتهمين أمام مجلس عسكري برئاسة راشد باشا حسنى . وقد بلغ عددهم أربعين ضابطاً فى مقدمتهم عثمان رفقى وزير الحربية السابق . وقد أصدر المجلس حكمه فى ٣٠ أبريل ، وهو يقضى على المتهمين بتجريدهم من رتبهم ونياشينهم ، ونفيهم الى أقاصى السودان

نقيا مؤبدا

« ولما رفع الحكم الى الخديو توفيق رفض الموافقة عليه لقسوته في رأيه ، وأصر على تعديله ، وتمسكت وزارة البارودى باقراره ، وأشار عليه معتمدا فرنسا وانجلترا بأن يرفض الحكم ويتمسك بتعديله فازدادت الازمة ، وزاد من سخط الوزارة عليه وسخط سائر العرايين ، خصوصا بعد ما أرسل الحكم الى السلطان بعد ما نالت مصر استقلالها الداخلى منذ عهد اسماعيل . وفي ٦ مايو عرضت الوزارة حسما للخلاف تعديل الحكم من النفي الى السودان الى النفي خارج القطر . ووافق الخديو على ذلك في ٩ مايو سنة ١٨٨٢ مع عدم تجريد المحكوم عليهم من رتبهم ونياشينهم

« وقد أدى ذلك الى تفاقم الخلاف ، فان الوزارة لم تعدل غير السطر الاول من الحكم . واتتهزت الدولتان الفرنسية والانجليزية هذا الخلاف، وبعثتا بأسطولهما الى ميناء الاسكندرية استعدادا للتدخل المسلح ، اذ عدتا هذه الحالة ثورة ، وأرسلت مذكرة في ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢ ، وطلبت فيها استقالة وزارة البارودى ، وابعاد أحمد عرابى مؤقتا من مصر مع بقاء مرتبه ورتبه »

### مذكرة الدولتين

جاء في الكتاب الازرق الانجليزى أن مستر مالت كتب أولا أن رئيس المجلس لا يمكنه بعد الآن أن يعتمد على أعضائه ، فان كراهمهم لكل تدخل أجنبى تزداد كل يوم عما قبله

ثم يقول فى مذكرة أخرى ان المذكرة التى قدمها لم يطلب فيها الا تنفيذ ما أراده أعضاء مجلس النواب ، وقد صرح المجلس بارادته على لسان رئيسه سلطان باشا

ويقال ان قنصل روسيا مسيو ليكس نصح مرارا أن أحسن طريقة لمعاقبة الشره الاوربى كان امتناع الاهالى كافة عن اعطاء الضريبة الخ



لكن عرابى ورفاقه كانوا يثقون بالدول غرورا ، ولا يعلمون ما كان يجرى حولهم ( كذا يقول القنصل ) فقد كتب مسيو مالت في ٧ مايو سنة ١٨٨٢ م ، قبل وصول المراكب ( الاسطول البريطانى ) يقول لحكومته : « ليس من الممكن الوصول الى أى حل كان للمسألة المصرية قبل أن تحصل أزمة شديدة في البلاد »

حصلت مذاكرة في المذكرة (١) التى قدمها وكلاء الدولتين بحضور سلطان باشا والنظار فوضع أحد الحاضرين هذا السؤال : « هل يمكن لنا أن نجمع المجلس ؟ » فأجاب سلطان : « أعلن ان ذلك لا يكون الا بأمر الخديو فنسأله في ذلك ، ولا ريب انه يوافق عليه » . فقال له أحد النظار : « الخديو الذى كنت تطلب خلعه ان لم يمكن قتله قبل أيام ؟ » وكان قد حدث قبل ذلك انه في إحدى الجلسات التى حضرها سلطان باشا مع زعماء الثورة أن طلب سلطان من عرابى قتل الخديو . وكان سلطان يقول : « اقتلوا الثعبان سلالة الجناة الذاهين الذين باعونا للأجانب ! »

هذا هو سلطان الذى كان رئيس الحزب الوطنى ، وهو لا يريد الآن الا معاملة الخديو - ذلك الخديو الذى لا يينغى الا بيع البلاد للأجانب !

---

(١) يقصد المذكرة التى قدمتها فرنسا وانجلترا في ٢٥ مايو سنة ١٨٨١ م

## الفصل الثامن

### مندوب السلطان

كانت مقاصد الآستانة (١) من ارسال درويش باشا هي :

- ١ - اطالة زمن المخابرات
  - ٢ - أن يطمئن قلب المراقبة وتوفيق من جهة تأكيد سلطة الخديو
  - ٣ - أن يستمال قلب عرابي واخوانه بطريقة أبوية الى زيارة الآستانة قصد التنزه على شواطئ البوسفور
  - ٤ - تقرير سلطة الباب العالي بمصر .. وكان من السهل ادراك ذلك كله لو أرسلت من هو أقوم من درويش الخ
- أخذ درويش باشا يذكر بسلطة السلطان ، ويشئى على الخديو وينصح بالخضوع للنظام . واذا جاء الكلام فى النهضة المصرية يقتصد فى القول ، ويقتصر على قوله ان السلطان مولانا وأبونا ، وهو الذى ينظر فى ذلك ، وقد أرسل الخديو لاستقباله ذو الفقار باشا ، وأرسل عرابي من قبله يعقوب باشا سامى ، وقد حصل خلاف بين الرسولين فى المركب (البخرة) عند المقابلة فتكدر ذو الفقار .. لكن درويش استقبل كليهما بالبشاشة

### بين درويش وعرابى والبارودى

فى يوم السبت ١٠ يونيو ، قابل درويش باشا عرابى ومحمود سامى لأول مرة ، فجرى الحديث بينهما على ما سنذكره :

قال درويش :

---

(١) كان الخديو توفيق قد أرسل الى السلطان المثمانى عبد الحميد يطلب منه مساعدته فى اخمد الثورة العرابية فبعث اليه بوفد فى شهر يونية سنة ١٨٨٢ م على رأسه مصطفى درويش باشا . وكان قد أرسل وقدا على اثر سقوط دياض باشا وولى وزارة شريف باشا برياسة على نظام باشا فى أكتوبر سنة ١٨٨١ م . ولما حضر وفد درويش باشا كانت البوارج الانجليزية والفرنسية تملأ مياه الاسكندرية

— نحن جميعا رجال جند يحترم بعضنا بعضا وأتم أولادى لمكانى من السن . وقد أرسلنى مولانا السلطان لتقرير الاتفاق بين عائلته العزيزة ، وستسهلون على هذا العمل ، أنا أعلم شكواكم ، وستقبل شكواكم ، صبرا قليلا ، سيكون هذا العمل بعد رحيل الدونائمتين (١) اللتين تضايقأنا جدا ، فقبل كل شيء يلزمنا إبعادهما .. هذا ما أنكفل به لو عضدتمونى فيه ، أنا أرى جيدا من جهة وقع الخطأ ، ليس الخطأ من قبلكم ، يجب التوصل الى المطلوب مع الحزم والبصيرة  
ثم التفت الى عرابى وقال له :

— أنت أنت وحدك الأمر الناهى فى مصر .. أنت مع كونك لست الا ناظر الجهادية ، بيدك السلطة العليا بأسرها . هذا ما أغضب الدول المتحدة ، يلزم أن يرين المساهمة معهن ، وما بقى بعد هذا عملنا فيه بيننا وحدنا . استعف من وظيفتك العسكرية بحجة حضورى حيث انى مشير مرسل من قبل السلطان ، وكن نائبا عنى مأمورا تحت قيادتى ، لكى تسهل على المخابرة مع الأجانب .. عليك أن تذهب مع الضباط الكبار من اخوانك الى الآستانة حيث أن مولانا الخليفة العادل يرى الخير فى مفاوضته معكم

فأخذ محمود سامى يترجم المقال ، وعرابى يسمعه ، ثم قال عرابى :  
مشروعكم هذا فى غاية الحسن ، وانا نختاره مع الشكر ، لست حريصا على السلطة التى تريد أن تنسبها الى . هى سلطة غير مختصة ، الأمة هى التى أفضت الى بها ، فالواجب أن ينظر الى الأمة ويفكر فى شكواها .. اعترف بأن يديك أبرع من يدى فى العمل لتذليل المصاعب التى أمامنا الآن . سيفى ووظيفتى تحت تصرفك .. أنا مستعد للانسحاب واتباع نصيحتك ، انما أشرت شرطا واحدا : اعطنى باسم السلطان واسم الخديو واسمك كتابا تصرح فيه ببراءة ذمتنا من التبعات جميعا فى كل

(١) يقصد بالدونائمتين العمارتين العربيتين الانجليزية والفرنسية بالاسكندرية

ما جرى الى الآن ، كائنا ما كان .. سواء أكان ذلك منى أم من اخواني ،  
وحيث انى تعهدت للقناصل بحفظ الأمن فى الديار المصرية وتحملت  
مسئولية ذلك على كاهلى ، فأرجو أن تعفينى من ذلك بطريقة رسمية  
معروفة

أطلب ذلك لأن الأحوال ان جرت على وجه حسن لم يعرف لنا فيها  
صنيع ، وان جرت على العكس من ذلك كنا الجانين ..

« مالت ، وكولفنى ، وسندريش ، عاملونا معاملة الخارجين على  
النظام . وذلك فى بلادنا وهم الأجانب الذين لا يحترمون لنا شيئاً ونحن  
نحترم لهم كل شىء »

فوعده درويش بانألته مطلبه يوم الاثنين ١٢ يوليو ، وهو اليوم المحدد  
لجلسة يحضرها درويش باشا تحت رئاسة الخديو .. وانما طلب أن يعلن  
هذا القول الذى جرى بينهما من قبلهما جميعاً وطلب من عرابى أن يكتب  
الى الاسكندرية ذلك بالتلغراف ، فأبى عرابى أن يعلن شيئاً الا بعد أن  
ينال ذلك الأمر الذى يعفيه من كل تبعة (١)

(١) لم يفعل مصطفى درويش شيئاً ، وقد استماله الخديو برشوته بمبلغ خمسين ألف  
جنيه ، وبهدايا يقول عنها مستر بلنت فى كتابه « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى » انها  
بلغت خمسة وعشرين ألف جنيه

## مذبحة الاسكندرية

أخبر مالت حكومته نقلا عن سكرتير الخديو الاوربى ( كودار بك )  
أن محمود سامى وعرابى دخلا فى اليوم الثانى من استعفاء وزارة سامى  
والسيف فى يد كل منهما يهدد الخديو بفقد حياته

وقد سمع مكاتب « التيمس » من عرابى قبل ضرب الاسكندرية انه  
يخترم القنال ما لم يخرق العدو حرمة البلاد والا هدمه ، ولكنه ضعف  
عن ذلك وقت الحرب

وقد أكثر الجرائد والتلغرافات من الاشاعات التى أفرغت الاوربيين  
وأخافتهم من المصريين ، وطالبوا من مديريهم فى الاعمال أن يأذتوا لهم  
بالتسلح .. فمنهم من أبى ومنهم من أذن

وطلب خدمة ( لاسترن تلغراف ) التسلح ، فأبى رئيسهم فكتبوا له  
عريضة فعرضها على رئيس الكمبانية ( الشركة ) فى لندرا ، فأذن بذلك  
وسمح بثمانية وثلاثين مسدسا ، وسافرت عائلات الموظفين الى قبرص  
على نفقة « الكمبانية »

وأصبح الاوربيون متاكدين من عداوة الشعب لهم لاحساسهم من  
ضمايرهم بسوء أعمالهم اليه ، وتكهن مستر « كوكسن » قنصل  
انجلترا فى الاسكندرية بوقوع حوادث

فى يوم الأحد ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ م ، كانت المقاهى غاصة بظالبي  
الراحة من الأشغال والراغبين فى اللهو واللعب والسكر ، فحدثت مشاجرة  
على مقربة من مقهى « القزاز » فى آخر شارع البنات فى الساعة الواحدة  
بعد الظهر ، حيث ازدحام كثير من الكراسى والموائد والناس ، منهم  
القائم والقاعد . وحدث أن سكر مالطى - يقال انه خادم « مستر

كوكسن » (١) - ثم ركب عربة وطاف بها من محل الى محل يشرب ويتنزّه الى أن وصل الى حانة أحد مواطنيه ، فطلب منه السائق الوطني أجرته فأعطاه المالطي قرشا واحدا ودخل الحانة ، فتبعه السائق وتبادلت الكلمات بينهما ، فتناول المالطي سكيما كانت معلقة في مائدة الدكان ، معدة لقطع الجبن وطعن بها السائق فسقط لا حراك به ، فاجتمع بعض الوطنيين ورجل من أقارب السائق وأرادوا القبض على القاتل ، فجاء يوناني خباز مجاور للحانة ومعه بعض مواطنيه بالسكاكين والطبنجات وأخذوا يضربون يميننا وشمالا ، ومضى نصف ساعة قبل أن تصل عساكر المستحفظين ( البوليس ) من قراول اللبان « قسم شرطة اللبان »

وقد قتل أول من جاء منهم ( من العساكر ) مع المعاون ، فجاء آخرون وصارت معركة عمومية ، ولكن لم يتدخل العساكر في القبض على المجناة ، فتمكنوا من الفرار ( الاروام والمالطية ) وكان يكفى لحسم المعركة تدخل المحافظ ، لو اهتم بذلك لمرض الضابط (٢) وغيبته وبعد نصف ساعة ، حصل نزاع بين العامة وعساكر المستحفظين ، فتفاهم الخطب لأن كلا منهما كان يريد أن يفترس الآخر ( وذلك لعدم القبض على الجانين ) لكن مسألة الجانين لم يبق لها ذكر في أذهان المتنازعين وانما بقى النزاع

ودخل المسلمون والمسيحيون في خصام حقيقى بين أهل الدينين وأخذ الاروام والمالطيون يطلقون الرصاص من أعلى البيوت ، مع انهم كانوا في مأمن من وصول الشر اليهم . وعند ذلك أخذ المسلمون يفدون من كل جانب مسلحين بعضهم بالعصى والبعض الآخر بأرجل الموائد أو هشيم الكراسى ، وبعضهم بالنبايت اشتروها من المخازن القريبة

---

(١) في رواية أخرى أن المالطي ركب حملا الرجل مكار يدمى « السيد العجاف »  
(٢) المراد بالضابط السيد بك قنديل مأمور الفبطية ، وقيل انه تمارش في هذا اليوم ليتأخر من احماد الفتنة وكان أعمال المذبحة في نظر عرابى مؤامرة من الخديو توفيق وعمر لطفي باشا وادوار مالت ، والمستر كوكسن ، ليظهر عرابى بمظهر العاجز عن حفظ الامن

خصوصا من السوق الجديدة

وفي هذه الحالة ، رأى مستر « كوكسن » نازلا من بيت أحد المالطين بلباس ملكى ومعه قواصه فتبعه المتشاجرون وضربوه ضربا خفيفا عندما أراد أن يركب العربة ففر ونجا منهم .. وصحبه عمر لطفى « محافظ الاسكندرية » فى أثناء الطريق

لم يكن المسيحيون الاجانب ( الاروام والمالطيون ) مدافعين ؛ بل كانوا يهاجمون أيضا . وقد طارت الغوغاء ، ورؤيت عربة تمر حاملة قتلى من عساكر المستحفظين . وعلى القرب من شارع الميدان جاء جماعة من الاروام المسلحين على حسب الأوامر المعطاة لهم ، وأخذوا يطلقون الرصاص على الجموع بدون تمييز ولم يأت أحد من العساكر ولا من ضباط البوليس ولا « المحافظ » لاطفاء النار ..

وعلى القرب من تمثال محمد على حيث لم توجد مذبحه ، وجد نحو اثني عشر قتيلًا ليس بينهم الا أوربى واحد وعلى القرب من زيزينيا رأى عمر لطفى « محافظ الاسكندرية » يسأله سائل : « كيف تكون هنا والمذابح على خطوات منك ؟ .. » فقال له : « لست بقائد وهذا لايعنينى .. »

فسأله : « لِمَ لم تحضر بلباسك الرسمى على حصانك شاهرا سيفك مع خمسين من عساكر المحافظين وبذلك ينتهى الأمر ؟ .. » فأجابه : « انصرف .. ليس هذا من شأنك ، وهل أنت محافظ البلد؟ » وبعد ذلك مر أحد موظفى المحافظة فسئل : « ماذا يفعل الضابط ؟ » فقال : « انه مريض وقد طلب من المحافظ مرارا أن يرسل العساكر فلم يفعل .. »

وقد كان سليمان سامى مستعدا لارسال العساكر اذا ورد له الأمر من نظارة الجهادية ، ولكن لم يكتب أحد بذلك الى النظارة لأن الأمر بيد المحافظ ، وقد بدأ فى المخابرة التلغرافية مع القاهرة من بدء الحركة ولا

جواب على ما يظهر

وقد ذهب نينيه (١) الى قنصل روسيا ، وحادثه بما رآه من المحافظ  
فعجب وقام للمخاطبة مع اخوانه القناصل ، وبعد ذلك كتب للخديو  
ودرويش ، وعرابى بما حدث ، وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر ..

وفى نحو الساعة الخامسة بعد الظهر ، قابله من أخبره أن عرابى أرسل  
الأوامر لاعادة النظام . وقد كانت الشوارع غاصة بالرعاع يحملون  
الاسلاب ويصيحون ويسبون . وبعد نصف ساعة ، عاد النظام الى ما كان  
ولم تقتصر المذبحة على شارع البنات ، بل وقع ذلك فى جهة الجمرک  
وشارع رأس التين وأبو العباس أيضا . واتفق مع ذلك أن بعض المسلمين  
فى هذه الحالة ، خلصوا نساء أوربيات وأوصلوهن الى بيوتهن .. !

ويقال ان أخوين انجليزيين كانا مسلحين بمسدس ، ولم يحسنا  
استعماله فقتل أحدهما بضربة عصا أطارت سلاحه من يده ..

وقد ظهر فى اليوم الثانى أن عدد القتلى الوطنيين بلغ ١٦٣ غير من  
أخفاهم المتشاجرون ، اذ حملوهم سرا من وسط المعركة

ومجموع ما وجد من جثث الاوربيين وغيرهم من المسيحيين بلغ ٧٥  
قتيلا ، كثير منهم مصاب برصاص فى قمة رأسه (٢) فبلغ مجموع القتلى  
٢٣٨ ..

ولم يصل الخبر الى عرابى الا الساعة الرابعة والربع بعد الظهر، مع أن  
القليل من موظفى التلغراف الذين يشتغلون بعد الظهر لم يكن عندهم  
وقت للعمل الا فى تلغراف ( المحافظ ) حتى ان رسالتين مهمتين من أحد  
الميرالايات فى اسكندرية لم تقبلا لاشتغال العدة بتلغراف ( المحافظ )  
وقد طلب عمر باشا لطفى انزال عسكر انجليزى لعجز عرابى عن الأمن ..

(١) هو مسيو جون نينيه عميد الجالية الفرنسية ، وقد ألف كتابا عن الثورة العرابية  
باسم عرابى باشا

(٢) هذا يدل على ان هؤلاء قتلوا بالرصاص الذى كان يلقيه الادوام والمالطيون من اصلى  
بيوتهم بغير حساب



رجع مسيو « كليكن كويسكى » القائم بأعمال قنصل فرنسا ، الى عقله ، وطلب تحقيق أسباب الحادثة ، فصدر الأمر فى الحال بذلك .. وبعد هذا امتنع الاعضاء الاوربيون من العمل .. وألح الوطنيون على التحقيق مع حبس من تظهر الشبهة عليه من الاوربيين ، فعارض فى ذلك مندوبو اليونان والانجليز ، وأبى مندوب فرنسا الحضور وطلب بعض وكلاء الدول شتى عشرين شخصا من المذنبين ، وبهذا تنتهى المسألة فى رأيه .. !

\*\*\*

كان صادق بك وكيل الضابط ( سيد قنديل ) أعد جندا ولكنه لم يستطع أن ينفذ شيئا من تعليمات الضبطية لأن ( عمر لطفى ) كان يعمل بعكس تلك التعليمات ، وبعد ذلك عين ( صادق ) وكيل حكمةدارية السودان بناء على توصية ( عمر لطفى ) فهل كان ذلك لابعاذه حتى لا يشهد ، أو مكافأة له على المشاركة فى الجناية ؟ .. وبعد الحادثة نبه القناصل رعاياهم بالهجرة مع كتابة ما عندهم من متاع وأثاث ، فكتبوا دفاتر وزادوا فيها ما شاءوا . ذلك أن القناصل كانوا يعتقدون أن البلد ستضرب ، وأرادوا أن يربح رعاياهم ما يشاءون وفى الأسبوع التالى للحادثة ، أشيع أن « سيمور » ( قائد الأسطول البريطانى ) لا يعتقد أن للحزب الوطنى دخيلا فى الواقعة ، فاهتم الخديو وأمر عمر لطفى أن يخبر « سيمور » أن تعهد عرابى بالأمن أصبح لا يعتد به ، ويغشى من مذبحة أخرى .. ففعل ولكنه لم ينل جوابا شافيا ( أخبر الكاتب « نيسيه » عرابى بذلك وطلب منه عزل عمر لطفى ولم يتيسر له ذلك )

وقد استقالت فى ذلك الحين وزارة البارودى باشا . وخلفتها وزارة اسماعيل راعب باشا ، فأصدرت عفوا عن الجرائم السياسية ، غير أن القناصل لم يعترفوا بها تبعا لقنصلى فرنسا وانجلترا

### مسنولية عمر لطفى

وكتب الاستاذ الشيخ محمد عبده عن ( مذبحة الاسكندرية ) في مذكرة دفاعه أثناء محاكمته مع العرابين فقال :

— لما وقع الخلاف بين الخديو توفيق ووزارة محمود سامى باشا ، شاع فى القاهرة أن الخديو سيسعى بواسطة بعض أتباعه ليحدث شغباً فى نفس القاهرة الى حد أن الوزارة احتاطت لمنع الفتنة ، وبالغت فى ذلك طول مدة قيامها بأعباء الأمر

« وقد استدعى الخديو ابراهيم بك توفيق مدير البحيرة ، وطلب منه أن يجمع مشايخ قبائل البدو ويحضرهم اليه ، ففعل ، وبالح الخديو فى حسن استقبالهم ، وأكثر لهم من المواعيد ، ثم أوعز الى المدير بأن يأمرهم بحشد ثلاثة آلاف بدوى وباحضارهم الى العاصمة بطريق الجيزة ، ليحدثوا فتنة فى البلد لعدم وجود النظام بينهم ، ولكن تعذر على المشايخ حشد العدد المطلوب من البدو . ولما فشل مساعاه هذا أرسل تلغرافاً رمزياً ( بالشفرة ) الى محافظ الاسكندرية هذا نصه :

« قد ضمن عرابى أمر الأمن العام ، ونشر ذلك فى الصحف ، وجعل نفسه مسئولاً لدى القناصل . واذا نجح فى ضمانه هذا ، وثقت به الدول ، وصغر شأننا . أما الآن وأساطيل الدول فى مياه الاسكندرية ، وعقول الناس متهيجة فوقع الخلاف بين الاوربيين وغيرهم أمر محتمل ، فاختر لنفسك اما خدمة عرابى فى ضمانه أو خدمتنا »

« وفى يوم هذه الحادثة (مذبحة الاسكندرية) توجهت الى السراى ، فرأيت موظفيها فى جدل عظيم منأ حدث ، وكانوا يبالغون فى رواية الاخبار ، ويضحكون من عهد عرابى بالمحافظة على الأمن العام — ومن المعلوم أن موظفى السراى لا يقولون الا ما يسر الخديو ، فاذا كانت الاخبار سارة تكلّموا وضحكوا والا تظاهروا بالحزن والكآبة جهنهم » وبعد ١٢ يوما من هذا التاريخ كنت بالاسكندرية ، فسمعت الناس أجمع يقولون ان المحافظ عمر لطفى سمح بانتشار الفتنة الى هذا الحد ،

لأنه كان مقيما في البلد ، ولم يصدر أمرا بوقفها ، ولم يذهب الى مكان الفتنة الا بعد مضي وقت . ولم يطلب مساعدة العسكر النظامي مع انهم كانوا على مقربة منه . وقد أجمع الناس على أن عمله هذا موعز به من الخديو ..

« وعلمنا أيضا انه لما كانت المذبحة على وشك النهاية ، وكان المحافظ يتمشى من مكان الى آخر ، واذا بأوربي في شباك ، وفي يده مسدس ، فقال أحد البدو : « أرمى هذا الرجل يا باشا ؟ » فقال له : « ارمه » ، فأطلق البدوى عليه الرصاص ، فقتله .. وكثير من المنهوبات دخلت بيته وبيوت أقربائه في ذلك اليوم الاسود

« وقد سمعت أيضا انه حرض بعض الناس أثناء المذبحة وشجعهم على ذلك ، وانه أشار الى المستحفظين والبوليس ، ألا يتدخلوا قائلا : « دعوا أبناء الكلاب يموتون »

« ولم تسأل اللجنة التي تألفت للنظر في أسباب الفتنة عمر لطفي عن شيء مما حدث مطلقا ، بل كان الخديو أوعز اليه أن يستغنى بدعوى المرض

« كان عمر لطفي محافظ الاسكندرية ، زمن الفتنة ، وقد أهمله أمر القيام بحفظ الامن العام على أنه هو الشخص الوحيد المسئول عنه . هذا اذا لم نقل أنه هو المحرض عليها فاذا كان فعل ما فعل اطاعة لأمر عرابي كما ادعى مع أن وظيفته تابعة رأسا للخديو — لأن الخديو أصدر أمرا خاصا صرح فيه انه بعد استغفاء وزارة سامي البارودي أقضت أمور الداخلية وشئوننا الى السراي — فكيف نعلل تعيينه وزيرا للحرية جزاء لطاعته لعرابي وعصيانه لسيد الخديو ؟ .. واذا كان الأمر اهمالا منه ، فكيف يصح مع اهماله وعدم كفايته تعيينه وزيرا للحرية ؟ .. ولماذا لم يسأل سؤالا واجدا عما جرى مع انه كان يجب أن يكون أول من يسأل

« لا ريب في أن استقراء سير هذه الحوادث يظهر أنهم الظهوز أن

الخديو بالاشتراك مع عمر لطفى كانا سبب الفتنة »

\*\*\*

فيما تقدم من هذه المذكرات يتبين ان الاستاذ الامام يرجع مسئولية هذه المذبحة الى الخديو توفيق ، وعمر لطفى مكايده لعرابى ، واظهارا لضعفه عن المحافظة على الامن ، وكان وقتئذ وزيرا للحرية فى وزارة اسنا عيل راغب باشا التى تلت وزارة محمود سامى باشا البارودى .. أما تعيين عمر لطفى مكانه وزيرا فى نفس الوزارة ، فقد كان بعد عزل عرابى فى ٢٠ يوليو سنة ١٨٨٢ م ، لمخالفته لأمر الخديو فى الاستعدادات الحرية ومحاربة الانجليز . وقد كتب الاستاذ الامام فى احدى مقالاته يتهم الانجليز بأنهم سبب الخلل والفتنة فى البلاد قال :

« ان الحكومة الانجليزية على عادتها فى اختلاق العلل وارتجال المساءات قلبت وجوه المسائل ، واستدبرت طلائع الحق ، واستقبلت وجه مطعمها ، واتخذت مجرد التغيير فى بعض نظمات الحكومة الخديوية سببا للناوة ، واندفعت لتسير مراكبها الى مياه الاسكندرية تهديدا لحكومة الخديو ( يقصد الوزارة ) وعدوانا عليه . ثم نفخ بعض رجالها فى أنوف ضعاف العقول من الأجانب المقيمين بالشر حتى أوقدوا فتنة ( يقصد المذبحة ) هلك فيها المساكين قضاء لشهوة انجليزية . وأقامت منها حكومة انجلترا حجة فى العدوان على الأراضى الخديوية . ولو أن بصيرا نظر فى أحوال القطر المصرى بعين صحيحة من مرض الغرض لعلم أن بداءة الخلل فى ذلك القطر يوم وردت المراكب الانجليزية لشرع الاسكندرية ..

وعندنا ان وصول الاسطول البريطانى كان مشجعا للخديو وعمر لطفى على الكيد لعرابى ، والعمل للقضاء عليه . وليس فى ذلك ما ينافى ان اهمال المذبحة كان بتدبير واتفاق بين الخديو توفيق وعمر لطفى ، ولا ما ينافى ما ذكره الأستاذ الامام فى مذكراته السابقة من الأدلة التى تثبت أن مسئولية الحادث تقع على عاتق عمر لطفى وسيده الخديو توفيق .

## الفصل التاسع

### ضرب الاسكندرية

في ٩ يوليو سنة ١٨٨٢ م ، كتب سيمور «قائد الاسطول الانجليزي» الى طلبه عصمت باشا « قائد حامية الاسكندرية » بوجوب الكف عن وضع المدافع وتجهيز الدفاع ، وتوعده بالضرب وفي ١٠ يوليو كرر ذلك الاشتكاء ، وقال انه سينفذ تهديده ان لم يسلمه طابية رأس التين لتجريدها من السلاح ( لم يكن شيء من التجهيزات قد وصل في ذلك اليوم ) فأرسل اليه قرارا من مجلس النظار تحت رئاسة الخديو حضره أيضا كثير من الأعيان ، محصله ان مصر لايمكنها تسليم موقع من مواقعها الا قهراً ، وان شيئاً مما يدعيه لم يحصل من يوم صدور أمر السلطان بمنع ذلك . وما كان قد حصل فهو من الترميمات السنوية ، وان المدافع لم تزل على حالها من عدة سنين

أبلغ الجواب اليه ضابط وقال له : ان شاء فليزر بنفسه الطوابى ، وليتحقق مما يدعيه . فأجاب بأنه مصر على وعيده وان عرابي لم يزل يحول بينه وبين مصر الخ ...

### رأى الخديو في ضرب الاسكندرية

في ١١ يولية ، قال أحد الميرالايات الذين في معية الخديو لسموه : « ما مصير الاسكندرية لو ضربها الانجليز ؟ »

فأجاب ( الخديو ) : « ستين سنة أ » (١) وهز كتفيه فقال الضابط : « لكن السكان سيحرقونها ، فأرجو أن تتوسط لدى

(١) كمله يقصد ستين سنة احتلالا انجليزيا

الاميرال « سيمور » والوقت لم يزل يسمح بذلك ، استدع ذو الفقار وأمره أن يحافظ على المدينة فعنده من الرجال الكفاية »  
فأجاب الخديو :

« فلتحرق المدينة جميعها ولا يبقى فيها طوبة على طوبة حرب بحرب ، كل ذلك يقع على رأس عرابي وعلى رؤوس أولاد الكلب الفلاحين ، وسيدوق الاوريون الملاعين عاقبة هروبهم مثل الارانب »  
وقد ذهب الخديو من رأس التين الى الرمل ، وانسحب المحافظ وموظفو المحافظة واختفوا ( بعيدا عن الخطر )

### حرق الاسكندرية

. بين من حرقوا الاسكندرية اروام بلباس عرب ، رؤيت جثثهم بتلك الثياب أثناء الحريق ، ومنهم عربان من أولاد على ممن كانوا على صلة بالخديو ، ومنهم من أهالي الاسكندرية ، ومنهم اوريون بقصد المبالغة في التعويضات .. وذلك بعد ما أخليت الاسكندرية ممن يخشى عليهم وفي ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ م ، الساعة ٧ صباحا ضربت الاسكندرية ، وكان قد أوصى عرابي ضباطه ، ألا يضربوا الا بعد خامس طلقة (١) من المراكب

وقد قتل كثير من النساء وهن حاملات أطفالهن في أيديهن ومات الأطفال أيضا ، وحمل النساء والأطفال وهن على هذه الحالة . وهدم المسجد الذي في طابية قائد بك عمدا ، بعدما وجهت إليه النار على قصد

### مساعدة الاهالي لعرابي

وتحت مطر الكلل (٢) ونيران المدافع ، كان الرجال والنساء من أهالي

(١) يقول احمد عرابي في مذكراته ان مدافع قلاع الاسكندرية لم تجاوب ضرب الاسطول البريطاني الا بعد اطلاقه عشرين طلقة . لكن حميد الجالية السورية في مصر مسبو جو نينية سنة ١٨٨٢ م قال في كتابه ( عرابي باشا ) أن بطاريات الاسكندرية اجابت بعد الطلقة الخامسة

(٢) يريد بالكلل هنا السفن الحربية ولعل هذا الاسم كان معروفا عنها منذ الغامة وينطق بالتفخيم

الاسكندرية هم الذين ينقلون الذخائر ويقدمونها الى بعض بقايا  
الطبيجة الذين كانوا يضربونها ، وكانوا يغنون بلعن الاميرال ومن  
أرسله (١)

وقبل الضرب بمدة صدر أمر من مدير شركة التلغرافات الانجليزية  
بتعديل في بعض الخطوط ، وطلب وكيلها في مصر مد خطوط الى  
بور سعيد والسويس تحت الماء ، وأذن له عرابي ولكن لم يتم ، وقد  
طلب مدير الشركة في لوندرا من وكيله بمصر في شهر مايو سنة ١٨٨٢ م  
أن يتغيب بالاجازة الى أن تنتهى الحوادث ، فان ميله الى الوطنيين قد  
يضر به عند الغالية اذا حدثت حرب

### الهجرة واستيراد الضرب

نحو مائة وخمسين ألفا من السكان ، مجردين من كل شيء ، أخذوا  
في الحركة لغير قصد ولا لماوى . الموت والفزع ملء نفوسهم .. على  
شطوط المحمودية الى دمنهور وجسر السكة الحديد من دمنهور الى  
القاهرة

كانت المهاجرة تكون خطوطا سوداء تارة عريضة وأخرى رقيقة ،  
متحركة في كل جهة ، أشبه بسلسلة انسانية طويلة ، هنا ينزلون ، هناك  
يمشون ببطء ، لا وقاية ولا عيش ، على طرفي تضاد مع سماء صافية  
وأرض خضراء نضرة

في الساعة ٧ صباح اليوم الثانى ( ١٢ يوليو ) عاد الضرب الى الساعة  
الحادية عشرة وأصاب الاستتالية ، وهجرها كثير من المرضى والجرحى ،  
وكان عليها العلم الابيض بالهلال الاحمر  
. طلبية ( باشا ) بعد أن رفع العلم الابيض على نظارة البحرية ذهب الى

(١) قال محمود فهمى أحد نوار المرابين الذى حكم عليه بالنفى في كتابه « البحر  
الراخر » : « ورأيت ذلك الوقت يبنى ما حصل من خيرة الاهالى بجهة رأس التين ، وأم كيبية  
وطواي باب العرب ، ومنتهم في سلسلة مساكن الطبجية بجلبهم المهمات والذخائر  
وخراطيش البارود والقنونات هم ونسباؤهم واولادهم وبناتهم والهمض من الاهالى . صار  
يصر المذاهب ويضربها على الاسطول »

الاميرال يسأله عن سبب عودة الضرب ، فأجابه أحد الضباط عن لسان  
الأميرال انه يطلب تسليم الطوابى والقشلاقات أيضا .. طلبه ( باشا )  
أراد المخاطبة مع مجلس النظار ، انتشر الخبر في المدينة ، أخذ العساكر  
في اخلائها ، هلع الناس ، وأخذوا ثانية في الهرب

دخل أولاد على للنهب .. سليمان سامى سلم محافظة محلة الاوربيين  
الى عساكر الرديف الذين لم يكونوا أفضل من العربان ، فانضموا  
اليهم في النهب آخر النهار

أما الهاربون فكانوا كالأعاصير أو كماء انكسر سده فاندلق ،  
يتصل بعضهم ببعض مزدحمين متراكمين ، في حالة عقلية أشبه بالجنون ،  
سائقين أمامهم أو حاملين على ظهورهم ما خف حملته من أمتعتهم :  
حيوان ، أثاث ضئيل ، ثياب رثة حتى بعض المفروشات التى لا قيمة لها



في هذه الحالة — حالة شعب طرد من بيته — كان الحر شديدا وغيم  
من النبار سد الأفق ، وأظلم الجو ، نساء يبحثن عن أولادهن ، يتشاجر  
بعضهن مع بعض ، يتضاربن ، في اخلاط لا يمكن التعبير عنه .. عربات  
بلا عجل استعملت مساكن .. عربات من كل نوع بعضها ساقط في  
المحمودية ، بعضها مقلوب ، بعضها بخيل ، بعضها بغير خيل .. روائح  
شئ اللحم .. صياح على المارة : الخبز .. الخبز

وقد ابتدأ الحريق في المدينة الساعة ١١ مساء من ثانى يوم الضرب ..  
وفي ١٣ يوليو توجه الغديو من الرمل الى رأس التين ، وعسكر عرابى  
في كفر الدوار

في ١٤ يوليو ، عندما وصل عرابى لكفر الدوار ، اجتمع عليه النساء  
والرجال يلعنون العالم ويطلبون الخبز ، قوعدهم بالقوت وبما يحملهم  
مجانا الى داخل البلاد ، وقبذ أرسلوا مع تواضى للمديرين ليقبضوهم  
ويضعوهم في أعمال بقدر الطاقة



### كتاب الخديو الى عرابى

فى مساء ذلك اليوم ( ١٤ يوليو سنة ١٨٨٢ م ) ورد لعرابى كتاب من الخديو محمله بعد العنوان : سعادتلو عرابى باشا ناظر الحرية فى معسكر كفر الدوار (١) :

« انك تعلم ان الاميرال الانجليزى لم يرد حرب مصر ، وانما أطلق المدافع على الطوابى بسبب ما كان جاريا من التجهيزات كما أُنذِر به ، وقد أعلننا انه يجب إعادة العلاقات معنا ، وانه مستعد لتسليم الاسكندرية لجيش منظم مطيع ، فان لم يكن فالى جيش عثمانى ، وقد قرر مؤتمر الآستانة أن للسلطان وحده حق التدخل بقوة السلاح فى المسألة المصرية . فعليك أن تحضر مع رفاقك الى رأس التين للمداولة فى ذلك ، وآمرك بالكف عن التجهيزات التى لا فائدة منها بعد الآن »

فأجاب عرابى بعد التعظيمات :

« ان الاميرال انما أطلق المدافع بعد التأكيدات من الوزارة ومن سموكم بأنه لا تجهيز ولا تحضير ، وقد عددنا جميعا - وسموكم معنا - ان انذاره بالضرب اهانة لمصر وعلان بحربها بلا سبب ، ومع ذلك فلم يقتصر الضرب على الطوابى كما قال ، بل قذف قنابل مفرقة على الاملاك حتى قتلت ودمرت كثيرا ، وان عسكركم المنظم مستعد لان يأتى المدينة عند الاقتضاء ، وأنا لا أرفض أية مخابرة فى الصلح ، لكن يلزم أن يتذكر أن التعدى وخرق سياج السلم وتدمير المدينة انما جاء من المراكب الانجليزية ، وان الطوابى لم تجاوب الا بعد خامس (٢) ضربة من المراكب حسب القرار الصادر من المجلس المرءوس بسموكم وحضور درويش باشا » ومن المعلوم ان انجلترا أصبحت بذلك محاربة لمصر ، اذ بعد اطلاق النيران اثنى عشرة ساعة واضطرار العساكر المصرية لاخلاء المدينة

(١) ما ذكر هنا من خطاب الخديو الى عرابى ، ورد عرابى عليه هو خلاصة للخطابين . وليس النص لهما . أما النص : فقد نشر فى جريدة الوقائع المصرية بعدد ١٨ يوليو سنة ١٨٨٢ م وفى كتاب « الثورة العرابية » للاستاذ عبد الرحمن الرافعى

(٢) فى نص الرد بجريدة الوقائع : .. لم تقابلها الا بعد عشرين طلقة »

واشغالها بعساكر انجليزية لا يمكن أن يقال ان البلد في غير حرب  
« سموكم يعلم أنه في هذه الحالة لا يمكن أن تكون مداولة حرة  
ما دامت المراكب الاجنبية في مياه الاسكندرية ، بل يجب أن تبعد عنها ،  
فاذا حصل ذلك فاني مستعد لاجابة الدعوة حالا . أما التجهيزات فيجب  
أن تستمر الى أن تبعد المراكب عن الاسكندرية .. تلك التجهيزات التي  
تشير اليها سموكم وهي جمع ٢٥ ألف مقاتل هي التي أمرتم بها وما أنا  
الا منفذ لأمركم »

### عزل الخديو لعرايى

بعد أيام صدر الأمر بعزل عرايى ، ووزعت بذلك منشورات لهذا  
السبب : وصرح فيها بأنه كان ناظر الحرية الى تاريخ الدعوة الى رأس  
التين

طبعت نسخ من تلك المخاطبات ، ووزعت في البلاد ، فجاء الناس لعرايى  
طالبين بقاءه والاستمرار في الاستعداد ، وأخذت الهدايا تتوارد عليه من  
كل جانب

ثم شرع في بناء الاستحكامات ، وأغرق الجانبان من جهة الملاحات ،  
وانتهت القلاع في قليل من الزمن ، وساعد على ذلك ان العدو لم يكن  
يعمل شيئاً

### الجيش المصرى والمتطوعون

كان الجيش مؤلفاً من ثمانية آلاف منظمة مع ثمانين مدفعاً من كروب ،  
وكان في أبى قير ثلاثة آلاف وخمسمائة ، وألفان وخمسمائة في رشيد ،  
 وخمسة آلاف في دمياط ، المجموع أحد عشر ألفاً (١) أما الخيالة فلم يكن  
لهم وجود الا قليلا

وقد كان من عمل المراكب أن تهدد في حركاتها النقط المذكورة لتمنع

(١) أى مجموع العساكر التى فى الثغور المذكورة فىكون الجيش المنظم الذى يقوده  
عرايى ١٩ ألفاً ، لا أحد عشر ألفاً ويظهر أنه سهو من الاستلذا

عرايى أن يرسل جيشا الى الوادى ..

أدخل العربان فى الجيش على علم من عرايى بمضرة دخولهم .. شرع فى جمع عساكر الرديف ولم يكونوا يصلحون لشيء .. شرع فى جمع غيرهم . ودخل كثير من المتطوعين ولكن لم يكن يكفى لجعلهم جيشا صالحا للدفاع وراء الجدران أقل من ثمانية أشهر مع الاجتهاد ، وأما فى الفلا ، فلا أقل من سنة لعسكى ألمانى ومن سنتين لعسكى انجليزى قالت « التيمس » : أرسلت الحكومة الانجليزية ٢٥ ألفا وستبلغها ثلاثين ألفا لمقاتلة الجيش المصرى

\*\*\*

كثير من ضباط التليان والالمان والسويسريين عرضوا أنفسهم ومعهم عدد وافر من المتطوعين ، والبعض كان يطلب وسيلة للنقل ، والبعض لم يكن يطلب ( كالالمان ) الا تعيين الضابط الاكبر باسم رفيع فى الجيش . أما الفرنسيون فجاء من بعض المفلسين منهم عدد لا يلتفت اليه غير أن البحر كان مأخوذا تحت مراقبة المراكب الانجليزية ، والمواصلات كانت منقطعة تقريبا بين مصر وأوربا

### عرايى لم يثق بالفرنسيين

لم يكن يهم عرايى عندما رأى فى بعض الجرائد الفرنسية والانجليزية تلقيه - بعاص - الا مخافة أن يصدر بذلك أمر ، وكانت له ثقة بالسلطان الا اذا أكره . وتذكر البارون درنج وكان يلومه على عدم مساعدته له عند حكومته مع انه كان موظفا فى خارجيتها . ثم بعد ذلك أخذ يذكر مصائب الاحتلال الفرنسى فى مصر أيام نابليون ، وما احتال به هو ومينو على المصريين من الأكاذيب ، وما حصل من الفرنسيين فى تونس ، واستنتج انه لا يمكن الاعتماد على فرنسى فى شيء عندما ضبط الاسير الانجليزى واستنطقه عرايى وسأله عما كان مكتوبا على بعض الكلل (١)

(١) الكلل هى السفن الحربية عند العامة كما قدمنا

من اسم « اسكندريا » فأجابه حصل تحريف والحقيقة « اسكندرا » اسم المركب ، فاعتذر عرابي بعدم معرفته الانجليزية ، ثم قال له : « لعلك رأيت ما يخالف عما قرأت عن المصريين ؟ » فأجابه : « نعم ، ولكنى عسكرى ما على الا أن أطيع »

### غش ديلسبس لعرابي

اعتمد عرابي على ديلسبس في حماية القنال ، وكان يظن أن مس القنال يهيج عليه جميع الأمم ، لهذا ترك تلك الناحية عوراء ، وعندما أحس ديلسبس بأن الجيش المصرى قد يتحرك ناحية القنال ، كتب تلغرافا لعرابي يقول له : « من المستحيل أن عساكر الانجليز تمر من القنال » وبعد واقعة مهمة في ناحية كفر الدوار ، جاء الخبر عقبها بأن اثنين وثلاثين مركبا توجهت الى القنال ، فورد تلغراف من ديلسبس يقول : « لا تشرع فى شيء يمس القنال : لا يمر عسكرى انجليزى الا ومعه جندى فرنسى !.. أنا مسئول عن كل ما يحصل » فأجيب بأن هذا غير كاف وتقرر ارسال جيش ، ثم أرسل الجواب ببطء ، وقبل أن يتحرك عسكرى الى ناحية القنال كان الجيش الانجليزى قد احتله ، وذلك لتأخر الجيش ١٥ ساعة فى مخابرة ديلسبس ، ويظهر انه كان فى الحاضرين خونة حملوا الاخبار وأبطأوا فى المخابرة

قال ولسلى : لو قطع عرابي القنال كما قرر لم يكن لنا الا حصر مصر ، والضرب فى البحر أربعة وعشرين ساعة خلصتنا وأنجتنا

### اخبار القتال

فى يومى ٢٣ ، ٢٤ أغسطس ، كانت واقعة نفيشة وأسر محمود فهنى ( باشا ) فجاء سامى ( باشا ) بنفسه وطلب من عرابي أن يذهب الى ناحية الوادى

وكان جيش الجهة الشرقية أغلبه من العساكر المجموعة حديثا التى

لا سناوى شيئا .. خسارة محمود فهمى كانت جسيمة لا تعوض ، وليس من السهل تعويضه .. عرابى وجميع الضباط ومحمود سامى شعروا بالضعف والوهن عند ذلك

قررت مشورة حرية اغراق المنطقة الشرقية مما وراء الزقازيق . وذلك أخاف عرابى وأرهبه فلم ينفذ . وتقرر سحب بعض الضباط من دمياط ورشيد وارسال مثل عبد العال الى جهة الوادى ، فنفذ شيء وأوقف شيء ، ولم يحضر عبد العال ، وكان حضوره مفيدا

ذهب عرابى الى الوادى فى حزن وانكسار قلب . وقد اعترف انه فى مدة الستة الاسابيع لم يأت اجتهاده بتنظيم قوة من المشاة يمكن الاعتماد عليها . أرسلت عساكر الى الوادى وجاء الى كفر الدوار من عساكر الرديف الهرمون والمرضى

ومع حركات الجيش المتوالية ، وتلك الدهشة المستولية ، كان النظام والخضوع مستوليا على الجميع

### خيانة سلطان باشا

فى ٢٧ أغسطس سنة ١٨٨٢ م ، جاء خبر بأن فارسين خرجا من الاسكندرية وتوجها من الناحية الشرقية من البحيرة وهما بدويان من قبيلة أولاد على من عائلة شهيرة بالقيوم ، فقبض عليهما عند مرورهما على قريب من معسكر كفر الدوار ، ووجد معهما منشورات من سلطان باشا ورسائل منه الى رؤساء القبائل وبعض الضباط يدعوهم الى ترك عرابى والاتحاق بالجيش العثمانى الذى جاء لاختضاع العصاة

وقد سئلوا فاعترفوا بكل شيء ، وذكروا أن جنديا بحريا انجليزيا يسمى « جيل » حمل ثلاثين ألف جنيه من سيمور ليلحق بالاستاذ « بالمر » يستميل معه عربان غزة ، وحمل معه رسائل من توفيق ومن سلطان باشا الى رؤساء العربان فى الشرقية ، وأن مبلغا لا يقل عن المبلغ السابق سسحب القائد الانجليزى الى الزقازيق ، وبعد أن سلم الضابط أوراق

المروور الى القائد ذهب الى السويس لمقابلة « بالمر » وقد قطع سلك التلغراف الذى يصل بين مصر والآستانة . وكان كل ذلك حقا فان قائد الفرقة البحرية فى القنال أخذ المبلغ من « جيل » وسلم منه أربعة آلاف جنيه الى « بالمر » وحجز الباقي على حسابه ، وأرسل معه « جيل » وضابطا آخر فقتلوا جميعا بين العربان

وكان مركز الدسائس والمخابرات فى اسكندرية فى مكتب يسمى (قسم المخابرات العسكرية) اجتمع فيه كثير من موظفى الحكومة المصرية ومن المقيمين بمصر

وكان روح الجميع سلطان باشا ..

عرف سلطان باشا ان توزيع النقود باسم الانجليز لا يفيد ، وعرف مقدار سلطة النقود على الارواح ، فأخذ فى التوزيع باسم الخديو والسلطان ، واختار لبث الأفكار الحاوى الطحاوى أحد ثقة عرابى ، وكان الحاوى يعط اخوانه العربان بعضيان عرابى وقوة الجيش المحارب ونحو ذلك ، وكانت المبالغ التى تدفع الى الأفراد تتفاوت من جنيهين الى ثلاثة جنيهات . ولم يكن عرابى مقتنعا بخيانة العربان ، وكان الحاوى مع ذلك يخبر عرابى ببعض حركات العدو على وجه الصدق وعرابى كان نفى له بجميع ما عنده



فى واقعة القصاصين كان الرسم كما ينبغى ، وكانت العساكر المصرية يجب أن تزحف فى الساعة الثانية بعد نصف الليل على الجيش الانجليزى ، وما راع القواد المصريين الا وجود الفرق الانجليزية زاحفة وآخذة جميع الطرق فى الساعة الواحدة . وقد جرح على فهمى ، وراشد باشا والهزم الجيش ، وما ذاك الا من الجواسيس العربان ، وكانت الخيانة وصلت والنقود قد وصلت الى قلب الجيش والى كثير من الضباط بسعى سلطان باشا ومراسلة العربان

فى ١١ سبتمبر جاء مراسل عرابى يئنه بخيانة العربان .. فأبى قبولها

قائلا انهم مسلمون « ١١١ »

وفي ٢١ سبتمبر أنبىء عرابى من المنبع نفسه ( بعض رؤساء العربان أيضا ) بأن الانجليز سيضربون التل الكبير ، ويرمون الى بليس ( جهة حصنها الفرنسيون من قبل ) ليأخذوا هذا الموضع ويفتحوا طريق القاهرة . اقتنع عرابى بصحة الخبر فأرسل الى طلبه ، يطلب منه ارسال فرقة من الجنود لتكون في التل الكبير صباح الثالث عشر من شهر سبتمبر . جاءت الفرقة ماشية ، وصلت الزقازيق في صباح اليوم المذكور بعد الهزيمة

وقد قال أحد الضباط انه في الساعة الثانية بعد نصف الليل لم يشعروا الا بصياح العربان ، وبضرب النيران ، ولم يعرف من كان لهم ممن عليهم ، ووقع الاضطراب العام ، والجيش الجديدة انهزمت فكان الانجليز يقتلونهم كأنهم صيد ، وقاوم ثلاثة آلاف مات نحو نصفهم .. وقد عجز بعض الضباط عن المشى عند الفرار لثقل النقود التي كان يحملها

#### مكافأة سلطان باشا

هذا الهمام الوطنى الذى أوقد نار الفتنة في البلاد ، وجمع لها وقودها وحطبها حتى امتد لهما وعم جميع الأنحاء ، ثم هرب من طريقها حينما خاف أن يلذعه لسان لهما ..

جاء في آخر الأمر نائبا عن الحضرة الخديوية في حبس كثير من الناس ولم يفرق بين الأبرياء وغيرهم . وقد نال المكافأة (١) من الجناب العالى بالاحسان جزاء ايقاد الفتنة ثم الهرب منها ليتعلم كل مصرى هذه الطريقة المفيدة لكسب الشرف ونيل الاحسان أولا وآخرا !.. الا أن العدل الالهى سيقوم بمجازاته حق المجازاة على ما صدر منه أول الأمر وآخره « يوم يعرض الظالم على يديه يقول : يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتى ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا ، لقد أضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى ،

(١) انعم الخديو توفيق على سلطان باشا بعد الاحتلال بعشرة الاف جنيه من المال جزاء اخلاصه

وكان الشيطان للانسان خذولا « وكما ان العدل الالهى سيأخذه بما  
قدم من عمله ، أظن أن محاكم العدل الانسانية تبين له خطأه فى زعزعة  
راحة البلاد المصرية فى أول الأمر





## الإمام في السجن

لما انهزمت مصر في الثورة العرابية ، قبض على الاستاذ الشبخ محمد بده مع من قبض عليهم من زعماء الأمة لمحاكمتهم ، وأودع السجن رهن مثوله أمام المحكمة العسكرية التى ألفتها الخديو توفيق لهذا الغرض ، وقد قضى فى السجن ثلاثة أشهر وأيام . ثم حوكم وحكم عليه بالنفى الى خارج القطر المصرى ثلاث سنوات ، فأقام فى بيروت مدرسا بمدرسة جمعية المقاصد الخيرية للأدب والتوحيد وعلوم الدين . ثم فر الى باريس وقد نظم قصيدة طويلة أثناء سجنه تبلغ نحو مائة وخمسة عشر بيتا وصف فيها الثورة العرابية وموقفه الوطنى منها . ثم كتب فى ذلك الحين خطابا الى أحد أصدقائه يرد فيها على الخونة المنافقين الذين انتهزوا فرصة القبض عليه وكتبوا فيه تقارير حشدوها بالكذب والبهتان . وهذا الخطاب قطعة من الأدب !

أما القصيدة ، فقد جاء فى مطلعها :

مَالِي يَتَعَفَّفُ قَلْبِي مِنْ تَغَاضِيهِ  
دهرٌ يَبَالِغُ فِي عَجَبٍ وَفِي تِهٍ  
أَيَّتْ لَيْلِي كَمَلَسْتُوعِ تَسَاوِرُهُ  
زُرُقِ الْأَفَاعِي وَقَدْ شَدَّتْ أَيْادِيهِ  
وما ذُنُوبِي لَدَى دَهْرِي سِوَى شَمِّ  
تَأْبَى الدُّنْيَا وَأَفْكَارُ تَضَاهِيهِ  
سَرِيتُ لِلْمَجْدِ هَوْنًا عَلَى ذِي عَجَلٍ  
عَلَى أَسَاسٍ مِنَ التَّقْوَى أَرَاعِيهِ

مجدى بمجدر بلادى كنت أطلبه  
 وشيعة الحر تآبى خفض أهليه  
 وأما الكتاب الذى أرسله الى أصدقائه ( ولعله سعد زغلول ) فقد  
 تبادل معه عدة خطابات أثناء بفيه فى بيروت . وكان زميلا له فى تحرير  
 « الوقائع المصرية » فى عهد الثورة المرابية



## الخطاب

في ٩ المحرم سنة ١٣٠٠ هـ ، الموافق ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٢ م  
عزيزى ..

تَقَلَّدْتَنِي اللَّيَالَى وَهِيَ مَدْبِرَةٌ  
كَأَنْتَى صَارِمٌ فِي كَهْفٍ مُتَهَيِّزٍ

هذه حالتى : اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر ، فأخذت صغوره  
من مركز الارض الى المحيط الاعلى ، واعترضت ما بين المشرق والمغرب ،  
وامتدت الى القطبين . فاستحجرت فى طبقاتها طباع الناس ، اذ تغلبت  
طبيعتها على المواد الحيوانية أو الانسانية ، فأصبحت قلوب الثقلين  
كالحجارة أو أشد قسوة فتبارك الله أقدر الخالقين

انتشرت نجوم الهدى ، وتدهورت الشُّموس والاقمار ، وتغيبت  
الثوابت النيرة ، وفر كل مضيء منهزما من عالم الظلام ، ودارت الافلاك  
دورة العكس ، ذاهبة بنيرانها الى عوالم غير عالمنا هذا ، فولى معها آلهة  
الخير أجمعين ، وتمحضت السلطة لآلهة الشر فقلبوا الطباع ، وبدلوا  
الخلق وغيروا خلق الله ، وكانوا على ذلك قادرين

رأيت نفسى اليوم فى مهمة لا يأتى البصر على أطرافه ، فى ليلة داجية ،  
غطى فيها وجه السماء بغمام سوء ، فتكاثف ركاما ، لا أرى انسانا ،  
ولا أسمع ناطقا ، ولا أتوهم مجيبا ، أسمع ذئابا تعوى ، وسباعا تزأر ،  
وكلابا تنبح ، كلها يطلب فريسة واحدة ، هى ذات الكاتب ، والتف على  
رجلى تنينان عظيمان ، وقد خويت بطون الكل ، وتحكم فيها سلطان  
الجوع . ومن كانت هذه حاله ، فهو بلا ريب من الهالكين

تقطع حبل الأمل ، وانقضت عروة الرجاء ، وانحلت الثقة بالاولياء ،  
وضل الاعتقاد بالإصفياء ، وبطل القول باجابة الدعاء ، وانفطر من صدمة

الباطل كبد السماء ، وحقت على أهل الارض لعنة الله والملائكة والانبياء  
وجميع العالمين

سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم  
الحق ، وحرقت الشرائع ، وبدلت القوانين ، ولم يبق الا هوى يتحكم ،  
وشهوات تقضى ، وغىظ يحتدم ، وخشونة تنفذ ، تلك سنة الغدر ، والله  
لا يهدى كيد الخائنين

ذهب أرباب السلطة فى بحور الحوادث الماضية ، يغوصون لطلب  
أصداف من الشبه ، ومقذوفات من التهم ، وسواقط من اللمم ، ليموهوها  
بمياه السفسطة ، ويغشوها بأغشية من معادن القوة ، ليبرزوها فى معرض  
السطوة ، ويغشوا بها أعين الناظرين

لا يطلبون ذلك لغامض يبينونه ، أو لمستور يكتشفونه ، أو لحق  
خفى فيظهرونه ، أو خرق بدا فيرقعونه ، أو نظام فسد فيصلحونه ، كلا  
بل ليثبتوا أنهم فى حبس من حبسوه غير مخطئين

وقد وجدوا لذلك أعوانا من حلفاء الدناءة ، وأعداء المروءة ، وفاسدى  
الأخلاق ، وخبثاء الأعراق ، رضوا لأنفسهم قول الزور ، وافتراء  
البهتان ، واختلاق الافك ، وقد تقدموا الى مجلس التحقيق ، بتقارير  
محشوة من الأباطيل ، ليكونوا بها علينا من الشاهدين

كل ذلك لم تأخذنى فيه دهشة ، ولم تحل قلبى منه وحشة ، بل أنا  
خلى آتم أوصافى التى تعلمها ، غير مبال بما يصدر به الحكم أو يرميه  
القضاء ، عالما بأن كل ما يسوقه القدر وما ساقه من البلاء ، فهى نتيجة  
ظلم لا شبهة للحق فيه ، لأن الله يعلم — كما أنت تعلم — اننى برىء من  
كل ما رمونى به ، ولو اطلعت عليه لوليت منه رعبا أو كنت من الضاحكين  
نعم خنقنى النعم ، وأصمى قوادى الهم ، وفارقنى النوم ليلة كاملة ،  
عندما رأيت اسمك الكريم ، واسم بقية الأبناء والاخوان المساكين ،  
تنسب اليهم أعمال لم تكن ، وأقوال لم تصدر عنهم ، قصد زجهم فى  
"السجون .. لكن اطمأن قلبى ، وسكن جأشى ، عندما رأته" تواريخ

التقارير متقدمة ، ومع ذلك لم يصلك شر الشر ، فرجوت أن الحكومة  
لم ترد أن تفتح بابا لا يذر الأحياء ولا الميتين

قدم فلان وفلان تقريرين جعلاً فيهما تبعات الحوادث الماضية على  
عنقي ، ولم يتركاً شيئاً من التخريف الا قالاه ، وذكر أسماءكم في أمور  
أنتم جميعاً أبعد الناس عنها ، ولكن لا حرج عليهما ، فاني أعدهما من  
المجانين

ولم أتعجب من هذين الشخصين ، اذ يعملان مثل هذا العمل القبيح ،  
ويرتكبان هذا الجرم الشنيع ، ولكن أخذني العجب كل العجب ، غاية  
العجب ، بالغ ما شئت في عجبى ، اذ أخبرنى المدافع عنى بتقرير قدمه  
( فلان ) الذى أرسلت اليه السلام ، وأبلغته سرورى عندما سمعت  
باستخدامه وأنا فى هذا الحبس رهين

الى هذا الوقت لم يصلنى التقرير ... ولكن سيصل الى ، انما فيما  
بلغنى انه شاهده بأقبح شيء ، لا يشهد به الا عدو مبير  
هذا اللئيم الذى كنت أظن انه يآلم لألمى ويأخذ الأسف لحالى ،  
ويبذل وسعه ان أمكنه فى المدافعة عنى ، فكم قدمت له تقعا ، ورفعت له  
ذكرا ، وجعلت له منزلة فى قلوب الحاكمين

كم سمعنى أقاوم هجاء الجرائد وأوسع محريها لوما وتقريبا ، وأهزأ  
بتلك الحركات الجنونية ، وكان على فى بعض أفكارى هذه من اللائمين  
كان ينسب فلانا لسوء القصد اتباعا لرأى فلان ، وأعارضه أشد  
المعارضة ، ثم لم أنقض له عهدا ، ولم أبخس له ودا ، وحقيقة كنت  
مسرورا لوجود موظف ، فما باله أصبح من الناكثين ؟

آه ما أطيب هذا القلب الذى يملئ هذه الاحرف ! ما أشد حفظه  
للولاء ، ما أغيره على حقوق الاولياء ، ما آتبه على الوفاء ، ما أرقه على  
الضعفاء ، ما أشد اهتمامه بشئون الاصدقاء ، ما أعظم أسفه لمصائب  
من بينهم وبينه أدلى مودة ، وان كانوا فيها غير صادقين  
ما أبعد هذا القلب من الايذاء ، وان للأعداء ، ما أشده رعاية للود ،

ما أشده محافظة على العهد ، ما أعظم حذره من كل ما توبخ عليه الذم  
الطاهرة ، ما أقواه اقداًما على العمل الحق ، والقول الحق ، لا يطلب  
عليه جزاء ، وكم اهتم بمصالح قوم وكانوا عنها غافلين

هذا القلب الذى يؤلمونه بأكاذيبهم ، هو الذى سر قلوبهم بالترقية ،  
وملاها فرحاً بالتقدم ، ولطف خواطرهم بحسن المعاملة ، وشرح صدورهم  
بلطف المجاملة ، ودافع عنهم أزماناً — خصوصاً هذا اللثيم — أفشـرح  
الصدور وهم يـخرجون ! ونشـفى القلوب وهم يؤلمون ! ونفرحها وهم  
يحزنون ! تالله قد ضلوا وما كانوا مهتدين

هذا القلب ذاب معظمه من الأسف على ما يلم بالهيئة العمومية من  
مصائب هذه الثقلبات ، وما ينشأ عنها من فساد الطباع ، الذى يجعل  
العموم فى قلق مستديم ، وما بقى من هذا القلب فهو فى خوف على من  
يعرفهم على عهد مودته ، فإن تسللوا جميعاً بمثل هذه الاعمال وأصبحوا  
من مودته خالين ، واتخذوه وقاية لهم من المضرة ، وجعلوه ترساً يعرضونه  
لتلقى سهام النوائب التى يتوهمون تفريقها اليهم ، كما اتخذوه قبل ذلك  
سهما يصيبون به أغراضهم ، فينالون منها حظوظهم ، فقد أراحوا تلك  
البقية من الفكر فيهم ، والله يتولى حسابهم ، وهو أسرع الحاسين

آه ، ما أظن ان تلك البقية تستريح من شاغل الفكر فى شئون الأجرة ،  
وان جاروا فى تصرفهم ، ان طبيعة هذا القلب لطبيعة ناعم الخز ، اذا  
اتصل بذى الود ، وان كان خشنا فصعب أن ينفصل ولو مزقته خشوته ،  
وان هذا القلب فى علاقته مع الوداء ، كالضيء مع الحرارة ، أيما حادث  
يحدث ، وأيما كيماوى يدقق ، لا يجد للتحليل بينهما سبيلاً ، وأظنك فى  
العلم بثبوت تلك الطبيعة فيه كنت من المحققين

أى عزيزى

الآن وصلنى تقرير اللثيم ، فقرأته بأول نظرة ووجدته كما بلغنى ،  
وسأرد عليه فى بضع دقائق بما يسود وجهه ويخجله ان كان إنساناً ،

ولكن تصادف فراغ الحبر من الدواة ، فسأنتظر بالرد عليه وتتميم رقيمي اليك بعض ساعات فكن معي من المنتظرين

رددت على التقرير ، وكان كل ما فيه الغش والتغريب ، وذكر فيه فلانا .. بأشنع ما يؤخذ به انسان في هذه المسألة كما ذكره الخبيثان قبله ، ولكن دفعت ما قاله في جانبه أيضا . وأخذت على نفسي كل مسئولية تنسب اليه أو اليكم ، فما عليكم اذا سئلتهم الا أن تكونوا منكرين

ربما يسألکم ( القومسيون ) عن معلوماتكم في شئون أيام الحوادث ، فلا يدخل عليكم غش السؤال والارهاب ، ولكن عبروا عما كنتم تشهدون وتعلمون من أفكارى وأقوالى التى كانت تهزأ بالحكومة الفلانية ، ومن كانوا لها من الطالبين . الى هذا الحد قفوا ، فان سئلتهم فقولوا ما نحن بتأويل الأحلام بعالمين

في هذا الوقت وصلنى الرقيم مبشرا بيقائكم في مركزكم ، فقامت ورفعت يدى ورجلى وناديت : الحمد لله رب العالمين .. وأخذنى الاسف على حبس فلان ، لكن دل اطلاقه على حسن حالة الباقيين

يا عزيزى أعود الى ذكر ما لأولئك القوم ، كأنما قذف بهم من شاهق جبل فسقطوا على رعوسهم ، ففشييتهم من شدة الصدمة ما غشيتهم ، فقاموا ينطقون بما لا يعون ، ويكلمون ولا يفهمون ، ما بالهم يقذفون من أفواههم أخلاطا أقدر من البلغم ، وأمر من الصفراء .. وكأنما جرعوا جرعة من السم فقلبت أمعاءهم فاستفرغت من حلاقيهم أخبث ما يحملون ما بال دنان قلوبهم تفيض من اللؤم أشد من فيضان بئر برهوت ، تقذف بسائلات بشعة الطعم ، خبيثة المنظر ، كريهة الرائحة ، تضطر معانيها للفرار منها ؟ لكن أعضاء التحقيق من زكام الحوادث الاخيرة لا يشمون ولا يذوقون ، ومن ظلماتها لا يبصرون

هل بطل يا عزيزى ما جاء على لسان النبوات : الانسان أسير الاحسان؟ هل قبض ما جاء من ذلك : المعروف بذر المحبة يفرسها في أعماق القلوب؟

هل هدمت قاعدة : ان الحيوان يقاد بالزمام والانسان يقاد بالصنعة ؟  
 هل كان خرافة ما قرره الحكماء من الفصول الطويلة تقسيما للمحبة  
 وبيانا لفضائلها ومنافعها في الاجتماع الانساني الخبيث ؟ هل كان خرافة  
 ما حوته الكتب متعلقا بموجبات روابط النوع البشرى ؟ أم صح كله  
 لكن الناس به جاهلون ؟

هل أتأسف ان كنت سباقا الى الخيرات ؟ هل أتأسف ان كنت مقداما  
 في المكرمات ؟ هل أتأسف ان كنت شجاعا في الدفاع عن ذوى مودتى ؟  
 هل أتأسف ان كنت أيما أغار أن ينسب مكروه أو ذل لأولى سلتى ؟  
 هل أستحق العقاب على حبي لبلادى والناس لها كارهون ؟

كلا .. والله لن يكون ذلك ولم أزد في سبيل الفضيلة الا بصيرة ،  
 ولم أزد في المحافظة عليها الا ثباتا ، ولئن عشت لأصنع المعروف ،  
 ولأغيش الملهوف ، ولأنقذ الهاوى في حفرة الغدر ، ولأخذن بيد  
 المتضرع من ضغط الظلم ، ولأتجاوزن عن السيئات ، ولأتناسين جميع  
 المضرات ، ولأبينن لقومى انهم كانوا في ظلمات يعمهون ، ولأظهرن  
 الصديق في أجمل صورة ، ولأجلونه للناس في أبهج حله ، ولأثبتن لهم  
 ببرهان العمل انه فكرك الثانى في روحك الواحدة ، وانه جسمك الآخر  
 في حياتك المتحدة ، وانه صاحبك اذا طال ليل الكدر ، ومصباحك اذا  
 غسق دجى الهموم ، ستضىء به في حل ما انعقد ، وتستعين بقوته في  
 تيسير ما عسر ، وتذهب به الى أوج المعالى ، والناس من معجزات  
 الصديق يتعجبون

اننى اليوم أعجز من المقعد عن طلوع النخل ، ومن المفلس عن حرية  
 التصرف . وقد صار سقوط الجاه كمرض يصيب الجيل الفاتن ،  
 فيخف الجسم ، ويغير اللون ، ويقلص الشفاه ، ويضعف القوى ، ويقعد  
 عن الحركة ، ويبعد عن نيل المطلوب . ويثقل على الأهل والعشائر في  
 التمريض . ويسئهم ان طال زمن معاناة العلاج ، فيصبح المريض منهم  
 فى أدنى المنازل ، وقد كان ربا لهم وهم له ساجدون



يذهب عنه البهاء ، وينكشف من وجهه الضياء ، وتنكره عند الرؤية  
 أعين العشاق ، وتمجّه طباع ذوى الاذواق ، وتمحى من جبينه تلك  
 الأسطر الجليلة العبارة ، الصادقة النسبة ، الناطقة بالحق ، القائلة : هنا  
 كنز الرغبات ، هنا منال الحاجات ، ههنا ما يروح الروح ، ههنا ما يقضى  
 وطرا فى الانفس ، ههنا ما يخشى منه على الارواح والافئدة ، فينحرف  
 عنه السالكون اليه ، وقد كانوا قبل على آثار غباره يتدافعون ، وقيسوا  
 على مرض الجميل مرض صاحب جاه ولا أظنكم بالقياس تجهلون

لكن أقول لكم : ان الحوادث المريعة سوف تنسى ، وان هذا الشرف  
 يرد ، ولئن أثبت طبيعة هذه الارض بخستها أن يكون لها من عوده  
 نصيب فليعودنّ في بلاد خير منها ، ولأجذبني الى المجد أحبتي ، ومن  
 الى المجد ينجذبون

كل ذلك ان عشت وساعدتني صحة الجسم ، ولا أطلب شيئا فوق  
 هذين سوى معونة الله الذى عرفه بعض الناس ، وبعضهم له منكرون  
 أطلت عليك الكلام فلا تسأم ، وأظنه آخر كتاب منى اليك فى السجن  
 الا أن يحدث حادث يسمح بالكتابة مرة أخرى . فان تلاقينا بعد اليوم  
 كانت المشافهة أزكى ، والا كانت المراسلة أجلى وأعلى . ولا تجزع ،  
 فليس فى الأمر ما يفزع ، وهو أهون مما يتوهمون ، وأسأل الله أن يغض  
 عنكم أبصار الظالمين ، ويحفظكم من نكاية الخائنين ، ويسر قلبى  
 الطمأنينة عليكم وعلى سائر الاخوان والأبناء أجمعين

محمد عبده

## فهرس

### صفحة

٥	تقديم .....
١٦	سيرة الامام .....
	الفصل الاول :
٣٦	مذكرات الامام .....
	الفصل الثاني :
٥٣	عهد جديد .....
٦٦	وزارة رياض باشا .....
	الفصل الثالث :
٨٠	حكومة توفيق .....
	الفصل الرابع :
٩٦	الثورة العراقية .....
	الفصل الخامس :
١١١	مجلس النواب .....
	الفصل السادس :
١٢٧	اسباب الحادثة .....

## الفصل السابع :

سفر عرابي الى رأس الوادي ..... ١٣٤

## الفصل الثامن :

مندوب السلطان ..... ١٤٢

## الفصل التاسع :

ضرب الاسكندرية ..... ١٥٣

## الفصل العاشر :

الامام في السجن ..... ١٦٥

الخطاب ..... ١٦٧

طبع  
بمطابع مؤسسة دار الهلال



# منتدی سور الانزبکیہ

---

WWW.BOOKS4ALL.NET